جامعة أريس

قسم الدراسات العليا

شعبة التفسير وعلوم القرآن

السرّية والكتمان في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة

رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في الدراسات الإسلامية

(قسم التفسير وعلوم القرآن)

١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م

إشراف الأستاذ الدكتور جهاد حمد

إعداد الطالب: شحدة أحمد ذيب

إهداء

- إلى كل الدعاة المخلصين الصابرين.
- إلى كل المجاهدين الصامدين على ثغور الإسلام.
- إلى روح والدي الذي ربّاني على هذه المعاني.
- إلى كل متصدق أخفى صدقته أو أعلنها.
- إلى كل قائد حريص على وطنه وجنده.
- إلى كل من أصابه أذى لعدم أخذه بمبدأ السرّية والكتمان.
- إلى كل شهيد وأسير.
- إلى كل لاجئ خرج من وطنه قسراً.
- إلى كل من تمنّى لي النجاح من زوجة أو ولد أو قريب أو صديق.
- إلى كل من يعمل لرفعة هذه الأمة لتصل إلى السيادة والريادة.

أقدم هذا الجهد المتواضع عسى الله أن ينفع به، وأسأله سبحانه وتعالى الإخلاص قولاً وعملاً، سراً وجهراً.

شحدة أحمد ذيب

شكر وتقدير

بداية أشكر الله العظيم الذي وفقني لهذا العمل وأعانني على إنجازه، فهو الذي بنعمته تتم الصالحات، ثمّ أتقدم بالشكر الجزيل والاحترام والتقدير والعرفان الجميل، لأستاذي وشيخي الدكتور جهاد حمد، كم أكرمني بفضل علمه، وكم اختصني بلطيف نصحه، معلمي القدير، حمد الله له صنائعه، كان أستاذي في المرحلة الجامعية الأولى ومن لطيف صنع الله، وحسن وجمال قدره، أن جعل الله هذا الشيخ العالم، مشرفاً على رسالتي، وكانت لي مفاجأة جميلة، بعد سنوات عدة وبرغم بعد الجغرافيا، وتغييري للجامعة، وقد كان لي نعم المشرف، ونعم الموجه والمرشد، وحرص على إخراج هذا العمل بأفضل حلّة وأبهى طلّة على عالم الأبحاث، الذي لم أجد أحداً سبقني إليه بهذا العنوان وهذه التخصصية، ومهما شكرته فلن أوفّيه حقه، لذا أحيل أجره على الله ليجزيه خير ما يجزي ولياً من أوليائه.

والشكر موصول لكل أفراد أسرتي الذين صبروا على بعدي عنهم، وصحبتي للكتاب والحاسوب لفترات طويلة من أجل إنجاز هذا العمل، وأسأل الله أن يبارك فيهم وينفعهم بهذه الدراسة، ويجعلهم قرة عين لأمة محمد ﷺ، ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل للجامعة بإدارتها وكوادرها التعليمية، ولجنة المناقشة الموقرة وأسأل الله أن يجزيهم خيراً.

الباحث

أسباب اختيار البحث

١-ابتعاد الأمة حكاماً ومحكومين عن تطبيق شرع الله والأخذ بأسباب النصر من الكتاب والسنة النبوية.
٢-الاستهتار الموجود في الأمة في التعامل مع مبدأ السرّية والكتمان.
٣-النتائج الوخيمة التي تعود على الأمة عند إهمالها الأخذ بالسرّية والكتمان.
٤-النتائج الإيجابية التي تنعكس على أحوال الأمة نصراً وعزاً وفخاراً عند الأخذ بأسباب النصر من السرّية والكتمان، واقتفاء أثر رسول الله ﷺ وأفعاله، وما ينطبق على الأمة ينطبق على الأفراد والجماعات.

أهمية البحث

إن من ينظر إلى عالمنا الإسلامي يرى العجب العجاب في تخلفه عن ركب الأمم، وذلك في جميع المجالات، سياسية كانت، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو تقنية، أو عسكرية، أو علمية، أو غير ذلك، وما ذاك إلا لبعدهم عن دينهم القويم، وتنكبهم له، وجعل كتاب الله وسنّة رسوله ورائهم ظهرياً، مع أن أسباب قوتنا ونهضتنا تكمن في التزامنا بقرآننا، وبهدي نبيّنا الكريم عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فقد قال عمر (١) – رضي الله عنه –: (كُنْتُمْ أَذَلَّ النَّاسِ فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بِرَسُولِهِ، فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلُّكُمُ اللهُ) (٢)

ومن أسباب النصر في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى: **(قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)** (٣)

فهذا عنصر المباغتة والمفاجئة يأتينا بالنصر بإذن الله، وهذا العنصر لا يتأتى، ولا يتحقق إلا بالسرّية والكتمان، فتطبيق هذين الأمرين ينتج عنهما المفاجئة للأعداء وهذه بدورها تورث الهلع والرعب في صفوف الأعداء فتربكهم فلا يستطيعون الإعداد ولا الاستعداد فتتبلبل الصفوف وتحدث لهم الهزيمة، وكان رسول الله ﷺ مثالاً يحتذى في تطبيقه للسرية والكتمان، فكان كثيراً ما يخفي وجهته وتحركاته في الغزو ويبث العيون ويعمّي بالأخبار عن العدو فيباغته في ساعة يكون العدو غير مستعد فيها للحرب وغير متوقع لها، إذ ليس لديه أية أخبار عن تحركات الجيش المسلم، فبالسرّية والكتمان تكون

١– عُمَر بْن الخطاب بْن نفيل من بني عدي بن كعب ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، كانت له السفارة فِي الجاهلية وكان إسلام عمر في السنة السادسة سمّاه النبيّ بالفاروق، طُعِنَ لأربع ليال بقين من ذي الحجة، سنة ثلاث وعشرين، ودُفِنَ صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين، وخمسة أشهر، وواحدٍ وعشرين يومًا. عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٣٧/٤ باب العين والميم ٣٨٣٠

٢– أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٤٧/١، الناشر: السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م

٣– سورة المائدة، الآية ٢٣

المباغتة، وبالمباغتة يكون النصر بإذن الله، وبالمقابل تكون الهزيمة للمسلمين إذا كانت أمورهم مكشوفة للأعداء بحيث يستطيع الأعداء أن يضعوا المخططات المضادة لما عند المسلمين.

وبكل أسف أقولها بملئ الفم أنّ الأمة الإسلامية مكشوفة الآن لأعدائها من كل الجوانب، فالجانب الاقتصادي مكشوف، والأرصدة في بنوك الغرب مكشوفة، وأعداد الجيوش معلومة، وأسلحة الدول الإسلامية معروف عددها، وعتادها، ومعظمها صناعات غربية كالطائرات، والأسلحة الثقيلة، وقطع الغيار وغير ذلك، وكله مكشوف أمام الأعداء، فأنّى يكون النصر وقد أهملنا الأخذ بأسبابه؟

ولأن هذه الدراسة تناقش هذا الموضوع المهم الذي ينعكس على أمن الفرد والمجتمع المدني والعسكري جاءت أهميته من خلال بيان التوجيه الرباني والتطبيق النبوي الذي يحفظ الأمن والسلامة للجميع، وحريٌّ بنا أن نأخذ ما جاءنا به نبينا الكريم عليه صلوات الله وسلامه، فما أن نأخذ بأسباب النصر حتى يأتي من عند الله العزيز الحكيم. **(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا)** (١)

١- سورة الإسراء، الآية ٥١

إشكالية البحث

لا شك أن الناظر لأحوال أمتنا الكريمة يرى الكثير من مظاهر إفشاء الأسرار وظهورها للقاصي والداني من أعدائها، ولم يبق للأمة شيئاً تستره عن أعدائها إلا ربما النزر اليسير، وذلك على مستوى الدول، أو الأفراد، والجماعات، وذلك بسبب وسائل التقنية الحديثة من وسائل التجسس، والمراقبة.

وكذلك بسبب عدم أخذ الاحتياطات اللازمة التي أمرنا ديننا الحنيف أن نأخذ بها، فلو أن الأمة أخذت بأسباب النهوض وواكبت التقدم العلمي على جميع الصعد، وأخذت بالكتمان وأسبابه، لوصلت إلى حد الكفاية العلمية، وبها إلى الكفاية الصناعية، والزراعية، والقوة العسكرية، والاقتصادية ولأصبحت أسرارها وأحوالها مستورة عن أعدائها، ولأصبحت في مصاف الدول والأمم المتقدمة ذات السيادة، وكيف لا! وهي التي ينبغي لها أن تسود.

وقد حثنا القرآن الكريم على العلم، والأخذ بأسباب المعرفة، والتقدم، وكتمان الأسرار عن الأعداء، فما انتصرت هذه الأمة إلا ومن أسباب نصرها المحافظة على السرّية والكتمان، فلا تتسرب أسرارها لعدوها، بعكس ما نرى الآن من انكشاف عورات الأمة لأعدائها، فإذا ما حصلت مواجهة بين هذه الأمة وأعدائها فما أسهل ضربها في مقتلها المكشوف لأعدائها، وبعكس ما كان عليه محمد ﷺ في غزواته وحروبه ضد أعدائه، فكان دأبه التكتم على حركته، وعلى عدته وعتاده.

وكان ﷺ يورّي بوجهته حتى يباغت العدو، قبل أن يأخذ العدو حذره، فتكون الهزيمة للعدو، والنصر لهذه الأمة، فيا أمتي العظيمة، آن الأوان أن يكون لنا كيان مستقل، له سيادة على أرضه، وسمائه، ومياهه، واقتصاده، ومعلوماته، فعودي إلى كتاب الله، وسنة نبيه الكريم تفلحي، وتنجحي، وتسودي.

أهداف البحث

١-التعرف على الآيات وبعض الأحاديث التي ذكرت السرّية والكتمان.
٢-توضيح معاني السرّية والكتمان في القرآن والسنة.
٣-توضيح أهمية السرّية والكتمان لدى القيادة والأفراد.
٤-الامتثال للتوجيهات القرآنية في هذا الجانب.
٥-التأسّي برسول الله ﷺ في حياته وغزواته في التعامل بهذا الأمر مع العدو، والصديق، في الحرب والسلم.
٦-توجيه المنتفعين من هذا البحث إلى ضرورة الأخذ بالسرّية والكتمان قولاً وفعلاً.
٧-إبراز النواحي الإيجابية عند الأخذ بالسرّية والكتمان في حياة الدولة والأفراد والجماعات.
٨-إبراز النواحي السلبية عند عدم الأخذ بالسرّية والكتمان في مناحي الحياة كلها

خطة البحث

المقدمة

المبحث التمهيدي وفيه مطلبان:
المطلب الأول:
تعريف السرية والكتمان لغة واصطلاحاً والفرق بينهما
المطلب الثاني:
أنواع السرّ والكتمان وفوائدهما.

الفصل الأول وفيه مبحثان:
المبحث الأول:
التصنيف الموضوعي للآيات التي ورد فيها ذكر الكتمان

المبحث الثاني:
أهمية الكتمان في الاستقرار والسلامة للمجتمع على مستوى الجماعة والفرد.

الفصل الثاني وفيه مبحثان:
المبحث الأول:
التصنيف الموضوعي للآيات التي ورد فيها ذكر السرّية

المبحث الثاني:
أهمية السرية في الاستقرار والسلامة للمجتمع على مستوى الجماعة والفرد.

الفصل الثالث:
السرّية والكتمان في السنة النبوية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:
السرّية والكتمان في حياة النبيّ ﷺ وفيه:
أولاً: السرية والكتمان في الدعوة.
ثانياً: السرية والكتمان في الهجرة.
ثالثاً: السرية والكتمان في الحياة الاجتماعية.
رابعاً: السرية والكتمان في الغزوات والحياة العسكرية.

المبحث الثاني:
السرّية والكتمان في حياة الصحابة في زمن النبيّ ﷺ وفيه:
أولاً: السرية والكتمان في الدعوة.

ثانياً: السرية والكتمان في الحياة الاجتماعية.

ثالثاً: السرية والكتمان في الغزوات والسرايا والبعوث.

المبحث الثالث:

نماذج من السرّية والكتمان في العصر القديم والعصر الحديث.

الفصل الرابع

نماذج من السرّية والكتمان في حياة الأنبياء، وأخص نوحاً عليه السلام و أقوال وأشعار وحكم وأمثال في السرّية والكتمان.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نماذج من السرّية والكتمان في حياة الأنبياء، وأخص نوحاً عليه السلام.

المبحث الثاني: أقوال وأشعار وحكم وأمثال في السرّية والكتمان.

المراجع

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس الأعلام المترجم لها

فهرس الأشعار

المحتويات

المقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى

لا شك أن كل فرد من هذه الأمة حريص على رفعتها، وينتظر اليوم الذي يرى فيه أمته رائدة بين الأمم، وتتبوأ مكانتها الصحيحة في هذا العالم، حيث لا تقبل هذه الأمة بأقل من أستاذية العالم، الذي سبق وأن تربعت على كرسيها ردحاً من الزمن، حين أخذت بكتاب ربها، وسنة نبيّها، واقتدت بهما، فكان النصر حليفها.

وموضوع السرية والكتمان له أهمية كبيرة في حياة الأمم واستقرارها وعدم ذهابها واندثارها، وهو عامل رئيس من عوامل النصر والعزة والتمكين.

منهج البحث:

اتبعت في دراستي هذه منهج البحث التاريخي، واعتمدت على المصادر الموثوقة، كالقرآن، والسنة النبوية، وأقوال العلماء، والكتّاب من بطون مؤلفاتهم ومما ثبتت نسبته الصحيحة لهم، وعزوت الأقوال لأصحابها، وقد قمت بحصر الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكتمان، وبوبتها حسب موضوعها، ثم قمت بحصر الآيات التي تتحدث عن السرّية، وكذلك بوبتها حسب موضوعها، ثم جعلت فصلاً عن السرّية والكتمان في السنة النبوية مسترشداً بفعله وقوله ﷺ في باب السرّية والكتمان، وكان الفصل الأخير حول السرّية والكتمان في حياة الأنبياء وخصصت نوحاً عليه السلام.

وقد حثّنا القرآن الكريم على لسان يعقوب حين أوصى ابنه يوسف عليهما السلام بكتمان رؤياه عن إخوته مخافة الحسد والكيد، كما حثّنا رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين على الكتمان من أجل إنجاح الحوائج والوصول إلى الهدف دون خسائر أو بأقلها.

كما لا يخفى على كل من قرأ قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، وكيف أن كتمان أمره عن فرعون كان سبباً في نجاته من الهلاك، مع ما صاحب ذلك من انفطار قلب أُمّه عليه حتى كادت أن تفضح الأمر من شدة شوقها لابنها، فكان التثبيت من الله، وبذا نجا موسى عليه السلام من القتل.

وعليه، فإن السرّية والكتمان، مطلوبان للحفاظ على الذات والممتلكات، على مستوى الدول والأفراد والجماعات، وقد خاطبنا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وحثنا على اقتفاء أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإقتداء به، فلنا فيه أسوة حسنة.

وقد علمنا رسول الله ﷺ الكتمان والسرّية بسلوكه العملي، ففي هجرته كتم الأمر عن كل الناس، وعندما حان الوقت، أسرّ بذلك لأبي بكر رضي الله عنه، وسلك طريقاً غير المعتادة، بل إنه غيّر الاتجاه في بداية سيره، موهماً كفار قريش بوجهة غير وجهته، حتى بلغ مقصده، المدينة المنورة بأمان، ولذا، فرسالتي ستناقش أهمية ومكانة السرّية والكتمان في القرآن، والسنة النبوية وانعكاساتها على المجتمع، جماعات وأفراداً.

المبحث التمهيدي

في هذا المبحث أتحدث عن معنى السرية والكتمان، في اللغة وفي الاصطلاح، وعن أنواع السر والكتمان، وعن الفروق بينهما، وكذلك عن فوائد السرية والكتمان.

السرية والكتمان، معناهما وأنواعهما، والفروق بينهما، وفوائد الكتمان وفيه مطلبان:

المطلب الأول:

تعريف السرية والكتمان لغة واصطلاحاً والفرق بينهما

السرية لغة: السرّ هو ما يكتم في النفس، والجمع أسرار وسرائر، وأسرّ الشيء: كتمه وأظهره، فهو من الأضداد. (١)

وفي الاصطلاح: الحديث المكتتم في النفس. (٢)

وقد قال ﷺ: (إن من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها). (٣)

وهذا من الحفاظ على أمن المجتمع، الذي أمن الأسرة من أمنه، فإن أمنت الأسرة، أمن المجتمع. فما أجمل أن نتذكر هذه المعاني الراقية من أحاديث الحبيب ﷺ، ونستشعرها واقعاً في حياتنا.

ومن معاني السرّ: الإظهار، وهو من الأضداد، كما في قوله تعالى: **(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)** (٤)، أي أظهروا الندامة.

١- أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، باب السين، صفحة ١٤٦، الناشر: المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت-صيدا، الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٢- عبد الرؤوف بن تاج العارفين، التوقيف على مهمات التعاريف، صفحة ١٩٣. الناشر: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٣- أخرجه مسلم في صحيحه ١٠٦٠/٢، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم ١٤٣٧. الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت. بدون طبعة وبدون تاريخ

٤- سورة يونس، الآية ٥٤

الكتمان لغة: مصدر كتم، من باب نصر، يقال: كتم الشيء كتماً وكتماناً: ستره وأخفاه.(١)

الكتمان اصطلاحاً: هو ستر الحديث. (٢)

الكتمان والسّر أنواع، منه المحمود، ومنه المذموم، وأضرب هنا مثلاً لا للحصر، فمن كتاب الله في الكتمان المذموم، ما نهانا الله عنه بقوله: **(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ)** (٣)، ومن الكتمان المحبوب، ما جاء في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، عندما قام بدعوة عليّ بن أبي طالب (٤) للإسلام، قال عليّ رضي الله عنه: **{**هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم، فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب.. فقال عليه الصلاة والسلام: (يا عليّ إذا لم تسلم فاكتم)**}** (٥)

الفرق بين السر والكتمان:

(قيل المكتوم يختص بالمعاني كالأسرار والأخبار، لأن الكتمان لا يستعمل إلا فيهما، والمستور يختص بالجثث، والأعيان، لأن الأصل في السّر تغطية الشيء) (٦)

- والسر يتعلق بالأماكن، ويكون فيها، ويحتاج لأدوات للإخفاء.
- والكتمان يكون في المشاعر، ويكون في النفس.

١- أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، باب الكاف ص ٢٦٦.

٢- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، باب الكاف، صفحة ٧٠٢. الناشر: دار القلم، الدار الشامية-دمشق بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٣- سورة البقرة، الآية ٢٨٣

٤- علي بن أبي طالب ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي-رابع الخلفاء الراشدين- أبو الحسن، أول الناس إسلاماً، ولد قبل البعثة بعشر سنين، قتل ليلة السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين، ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ونصف شهر، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ٤/٤٦٤،٤٦٨، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٥ هـ

٥- محمد بن إسحاق، السير والمغازي، صفحة ١٣٧، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م

٦- (مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف)، موسوعة الأخلاق الإسلامية، باب الفرق بين الكتمان والسر، ١/٤٩٤. الناشر: موقع الدرر السنية، ١٤٣٣ هـ

- والسر يتعلق بإجراء الإنسان، وكل إنسان يستطيع أن يخفي الشيء.
- والكتمان يتعلق بالطبع البشري، وليس كل إنسان كتوم.
- والسر بساط النصر في المعركة، والنصر ثمرة الكتمان في المعركة.
- السر يوقظ حولك العيون، ويؤدي إلى الإخفاء.
- والكتمان يعمّي عنك العيون، ويؤدي إلى قضاء الحاجات والحفظ، ويبعد عنك الحسد.

المطلب الثاني:

أنواع السرّ والكتمان وفوائدهما.

أولاً: أنواع السّر وهي ثلاثة:

١-ما أمرنا بكتمانه، مثل ما يجري بين المرء وزوجه حال الجماع ومقدماته وما يتصل به، قال عليه الصلاة والسلام: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها) (١)

٢-ما طلب صاحبه أن يكتم، قال رسول الله ﷺ: (إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره) (٢)

٣-ما كان من شأنه الكتمان، وتم كشفه لطبيعة عمل، أو بسبب الاختلاط، مثل أن يسمع خبراً من الناس، أنه يُراد إيذاء شخص ما، فهنا لا بد من تحذير الشخص إن أمكن بلا ذكر الفاعل، وإلا فلا حرج في ذكره.

وذلك من فهم حديث رسول الله ﷺ: (المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق) (٣)

ثانياً: أنواع الكتمان.

الكتمان أربعة أنواع:

١- كتمان الحاجات:

١- سبق تخريجه في صفحة (١٣) هامش (٣).

٢- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٥٠٠/١٣،باب أن يحب الرجل لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٠٦٧٧، وقال هذا مرسل جيد. الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

٣- أخرجه أبو داود في سننه، ٢٣٢/٧ في –باب في نقل الحديث– رقم ٤٨٦٩. الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

قال ﷺ: (استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود) (١)

٢- سترعورات المسلمين:

علمنا رسول الله ﷺ أن نحرص على حفظ عورات المسلمين وسترها وعدم كشف أخطاء المسلمين، أو تتبع عوراتهم فقال: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٢)

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: (من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله) (٣)

٣- كتمان أسرار الزوجية:

فهي من الأمانة التي حدثنا عنها رسول الله ﷺ، فقال: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرّها) (٤)

٤- الأمور المحرم كتمانها:

حضنا الإسلام على الكتمان، وأمرنا به فيما يتعلق بمصالح المسلمين، إلا أن هناك أموراً لا يحل لمسلم أن يكتمها، وإن فعل ذلك فهو آثم، منها:

أ-الشهادة: وهي {خَبَرٌ قَاطِعٌ} (٥)

(وَفِي عُرْفِ أَهْلِ الشَّرْعِ إخْبَارُ صِدْقٍ لِإِثْبَاتِ حَقٍّ بِلَفْظِ الشَّهَادَةِ فِي مَجْلِسِ الْقَضَاءِ) (٦)

١- أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، في باب من اسمه إبراهيم، ٥٥/٣ برقم ٢٤٥٥، وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٤٥٣ وقال جيد، وفي صحيح الجامع برقم ٩٤٣ وقال صحيح

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، ١٩٩٦/٤ باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٠.

٣- أخرجه الترمذي في سننه، ٣٧٨/٤ باب ما جاء في تعظيم المؤمن، رقم ٢٠٣٢. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م

٤- سبق تخريجه في صفحة (١٣) هامش (٣).

٥- أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، باب الشين، صفحة ١٦٩

٦- فتح القدير، كمال الدين المعروف بابن الهمام، ٣٦٤/٧، الناشر: دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ

وقد نص القرآن الكريم صراحة على عدم جواز كتمانها، قال تعالى: **(وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)** (١) وقال أيضاً: **(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** (٢)

ويمكن أن أضرب مثلاً لا للحصر في موضوع محرج لكثير من الناس عندما يتعرض إليه، وهو موضوع استشهاده في أمر زواج من امرأة بعينها، والمستشهد يعرف صفاتها، هل يذكر ذلك للسائل أم لا؟ وبدون توسع أنقل ما يلي:

{الْأَصْلُ فِي الْغِيبَةِ الْحُرْمَةُ وَقَدْ تَجِبُ أَوْ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ شَرْعِيٍّ لَا يُتَوَصَّلُ إلَيْهِ إلَّا بِهَا**}** (٣) واتضح الأمر هنا ونفي الحرج عن المسؤول، وأصبح لزاماً عليه أن يتحدث.

{فَيَجُوزُ إجْمَاعًا بَلْ يَجِبُ وَكَأَنْ يُشِيرَ وَإِنْ لَمْ يُسْتَشَرْ عَلَى مُرِيدِ تَزَوُّجٍ أَوْ مُخَالَطَةٍ لِغَيْرِهِ فِي أَمْرٍ دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ، وَقَدْ عَلِمَ فِي ذَلِكَ الْغَيْرِ قَبِيحًا مُنَفِّرًا كَفِسْقٍ أَوْ بِدْعَةٍ أَوْ طَمَعٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ كَفَقْرٍ فِي الزَّوْجِ ... بِتَرْكِ تَزْوِيجِهِ أَوْ مُخَالَطَتِهِ**}** (٤)

وزاد الأمر وضوحاً وأصبح من حق السائل على المسؤول أن يجيبه ويخبره بالقدر الذي ينفعه ويدفع عنه الضرر وذلك من باب النصيحة، **(**الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**)** (٥) وهي حق للمسلم على المسلم، وقد فعل هذا رسول الله ﷺ عندما بيّن للمرأة صفات الخاطبين لها، وهما معاوية بن أبي سفيان (٦)

١- سورة البقرة، الآية ٢٨٣

٢- سورة البقرة، الآية ١٤٠

٣- ابن حجر الهيتمي، الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢٣/٢، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م الناشر: دار الفكر بدون مكان النشر

٤- ابن حجر الهيتمي، مصدر سابق ٢٤/٢

٥- أخرجه مسلم في صحيحه ٧٤/١، باب أن الدين النصيحة رقم ٥٥

٦- معاوية بْن صخر بْن حرب بْن أمية بْن عبد شمس بْن عبد مناف القرشي الأموي كنيته أَبُوعبد الرحمن. ولي الشام ولم يبايع علياً وكان بينهما قتال، سار إليه الحسن بن علي إلى العراق، وخوفاً من إراقة الدماء سلم الأمر إليه وسمي ذلك العام بعام الجماعة، وتوفي معاوية في النصف من رجب سنة ستين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وقيل غير ذلك. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٢٠١/٥

وأبو جهم (١)، بل زاد على ذلك أن نصحها أن تنكح رجلاً آخر وسماه لها، ومن هذا فهمٌ واضح بجواز ذكر صفات معينة أو طبع يمكن أن يضر بالخاطب، وكما أنه عليه الصلاة والسلام ذكر صفات الرجال للمرأة حتى لا يقع عليها ضرر، فيجوز ذكر صفات المرأة للرجل حتى لا يقع عليه الضرر، ولا يجوز الخوض في السيرة السابقة التي تاب الإنسان منها من باب الستر على المسلم، أخذاً بحديث الحبيب ﷺ (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ) (٢).

ب- كتمان العيب في البيع والشراء:

إذ لا يجوز لمسلم أن يكتم معايب بضاعته، وإن فعل فهو آثم، ويعتبر هذا من الغش، ويقول عليه الصلاة والسلام: (من غش فليس منا) (٣)

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً: (البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما) (٤)

ج-كتمان العلم:

قال تعالى:(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**) (٥)

وقال ﷺ: (من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة) (٦)

١- أبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي، كان من المعمّرين، حضر بناء الكعبة مرتين، وهو أحد الأربعة الذين تولوا دفن عثمان، مات في آخر خلافة معاوية. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ٦٢/٧،٦١،٦٠

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٠٧٤/٤، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم ٢٦٩٩

٣- أخرجه الترمذي في سننه، ٥٩٨/٣، باب ما جاء في تحريم الغش في البيوع، رقم ١٣١٥

٤- أخرجه البخاري في صحيحه، ٥٩/٣، باب ما يمحق الكذب والكتمان في البيع، رقم ٢٠٨٢، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

٥- سورة البقرة، الآية ١٥٩

٦- أخرجه أبو داود في سننه، باب كراهية منع العلم، ٣٢١/٣، رقم ٣٦٥٨ الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

فوائد كتمان السر:

١-كتمان السر حذر وفطنة. **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)** (١)

٢-كتمان السر يأتي بالمباغتة وهي من أكبر عوامل النصر. **(ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ)** (٢)

٣-يدفع الحقد والحسد. (فإن كل ذي نعمة محسود) (٣)

٤-يؤدي إلى النجاح وتحقيق الهدف. (استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان) (٤)

٥-حفظ الأسرار من المروءة والنبل والقوة والرجولة.

٦-سبب من أسباب تقوية المحبة والثقة بين الأصحاب والأصدقاء.

٧-يزيد الثقة بين الزوجين.

٨-يحفظ مخططاتك من الانكشاف على الأعداء فلا يستطيعوا إفسادها بضدها.

٩-من كتم سره بقي أمره بيده، وكان سيد نفسه.

خلاصة المبحث:

مما سبق لا بد لنا أن نربي أنفسنا، وأزواجنا، وأبنائنا، على الكتمان لما له من أهمية، وإن من أعظم ما يؤدي لتعلم الكتمان هو الصمت، وهذا الخلق الكريم ينجينا من كثير من المهالك، فرب كلمة من فلتات اللسان تهوي بصاحبها في مهاوي الردى، ولنعلمهم الصبر واحتمال الأمانة.

وإن من أثقل الأمانات كتمان السر، ولا شك أن الإفضاء بالسر من الخيانة، وأن إفشاء سر الجماعة، أو الدولة أشد خيانة من إفشاء السر الشخصي، وأن حفظ السر يدل على القوة والرجولة، وإفشائه يدل على عكس ذلك، وأن التهاون في السرّية والكتمان في بعض المواطن فيما يخص أسرار الدولة، أو الجماعة هو تهاون في دماء المسلمين، وأرواح أبناء الأمة، إذ يمكن أن يكون ذلك سبب في الهلاك، أو الهزيمة، أو السجن والاعتقال، أو الملاحقة الأمنية.

١- سورة النساء، الآية ٧١

٢- سورة المائدة، الآية ٢١

٣- سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (١)

٤- سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (١)

الفصل الأول

في المبحث الأول التصنيف الموضوعي للآيات وفي المبحث الثاني بيان أهمية الكتمان في الاستقرار والسلامة للمجتمع

تصنيف الآيات التي ورد فيها ذكر الكتمان حسب موضوعها وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التصنيف الموضوعي للآيات:

جَمَعَتْ الآيات الكريمة الكثير من المواضيع ومنها:

أولاً: كتمان السرائر.

ولا يعلم حقيقة الأمر إلا الله

١-قال تعالى: **(قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{والغيب هو ما غاب عن أبصارهم فلم يعاينوه، توبيخاً من الله جلّ ثناؤه لهم بذلك، على ما سلف من قيلهم، وفرط منهم من خطأ مسألتهم...وفي قوله تعالى: **(وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)** قال: روي عن ابن عباس (٢) في ذلك **(وأعلم ما تبدون)**، يقول: ما تظهرون، **(وما كنتم تكتمون)**، يقول: أعلم السّر كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسهمن الكبر والاغترار**}** (٣) وقد سألت الملائكة ربها سؤالاً للاستعلام والاستكشاف، فقالت: **(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)**. (٤)، وبالطبع ليس هناك دليل قطعيّ على كيفية علم الملائكة بإفساد ابن آدم وسفكه للدماء.

وعندما عجزت الملائكة عن إخبار الله بأسماء الأشياء وطلب من آدم أن يعلمهم بالأسماء وقد علمه الله إيّاها، علمت الملائكة أن الله قد فضّل آدم وكرّمه،

١- سورة البقرة، الآية ٣٣

٢- عَبْد الله بْن عَبَّاس بْن عَبْد المطلب، ويسمى حبر الأمة، واستعمله عليّ بْن أَبِي طَالِب عَلَى البصرة توفي سنة ثمان وستين بالطائف، وهو ابْنُ سبعين سنة، وقيل: إحدى وسبعين سنة، وقيل: مات سنة سبعين_ بتصرف عن كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ٢٩١/٣ رقم ٣٠٣٧،

٣- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الأول، صفحة ٤٩٨/٤٩٧، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

٤- سورة البقرة، الآية ٣٠

{وأنهم قد هفوا في ذلك وقالوا ما لا يعلمون كيفية وقوع قضاء ربهم في ذلك لو وقع على ما نطقوا به} (١)

٢- قال تعالى: **(مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)** (٢)

يقول المفسر رحمه الله:

{كأنه سبحانه وتعالى يحذرنا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة؛ لأن الأمر الشكلي قد يجوز على أجناس البشر أن ينخدعوا فيه، ولكن الله ينظر إلينا بقيوميته، فسبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم. وفي هذا القول تحدّ للمنافقين من أنه سبحانه سيحاسبهم، فإن كتم الإنسان الكفر في قلبه وأظهر الإيمان الشكلي، فسوف ينال عقاب الله، وعلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله.} (٣)

والحقيقة أن هذا فعله ﷺ في تعامله مع المنافقين في المدينة رغم معرفته بحالهم وكفرهم إلا أنه تعامل مع ظاهرهم كمسلمين وترك حسابهم إلى الله، وعلى ذلك لا بدّ أن نتعامل مع الناس على ما أظهروه، ولا نحكم على السرائر فأمرها موكول إلى الله. ولذلك يقول الله: **(والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)**.

{ونعلم أن ظاهرة النفاق تعطي للمنافق حقوق المسلم الظاهرة الموقوتة بحياته وزمنه، ولكن الباقي في الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كفر} (٤)

٣-قال تعالى: **(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)** (٥).

{يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين، الله يعلم الجهر الذي يجهرون به من القول، ويعلم ما تخفونه فلا تجهرون به، سواء عنده خفيّه وظاهره وسره وعلانيته، إنه لا يخفى عليه منه شيء} (٦)

١- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الجزء الأول صفحة ٤٩٧

٢- سورة المائدة، الآية ٩٩

٣- محمد متولي، تفسير الشعراوي، ٦/ ٣٤١٨، الناشر: مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧ بدون طبعة

٤- محمد متولي، مصدر سابق صفحة، ٣٤١٨

٥- سورة الأنبياء، الآية ١١٠

٦- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ١٨/ ٥٥٤.

فالله سبحانه وتعالى يعلم الذي تجهرون به، من طعنكم في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وتكذيبكم له مع علمكم بصدقه، ويعلم كذلك ما تكتمونه من حقد دفين في نفوسكم أيها المشركون، ومن ضمنهم اليهود، وهذا ما فعلوه جميعهم عندما اجتمعوا وتآمروا في محاولة لاجتثاث الإسلام والمسلمين في غزوة الخندق، فباء بعضهم بالتشريد، وبعضهم بالخسران، فهم الذين لا يؤمن جانبهم، وهم الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا يجوز في مثل حال أمتنا اليوم أن يكون لهم عندنا عهد ولا ميثاق، وعليهم، وعلى من سار في ركابهم، لعنة الله، والناس، والملائكة، والخلائق أجمعين.

٤-قال تعالى: **(لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)** (١).

قال المفسر رحمه الله:

{فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم؛ ورقابته لكم في سركم وعلانيتكم. وفي هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب، وامتثالها لذلك الأدب العالي، الذي يأخذها الله به في كتابه، الذي يرسم للبشرية نهجها الكامل في كل اتجاه. إن القرآن منهاج حياة، فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية، ويمنحها هذه العناية، لأنه يعالج الحياة كلياً وجزئياً، لينسق بين أجزائها وبين فكرتها الكلية العليا بهذا العلاج**}** (٢) فالاستئذان أدب من آداب الإسلام علمنا إياه نبينا عليه الصلاة والسلام من أجل رفع الحرج عن أهل البيوت.

{فالاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التي تجعل منها مثابة وسكناً، ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة، والضيق بالمباغتة، والتأذي بانكشاف العورات، وهي عورات كثيرة، تعني غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة؛ إنها ليست عورات البدن وحدها، إنما تضاف إليها عورات الطعام، وعورات اللباس، وعورات الأثاث، التي قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجمل وإعداد.**}** (٣)

١- سورة النور، الآية ٢٩

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٥٠٩/٤. الناشر دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، سنة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م

٣- سيد قطب، مصدر سابق، ٢٥٠٩/٤

وكثير من الناس من يتحرج من الزيارات المفاجئة وخاصة النساء، وعندما يفاجأ صاحب البيت بقدوم الزائر فجأة فإنه سيدخله على استحياء. ويتابع صاحب الظلال متحدثاً عن العورات فيقول:

{وهي عورات المشاعر والحالات النفسية، فكم منا يحب أن يراه الناس وهو في حالة ضعف يبكي لانفعال مؤثر، أو يغضب لشأن مثير، أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء؟! وكل هذه الدقائق يرعاها المنهج القرآني بهذا الأدب الرفيع، أدب الاستئذان؛ ويرعى معها تقليل فرص النظرات السانحة والالتقاءات العابرة، التي طالما أيقظت في النفوس كامن الشهوات والرغبات.} (١)

إذن فالأمر هنا متعلق بخفايا النفوس، وبالنوايا التي تنطوي عليها نفس من أراد بأهل البيت سوءً، أو أضمره في نفسه، فعندما تلامس هذه الآية شغاف قلبه **(والله يعلم ما تبدون وما تكتمون)**، فإن النفس الراقية المراقبة لله تقشعرّ خوفاً من الذي يعلم مكنوناتها ويراها في كل أحوالها، فيفر الشيطان وتنقطع أحابيله، ولا يبقى في النفس إلا كل خير لأهل هذا البيت، وتغلق في النفس مداخل السوء، فما أجمل وأروع تأديب الإسلام للنفوس، وتهذيبها من كل شرّ.

وخلاصة القول فيما يتعلق بالكتمان في هذه الآيات التي تحدثت عن كتمان السرائر:

أن لا يسبق قولُك علمَك اليقينيّ، وأن لا تقول إلا ما كان لديك عليه دليل قطعيّ، لأن الله عليم بما نكتمه وما نعلنه، وأن الله سبحانه وتعالى عليم بمكنونات الأنفس، وما تخفيه صدور اليهود من خبث، وحقد على هذا الدين وهذه الدعوة، وعلى الرسول الكريم الذي جاء بها من عند الله سبحانه، وأن علم الله مطلق لا تحده حدود، ولا حالة من الحالات التي يكون عليها البشر في أقوالهم سراً أو جهراً، وقد بيّن الله لنا علمه بما في نفوس المخلوقين وبمدخولاتها، حين دخولهم إلى منازل غيرهم، فهو أعلم بأهدافهم من هذا الدخول، فالقرآن يهتم بالنواحي الاجتماعية، ويحرص على ضرورة سلامة الروابط بين فئات المجتمع.

١- سيد قطب، في ظلال القرآن ٢٥٠٩/٤

ثانياً: كتمان الحق.

وهو موضوع آخر تتحدث عنه آيات الكتمان:

١-قال تعالى: **(وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)** (١).

وكتمان الحق هنا، المقصود به: **{**ولا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وما جاء به، وأنتم تجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم**}** (٢)

٢-قال تعالى: **(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)** (٣) يقول المفسر رحمه الله: **{**أي أنهم ليسوا جاهلين، ولكنهم على علم بالحقيقة، والحق من الله، فهل يستطيع هؤلاء كتمانه؟ طبعاً لا، لا بدّ أن يظهر**}** (٤) والله تعالى أظهره لرسولنا محمد ﷺ، وبرهن على كذبهم.

٣-قال تعالى: **(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)** (٥) يقول المفسر رحمه الله:

{(يا أهل الكتاب) أي يا مَن منّ الله عليهم بكتاب من عنده**}** (٦) وفي قوله: **(لم تلبسون الحق بالباطل) {**عرض لبعض أفاعيلهم وفضح لما هم فيه من ضلال...إنهم يلبسون الحق بالباطل، أي يغطون وجه الحق، ويسترونه بدخان الباطل والضلال، فيشتبه على الناس وجه الحق، وتتفرق بهم السبل إليه...وإنهم ليكتمون الحق الذي يعرفونه من أمر محمد والقرآن الذي نزل عليه، وليس ذلك عن جهل، وإلا لكان لهم ما يعذرون به، ولكن كتمانهم هذا عن علم ومعرفة، وتلك هي مصيبة المتكبرين، وآفة الحاسدين، الحاقدين**}** (٧)

١- سورة البقرة، الآية ٤٢

٢- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٥٧١/١

٣- سورة البقرة، الآية ١٤٦

٤- محمد متولي، تفسير الشعراوي، ١/ ٦٣٦

٥- سورة آل عمران، الآية ٧١

٦- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ٤٩٣/٢. الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ

٧- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ٤٩٢/٢.

هؤلاء هم اليهود من أهل الكتاب، فإن كان الله وهو العليم بسرائرهم، يخاطبهم وهو كاشف كذبهم، وخلطهم الحق بالباطل بغية إظهار الباطل على أنه الحق، وطمس معالم الحق، ويفعلون ذلك قاصدين، وهذا حالهم إلى يوم الدين، ولن يفلح قوم تولوُا اليهود والنصارى، وإن وعدوهم ومنّوهم بالأمن والأمان والسلامة والدّعة والرفاه الاقتصادي، فإنهم كاذبون، ويا حسرة على من يصدقهم، ويترك كلام الله فيهم وهو العليم الخبير.

وخلاصة القول فيما يتعلق بالكتمان في هذه الآيات أنها بينت لنا شيئاً من أخلاق يهود، فهم يكتمون العلم قاصدين، ولا يتحدثون بصدق كما أمرهم الله، ومن هنا ظهرت لنا عداوتهم لأمة محمد ﷺ، عندما أنكروا رسالته التي يعلمونها حقاً، والعجب كل العجب أن ترى من يلهث خلفهم يطلب منهم السلام وفتاتاً من حقوق لن تعود إلا بسيف المسلمين العائدين إلى الله. والقول أنّ طبع اليهود إخفاء الحقائق بغية التدليس على غيرهم، وهذا مما لا يرضاه دين ولا خلق، إلا أنّه من أخلاق اليهود، جُبلت عليه نفوسهم الخبيثة، فهذا ديدنهم وهذه سجاياهم.

ثالثاً: الكتمان في الدماء.
وهو الموضوع الثالث الذي تناولته الآيات الكريمة:

١-قال تعالى: **(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)** (١) قال المفسر يرحمه الله:

{كان لبني إسرائيل مسجداً له إثنا عشر باباً لكل باب قوم يدخلون منه، فوجدوا قتيلاً في سبط (٢) من الأسباط، فادّعى هؤلاء على هؤلاء، وادّعى هؤلاء على هؤلاء، ثم أتوا موسى عليه السلام يختصمون إليه، فقال: **(إِنّ اللهَ يَأمُرُكُم أن تَذبَحوا بَقَرَة)}** (٣)

١- سورة البقرة، الآية ٧٢

٢- وَ (السِّبْطُ) وَاحِدُ الْأَسْبَاطِ وَهُمْ وَلَدُ الْوَلَدِ، وَ(الْأَسْبَاطُ) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْقَبَائِلِ مِنَ الْعَرَبِ. أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، صفحة ١٤١

٣- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٤٥٦، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

فيا ترى ما علاقة البقرة وذبحها بقتيل لم تعرف هوية قاتله وعليها قام الاختلاف؟

إنها آية ربانية لبني إسرائيل، أصحاب القلوب الجاحدة، وهم لا يسلّمون بذلك بل يعترضون ويجادلون مراراً وتكراراً حتى ينفذوا أمر موسى عليه السلام، بل اعتبروه استهزاءً، وبالكاد فعلوا، حتى تبين لهم حقيقة القاتل عندما ضربوا القتيل بأحد أعضاء البقرة المذبوحة. وقد كتم بعض بني إسرائيل قتل القتيل، وقيل أنّ الذي قتله ابن أخيه من أجل الميراث، {كان في بني إسرائيل رجل عقيم، وله مال كثير، فقتله ابن أخ له، فجره فألقاه على باب أناس آخرين} (١)

وقد أظهر الله أمر القاتل عندما قام القتيل بعد أن أحياه الله، فقال: قاتلي فلان، ثم عاد إلى الموت. {والذي كانوا يكتمونه فأخرجه، هو قتل القاتل القتيل، لمّا كتم ذاك} (٢) وهذا قول الطبري رحمه الله.

وخلاصة القول من هذه الآية أن بني إسرائيل قوم أصحاب جدل ولا يفعلون ما يؤمرون به بسهولة، بل جادلوا وشككوا في الأمر، وقد أراهم الله آية الإحياء للميت وهي معجزة من المعجزات التي رأتها عيونهم، وقد كتموا جريمة القتل بل أكثر من ذلك أنهم قوم بهت وقد رموا غيرهم بجرمهم وهذا طبعهم.

رابعاً: كتمان الشهادة.

وهو من المواضيع المهمة التي يترتب عليه حقوق للعباد.

١-قال تعالى: **(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** (٣).

١- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٢/ ٢٢٧، وذكره جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير، صفحة ٧٥، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ، وأخرجه ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر ١٦٩/٢، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م

٢- الطبري، مصدر سابق، ٢/ ٢٢٨

٣- سورة البقرة، الآية ١٤٠

وقد كتم اليهود الشهادة والعلم الموجود عندهم في التوراة والإنجيل، وقالوا إنّ: **(إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب...)** الآية، كانوا هوداً أو نصارى، وهم يعلمون علم اليقين أنهم يكذبون في قولهم هذا.

{إن هؤلاء إلا مجادلون في الحق بعدما تبين، مباهتون للنبيّ ﷺ، مع العلم بأنه نبيّ، إذ ما كان لهم أن يشتبهوا في أمره بعد شهادة كتابهم له، فإذا كان ظلمهم أنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم، وهو كتمان شهادة الله تعالى، تعصباً لجنسيتهم الدينية، التي ارتبط بها الرؤساء بالمرؤوسين بروابط االمنافع الدنيوية من مال وجاه، فكيف يُنتظر منهم أن يُصغوا إلى بيان أو يخضعوا لبرهان؟**}** (١)

ونرى هنا بوضوح أن اليهود قوم بهت، كاذبون، دجّالون، لا يُؤمن جانبهم، وقد كذبوا على الله وكذّبوا آياته التي بين أيديهم فكيف يمكن لنا أن نصدّقهم أو نعقد معهم صلحا يوفون به؟

(واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله**)** (٢)، وفي هذا درس لكل عالم من علماء السلاطين الذين يأكلون دنياهم بدينهم، فلا يتكلموا بالحقيقة، ولا يحملون أمانة العلم، فيلوون عنق النصوص ليجاروا بها مراد السلاطين، وإلى كل موظف أو صاحب أمانة، أو معلومة من شأنها إحقاق حق، أو إبطال باطل، لا يظهرها، فليتق الله كي لا يدخل تحت راية اللعن الربانية والكونية.

٢-قال تعالى: **(وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم)** (٣)

يقول المفسر رحمه الله:

{ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه، أسند الإثم إلى القلب، لأن كتمان الشهادة، أن يضمرها في القلب، ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترفاً، مكتسباً بالقلب، أسند

١- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/ ١٠٣، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م، بدون طبعة

٢- محمد متولي، تفسير الشعراوي، ٦٧٣/٢

٣- سورة البقرة، الآية ٢٨٣

إليه، وإذ جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من أعظم الذنوب، لأن أفعال القلوب أعظم من سائر الجوارح} (١)

نعم، آثم قلبه كل من شهد شهادة الزور، نعم، آثم قلبه كل من سار في ركب الظالمين، يزيّن لهم الباطل بنصوص يخرجها عن مسارها، ومفهومها الصحيح، نعم، آثم قلبه من يقتطع حقوق غيره بالغش والتدليس، ويظن أن ذلك من المآثر المُرضية في المجتمع المريض، نعم، آثم قلبه (من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طُوّقه يوم القيامة إلى سبع أرضين) (٢)

نعم، آثم قلبه كل من اتهم مجاهداً في سبيل الله بالإرهاب ليرضي الظالمين، ويتآمر مع أعداء الإسلام والمسلمين، فيحاصر شعب فلسطين، لأنه يجاهد في سبيل الله، يريد استرجاع حقوقه المسلوبة من عشرات السنين، والأمة عنها غافلة نائمة، وبعضها متخاذل، وبعضها متآمر، وبائع لأرض المسلمين ودمائهم، ولكن هيهات هيهات أن ينجح هؤلاء، فالله منجز وعده، وقد بانت سوءات هؤلاء المجرمين جميعهم، وهم إلى مزبلة التاريخ سائرون، وسيبقى المجاهدون يدافعون عن فلسطين، وعن شرف الأمة المحمدية من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها، حتى يأتي وعد الله بالنصر والتمكين.

نعم، آثم قلبه كل من يأخذ حق غيره بالقضاء الباطل ويزعم أن القضاء قد حكم له، فهذا رسول الله ﷺ يقول: (إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من نار) (٣)

وخلاصة القول فيما يتعلق بالكتمان في هاتين الآيتين أن هناك تحذير، وتهديد، ووعيد لمن كتم العلم، وجحد الحقائق، وكتم الشهادة، وخاصة ما يترتب عليها حقوق للعباد وأحكام شرعية.

١- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، ١/ ٦٦٣. الناشر: دار السلام – القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٤هـ

٢- أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٣٨٥/٨

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ إِذَا غَصَبَ جَارِيَةً فَزَعَمَ أَنَّهَا مَاتَتْ..٢٥/٩، رقم ٦٩٦٧

خامساً: كتمان العلم.

موضوع خطير ويترتب عليه عظيم الإثم.

١-قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{ولقد كان أهل الكتاب يعرفون ممّا بين أيديهم من الكتاب مدى ما في رسالة محمد ﷺ، من حق ومدى ما في الأوامر التي يبلغها من صدق، ومع هذا يكتمون هذا الذي بينه الله لهم في الكتاب، فهم وأمثالهم في أي زمان، ممن يكتمون الحق الذي أنزله الله، لسبب من أسباب الكتمان الكثيرة، ممن يراهم الناس في شتى الأزمنة، وشتى الأمكنة، يسكتون عن الحق وهم يعرفونه، ويكتمون الأقوال التي تقرره**}** (٢)

وهذا من سوء طباعهم، وقلة أدبهم مع الله وهو بهم عليم. ويتابع المفسر قائلاً:

{وهم على يقين منها، ويجتنبون آيات في كتاب الله لا يبرزونها بل يسكتون عنها ويخفونها لينحّوا الحقيقة التي تحملها هذه الآيات، ويخفوا بعيداً عن سمع الناس وحسهم لغرض من أغراض الدنيا، الأمر الذي نشهده في مواقف كثيرة، وبصدد حقائق من حقائق هذا الدين كثيرة **(أولائك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)**. كأنّما تحولوا ملعنة، ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها _ بعد الله_ من كل لاعن**}** (٣)

وهذا الأمر ينسحب على كل من حاول طمس الحق أو إخفائه، كمثل التاجر يظهر محاسن بضاعته ويخفي عيوبها، أو السياسي الذي يخفي الكثير من الأمور التي اتفق عليها مع الأعداء، وعقد الاتفاقيات التي تضر بمصلحة الشعب، أو الأمة طمعاً في منصب، أو راتب، أو كرسيّ يطمح تمديد مدة البقاء عليه، فيدمر أمته غير مكترث إلا بمصالحه الشخصية، أو العالِم الذي يستعمل علمه ليجاري به العُلماء، ويماري به السفهاء، ويتزلف للسلاطين ويفتي بمراد السلطان، وإن خالف دينه، ومعتقده، ويبيع دينه بدنيا غيره، أولائك هم الخاسرون، بغض النظر عن جنس من يفعل هذا الأمر، أو لونه، أو معتقده، فهو يتصف بصفات أهل الكتاب الذين يكتمون الحق وهم يعلمون.

١- سورة البقرة، الآية ١٥٩

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن ١٥٠/١، الناشر: دار الشروق - بيروت-القاهرة، الطبعة السابعة عشر - ١٤١٢ هـ

٣- سيد قطب، مصدر سابق ١٥٠/١

٢-قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)** (٢).

يقول المفسر رحمه الله:

{والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولاً أهل الكتاب، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة، يكتمون الحق الذي يعلمونه، ويشترون به ثمناً قليلاً، إما هو النفع الخاص الذي يحرصون عليه بكتمانهم للحق، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بها الكتمان، ويخشون عليها من البيان، وإما هو من الدنيا كلها، وهي ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضى الله، ومن ثواب الآخرة**}** (٣)

فيا من تبيع آخرتك بدنيا غيرك، استيقظ من سكرتك، واعلم أنما قدره الله لك أو عليك، كائن لا محالة، فرسول الله ﷺ يقول لك: **(**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**)** (٣)

وإضافة إلى الدرس الذي استفدناه من الآية السابقة لهذه الآية، فيظهر للناظر كيف تكالبت الدنيا على أهل الحق، وكيف أن كثيراً من أهل العلم سقطت عمائمهم، وكتموا ما يعلمون من الحق لإرضاء زعمائهم، فأحل بعضهم الربا، وحاصر بعض الحكام شعوباً بأكملها، وقطعوا الأواصر والروابط العائلية بين الشعوب، وسكت العلماء وخرست ألسنة الكثيرين منهم، ولم يجرؤا على الصدع بكلمة الحق أمام السلطان الجائر، فهؤلاء نكلهم إلى الله أولاً، ثم إلى شعوبهم لتحاكمهم في الدنيا قبل محاكمة الآخرة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

٣-قال تعالى: **(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)** (٤)

١- سورة البقرة، الآية ١٧٤

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن ١٥٧/١

٣- أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٦٦٧، رقم ٢٥١٦، ولم يُسَمِّ الباب

٤- سورة آل عمران، الآية ١٨٧

يقول المفسر رحمه الله:

{(لتبيّننّه) يعني لتبينن أمر الرسول ﷺ، كما هو موجود عندكم دون تغيير، أو تحريف، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً في الكتاب الذي جاء من عند الله، وهكذا نجد أن المعاني تلتقي، فإن بينوا الكتاب الذي جاء من عند الله، فالكتاب الذي جاء من عند الله فيه نعت محمد ﷺ، وهكذا نجد أن معنى تبيين الكتاب، وتبيين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان**}** (١)

فهل يا ترى أن اليهود فقط هم من نقضوا ميثاق الله، وهم فقط من كتموا ما عندهم من العلم، وهم وحدهم من يخفون الحقائق التي يعلمونها، وهم فقط الذين رمَوا كتاب الله وما فيه وراء ظهورهم واشتروا به لعاعات الدنيا؟

الجواب: لا، فإن الكثير من أمة محمد ﷺ، يفعلون فعل اليهود هذا، فمَن نقض العهد، والبيعة التي في عنقه لوطنه وأمته، ومَن لَوَى عنق النص الشرعي ليجاري به حاكماً أو مسئولاً، فكل مَن اتصف بشيء من هذا فحكمه في هذا العمل حكم اليهود، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، فكما قال ﷺ: **(**ثلاث مَن كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: مَن إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان.**)** (٢)
والمعلوم أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، فهم أشدّ عذاباً من اليهود والنصارى والله أعلم.

٤-قال تعالى: **(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)** (٣).

يقول المفسر رحمه الله:

{أي من النبوة، التي فيها تصديق ما جاء به محمد ﷺ...عن قتادة (٤) قوله:-إن الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل-وهم أعداء الله أهل الكتاب، بخلوا بحق الله عليهم،

١- محمد متولي، تفسير الشعراوي، ١٩٣٥/٣.

٢- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ٤٩٠/١، برقم ٢٥٧، في باب ما جاء في الشرك والنفاق. الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣

٣- سورة النساء، الآية ٣٧

٤- قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب، ولد أعمى وعنى بالعلم فصار من حفاظ أهل زمانه وعلمائهم بالقرآن والفقه، مات بواسط سنة سبع عشرة ومائة وهو بن ست وخمسين سنة. من كتاب مشاهير علماء الأمصار للدارمي، صفحة ١٥٤، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى١٤١١هـ-١٩٩١ م

وكتموا الإسلام ومحمداً ﷺ، وهم يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل} (١)
إنه طبع اليهود الذي لا يتغير.

{أما–الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل– فهم اليهود، –ويكتمون ما آتاهم الله من فضله– اسم محمد ﷺ، ويأمر بعضهم بعضاً بكتمانه} (٢)

وهذه الآية شبيهة في معناها لبعض ما سبق من الآيات، فأخلاق اليهود وصفاتهم الخبيثة واضحة في القرآن الكريم، فاللهم نسألك البراءة منهم، ومن كل من يتعامل معهم، ويتآمر معهم ضد الإسلام والمسلمين، وضد قضايا المسلمين.

خلاصة القول في هذه الآيات فيما يتعلق بالكتمان أن الله لعن الكاتمين لما عندهم من العلم، وجعلهم ملعونين على كل لسان، وأن الله وصفهم بالكفر، وتوعدهم بعذاب فيه إهانة لهم، وأن اليهود لا عهد لهم ولا ميثاق، فقد نقضوا عهد الله، أفلا ينقضون عهود البشر؟

سادساً: كتمان ما في الأرحام.

وفيه مخالفة لأمر الله سبحانه،

١–قال تعالى: **(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)** (٣)

يقول المفسر يرحمه الله:

{ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ من الولد، أو بطلاقها أن تضع، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها، أو كتمت من حيضها فقالت وهي حائض قد طهرت، استعجالاً للطلاق، فكل هذا محرم عليهنّ، إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر، لأن من آمن بالله واليوم الآخر لا يجترئ على ارتكاب الحرام} (٤)

١– الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ٣٥٣/٨

٢– الطبري، مصدر سابق ٣٥٢/٨

٣– سورة البقرة، الآية ٢٢٨

٤– سعيد حوّى، الأساس في التفسير، ٥٣٥/١.

فإن كان الله قد جعل الإيمان به وباليوم الآخر ينتفي عن المرأة التي تكتم أمر حيضتها، أو أمر ولد في أحشائها، هو هدية من الله لزوجها، فقد تصل بذلك إلى الكفر، وتقع تحت التهديد والوعيد، فما بالكم بمن يكتم أمر أعظم هدية ربانية أُعطيت، وأُهديت من الله للبشرية كافة، وهو محمد ﷺ، فقد كتم اليهود أمر نبوته وهو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، فهل لهم بعد ذلك عهد عندنا أو ذمّة؟

وهذا من الدروس التي يجب ألّا تفارق مخيلتنا، فقد حاولوا منع انتشار نور نبوة محمد ﷺ، إلا أنهم خابوا وخسروا، واسودت وجوههم، وانتشر نور رسالة محمد ﷺ، رغم أنوفهم، وسيعود النور من جديد، ليسطع على كل البشرية أيضاً، ورغم أنوف من سار على نهجهم في الكتمان للحق وتغييب أهله.

وخلاصة القول أنّ كتمان الحقائق لا يطول، فإن للحقائق نور ينبلج من بين دجى الليالي، ويشع كخيوط الشمس المشرقة، ولا يستطيع أن يوقف إشراقه أحد.

سابعاً: كتمان النفاق والكفر.

وهو أمر لا يعلمه إلا الله.

١-قال تعالى: **(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{فقد كان في قلوبهم النفاق، الذي لا يجعلها خالصة للعقيدة، وإنما يجعل أشخاصهم واعتباراتها فوق العقيدة واعتباراتها، فالذي كان يرأس النفاق-عبدالله بن أبيّ(٢) - أن رسول الله-ﷺ- لم يأخذ برأيه يوم أحد، والذي كان به قبل هذا أن قدومه -ﷺ- إلى المدينة بالرسالة الإلهية حرمه ما كانوا يعدونه له من الرياسة فيهم، وجعل الرياسة لدين الله، ولحامل هذا الدين**}** (٣)

١- سورة آل عمران، الآية ١٦٧

٢- مِنْ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ، وَكَانَ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، وَفِي قَوْلِهِ ذَلِكَ، نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ، انْخَزَلَ بِثُلُثِ النَّاسِ يوم أحد. ابن هشام، سيرة ابن هشام ٥٢٦/١

٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥١٥/١.

فكانت شهوة الملك التي حُرِمها بقدوم الإسلام سبب نفاقه.

{فهذا الذي كان في قلوبهم، والذي جعلهم يرجعون يوم أحد، والمشركون على أبواب المدينة، وجعلهم يرفضون الاستجابة... وهو يقول لهم: **(تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)**، محتجين بأنهم لا يعلمون أن هناك قتالاً، وهذا ما فضحهم الله به، **(والله أعلم بما يكتمون)}** (١)

فهذا حال المنافقين من زمن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، فضحهم الله ومازال يفضحهم، فهذه شام الرسول ﷺ، موطن الإيمان في زمن الفتن، يحدث فيها من الإجرام والقتل والتشريد، ممن كانوا أوصياء على المقاومة، ومن منافقي الأعراب، وقبلها فلسطين، الأسيرة الجريح، مسرى رسول الله ﷺ، ومعراجه إلى السماوات العلى. فهي الطريق الأوحد بين السماء والأرض، ولذا كان المسرى إلى هناك، والمعراج من هناك، والعودة إلى هناك، وما أدراك ما هناك؟

ونحن نرى ونسمع ما يحدث في قلب فلسطين، قبلة المسلمين الأولى، ومَن الذي يتآمر على فلسطين باسم الوطنية التي يسوقونها على عامة الناس كذباً ودجلاً، فيفضحهم الله كما فضح منافقي العصر النبوي، فسقط في وحل النفاق والخيانة الكثير من الساسة، وأقول بكل أسف أيضاً بأن الكثير من العمائم قد سقطت، وبان زيف ما في قلب صاحبها، **(والله أعلم بما يكتمون)**.

٢-قال تعالى: **(وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ)** (٢).

يقول المفسر رحمه الله:

{النفاق هو الصفة الغالبة على اليهود، فهو توأم الحسد الذي يملأ قلوبهم ضغينة وحقداً على الناس...فهم إذا التقوا بالمؤمنين لأمر ما بيّتوه في صدورهم، أظهروا الإيمان، حتى يطمئن إليهم المؤمنون، ويأمنوا جانبهم... وهم على الحقيقة ليسوا من الإيمان في شيء...وفى قوله تعالى: «**وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ**» تغليظ لكفرهم، وتجسيم له، لكثافته، وإطباقه عليهم**}** (٣)

١- سيد قطب، مصدر سابق، ٥١٥/١.

٢- سورة المائدة، الآية ٦١

٣- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن ١١٢٩/٣

وهذا من فَضْح الله لهم حتى تعي الأمة حقيقتهم ولا تنخدع بهم. ويتابع المفسر قائلاً {حتى لكأنه يكاد يكون كائناً محسوساً، يعيش معهم كما يعيش بعضهم مع بعض.. «**وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ**» ... إنه أشبه بالوليد تحمله أمّه على صدرها، حتى لكأنه قطعة منها، تغدو به، وتروح به، لا تدعه بعيداً عنها لحظة واحدة... وقد حسبوا أنهم أخفوا هذا الكفر الذي يحملونه في صدورهم، ولكن الله أعلم بما يكتمون، لا تخفى على الله منهم خافية.} (١)

وخلاصة القول هنا فيما يتعلق بالكتمان، أن الله قد كشف المنافقين، وأحوالهم، وأفعالهم، وأن الله عالم بما يحاولوا كتمانه.

ثامناً: كتمان المجرمين يوم القيامة.

١-قال تعالى: **(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا)**. (٢)

وفيه بيان لحال المجرمين، ويقول المفسر رحمه الله:

{أي لو يُدفَنُنَّ فتسوّى بهم الأرض كما تسوّى بالموتى، أو يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء، أو حين تصير البهائم تراباً يودون حالها. ولا يكتمون الله حديثاً: أي ولا يقدرون على كتمانه، لأن جوارحهم تشهد عليهم} (٣)

وذكر أيضاً: {جاء رجل إلى ابن عباس (٤) فقال: أشياء تختلف علي في القرآن. قال: ما هو؟ أشك في القرآن؟ قال: ليس بالشك ولكن اختلاف، قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك. قال: أسمع الله يقول: ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين. وقال: لا يكتمون الله حديثاً. فقد كتموا.} (٥) وفي هذا درس لنا جميعاً، اذا أُشكل علينا أمر أن نسأل ذوي الاختصاص.

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن ١١٢٩/٣

٢- سورة النساء، الآية ٤٢

٣- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، ١٠٦٤/٢

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٢١) هامش (٢)

٥- سعيد حوّى، مصدر سابق ١٠٦٥/٢

{فقال ابن عباس أما قوله: ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين. فإنهم لما رأوا يوم القيامة، أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب ولا يغفر شركاً، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحدوا المشركون فقالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، رجاء أن يغفر لهم، فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك يود الذين كفروا، وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً**}** (١)

إذاً، يا أيها الإنسان وقبل أن تصل إلى ذلك الموصل، قبل أن يتمنى المشرك أن يكون حيوان ليصبح تراباً حتى لا يعذبه الله بذنوبه، يا من تقول بأن الرزق بيد الله، ومن عند الله ثم تشرك به من حيث لاتدري، عندما تخشى أن تُفصل من وظيفتك، فتمسك عن قول الحق خشية أن يقطع رزقك، فأنت تؤمن أن الرزق من عند الله قولاً، وتشرك معه غيره فعلاً، يا من تخشى أن تكون في ركب المجاهدين، لأن ذلك سيؤدي بك إلى الموت، وإن سألك سائل، الأعمار بيد من؟ قلت بيد الله، فإن قال لك هل ينقص عمر الإنسان فيموت قبل أن يستنفد أجله؟ قلت: لا، وحالك هذا حال من أشرك فعلاً وآمن قولاً، والأمثلة على هذا كثيرة لا داعي للإكثار من ذكرها، ولكن هذا حال الكثير منا، فلنتفكر حقيقة، ولنعلم علم اليقين، الذي ينسحب ويتجلى في تصرفاتنا، ولتتطابق أقولنا مع أفعالنا، ولنتب إلى الله قبل فوات الأوان.

وخلاصة القول في هذه الآية فيما يتعلق بالكتمان، أنها بينت عدم استطاعة المجرمين، والعصاة أن يكتموا الله شيئاً كما ظنوا أنهم يفعلون في الدنيا، فقد بات الأمر مكشوفاً، مفضوحاً يوم القيامة، وقد ظهر الندم على أشده على وجوه المجرمين.

تاسعاً: كتمان الوصية.

وهذه الآية تتحدث عن أمر مهم عند قرب الأجل:

١-قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ)**(٢)

١- سعيد حوّى، الأساس في التفسير ١٠٦٥/٢

٢- سورة المائدة، الآية ١٠٦

يقول المفسر رحمه الله:

{أن على من يحس بدنو أجله، ويريد أن يوصي لأهله بما يحضره من المال، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان في الحضر، ويسلمهما ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين. فأما إذا كان ضارباً في الأرض، ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه؛ فيجوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين**}** (١)

وفيه دليل على جواز شهادة غير المسلم في الوصية كما بينته الآية.

ويتابع المفسر قائلاً:

{فإن ارتاب المسلمون– أو ارتاب أهل الميت – في صدق ما يبلغه الشاهدان وفي أمانتهما في أداء ما استُحفظا عليه، فإنهم يوقفونهما بعد أداء الصلاة –حسب عقيدتهما– ليحلفا بالله، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر، ولو كان ذا قربى، ولا يكتمان شيئاً مما استحفظا عليه...وإلّا كانا من الآثمين... وبذلك تنفذ شهادتهما**}** (٢)

والمعلوم أن هذا النوع من الكتمان خاص بالأمانة التي يُؤتَمَنُ عليها الإنسان، سواء أكانت مادية أو معنوية، وهي نوع من الوصية، يوصي بها صاحبها، ويحمّلها لغيره، ليقوم بإيصالها لأهلها، بتمامها وكمالها، وإلّا كان من الآثمين الذين توعدهم الله سبحانه وتعالى في مواطن عديدة من القرآن العظيم.

وخلاصة القول في هذه الآية فيما يتعلق بالكتمان، أنها بينت أهمية الوصية عند الموت، وخطورة كتمان أي شيء من بنودها.

عاشراً: كتمان الإيمان حرصاً على الدعوة.

ولكل داعية من هذه الآية درس وعبرة:

١– قال تعالى: **(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ)** (٣).

١– سيد قطب، في ظلال القرآن، ٩٩٣/٢

٢– سيد قطب، مصدر سابق ٩٩٣/٢

٣– سورة غافر، الآية ٢٨

وتتضح لنا شخصية هذا المؤمن ولنعرف دوره الذي من أجله كتم إيمانه فهو من علية القوم وقد آمن {وكتمان الإيمان هنا، ليس عن ضعف أو خوف، حتى يحمل إيمانه على أنه كان مجرد إعجاب بموسى، وميل إلى الطريق الذي هو عليه، إذ لو كان غير منظور فيه إلى شيء آخر، لآمن كإيمان السحرة، ولما منعه بطش فرعون وجبروته أن يعلن هذا الإيمان، متحدياً فرعون، مستخفّاً بكل ما يلقى في سبيل الحق، والجهر به...فإن إيمان هذا المؤمن كان إيماناً راسخاً وثيقاً، قائماً على اقتناع} (١)

ومن هنا تبرز أهمية أن يركز الداعية على أصحاب المناصب والنفوذ ليكونوا في دعوته {وإنما كان كتمان هذا الإيمان عن سياسة حكيمة، وتدبير محكم... فالرجل لم يكن يريد الإيمان لنفسه وحسب، بل إنه كان يريد أن يكون داعية لفرعون وقومه جميعاً إلى الإيمان بالله... ولو أنه أعلن إيمانه، وجاء إلى فرعون يدعوه إلى أن يؤمن كما آمن هو، لما استمع فرعون إلى كلمة منه، ولأخذته العزّة بالإثم، وأبى عليه كبره وعناده، أن ينقاد لداعية يدعوه إلى أي أمر} (٢)

فهذا الرجل يريد أن يوصل رأيه إلى غرفة عمليات صناعة القرار عند فرعون، ويبدو أنه كان أحد أعضائها.

{لقد كان من تدبير الرجل المؤمن...أن يجلس إلى فرعون المجلس الذي اعتاده منه... مجلس إبداء الرأي...وإنه لا بأس على فرعون أن يأخذ بالرأي الذي يخلص به من بين تلك الآراء...إنه حينئذ يكون هو الذي يعطى الرأي ولا يأخذه، ويصدر الحكم، ولا يتلقاه!! ومن هنا نجد الرجل المؤمن... قد استطاع أن يعرض قضية الإيمان بالله، في وضوح وجلاء، وأن يقدمها إلى فرعون في جو هادئ، لا تعكر صفوه الأعاصير المحملة برجوم الردع والتحدي}.(٣)

وفي هذا الموقف درس عظيم للدعاة، وأصحاب الفكر، ودعاة التغيير، أن ينتهجوا هذا النهج، عندما تكون السلطة متغولة على أتباعها، تمارس الإرهاب الفكري، والقمع

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٢٢٦/١٢.

٢- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١٢٢٦/١٢.

٣- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١٢٢٧/١٢

لكل رأى، أو دعوة تغاير ما هي عليه، وشعارها المرفوع في وجه كل من أراد أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر، أو يريد إحقاق حق لمظلوم، فشعارها يقول لا أريكم إلا ما أرى، وليس لكم أن تفكروا إلا بما يصلح شأني، ويرفع قدري، وليس لكم من الأمر إلا أن تقولوا سمعاً وطاعة، ولا بد من إغلاق عيونكم، وتكميم أفواهكم، وطمس عقولكم وقلوبكم.

فإلى كل من يواجه هذا النمط في مجتمعه، أن يسلك مسلك مؤمن آل فرعون، ليستطيع توصيل فكرته، أو دعوته، أو رأيه إلى الطرف الذي يريده، فمؤمن آل فرعون عندما كتم إيمانه، استطاع أن يوصل فكرته، ودعوته، وإيمانه إلى فرعون وملئه، ودون أن يعترض عليه أحد، ويخاطب فيهم الفطرة والعقل بالمنطق الهادئ، بعيداً عن روح التحدي.

كل هذا عندما يكون أصحاب الدعوات، يعيشون لحظات، ومراحل الضعف، وقلة الأنصار، وهذا ما فعله ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية حتى قويت شوكتها، واشتد عودها، فانطلق بعدها ليفتح بها آفاق الكون، ويهوي أمامه كل سد منيع.

وخلاصة القول في هذه الآية فيما يتعلق بالكتمان أنها بينت أسلوب الدعوة في مرحلة الضعف والسرّية، وكيف يؤتي أُكله بسلام، ودون خسائر في صفوف الدعوة، وذلك عندما يتقيد الداعية بالمحافظة على أمنه الشخصي وحقيقة شخصيته من الانكشاف، فإن ذلك سيوصله إلى مالا يمكن الوصول إليه فيما لو انكشفت شخصيته، وعرف اتجاهه، فعندها ستتغير الموازين ويتم النظر إليه بطريقة مختلفة وستوصد أمامه كثير من الأبواب لطالما فتحت له بكل احترام وتقدير، فعلى الداعية أن يفيد من فعل مؤمن آل فرعون في التعامل مع الوسط والبيئة المحيطة به حسب ما يناسبها بشرط أن لا يفعل ما يُخِلُ بإيمانه ومبادئه.

المبحث الثاني

في هذا المبحث بإذن الله نتوصل إلى أن الكتمان هو أحد أهم الأسباب التي تؤدي إلى الأمان والاستقرار لكل فئات المجتمع.

أهمية الكتمان في الاستقرار والسلامة للمجتمع على مستوى الجماعة والفرد.

يقول تبارك وتعالى: **(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ،الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ)** (١)

{«لِإِيلافِ قُرَيْشٍ» أي لأجل أن تألف قريش رحلة الشتاء والصيف، ولكي تعتاد تنظيم حياتها على هاتين الرحلتين– كان هذا الذي صنعه الله بهذا العدوّ صاحب الفيل، الذي جاء يبغى إزعاجهم عن البلد الحرام، ونزع ما في القلوب من مكانة لهم، وتعظيم لشأنهم...كان هذا الذي فعلناه بهذا العدو المغير الذي جاء يزعج أهل هذا البلد الآمن... فكانوا في رحلتيهم التجاريتين، في الشتاء والصيف، في أمن وسلام**}** (٢)

وكان ذاك من فضل الله على قريش قبل الإسلام إكراما للبيت الذي يخدمونه.

{فحيث نزلوا وجدوا الألفة والمودة من كل من يلقاهم...وقد كان لقريش رحلتان للتجارة... رحلة في الشتاء، إلى اليمن، ورحلة في الصيف، إلى الشام...والذي يعرف الحياة الجاهلية، وما كان يعرض للمسافرين في طرقها وشعابها من أخطار، وما يترصدهم على طريقهم من المغيرين وقطاع الطرق، يدرك قيمة هذا الأمن الذي كان يصحب قريشاً في قوافلها المتجهة إلى اليمن أو الشام... دون أن يعرض لها أحد**}** (٣) فكانت نعمة الأمن التي امتن الله بها على قريش يذكرهم بها لعلهم يعقلون.

{وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» (٤) ولهذا جاء قوله تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» – جاء تعقيباً على هذه النعمة العظيمة... وجعل من حقّ شكرها أن يعبدوا رب هذا البيت، فهو– سبحانه– الذي حفظه لهم، وحفظ عليهم أمنهم وسلامتهم

١– سورة قريش، وآياتها أربع

٢– عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٦٨٢/١٦

٣– عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١٦٨٢/١٦

٤– سورة العنكبوت، الآية ٦٧

فيه... فلقد أطعمهم الله سبحانه من جوع، بما فتح لهم من طرق آمنة يغدون فيها ويروحون بتجاراتهم، وألبسهم لباس الأمن حيث كانوا} (١)

في هذه السورة امتنّ الله سبحانه على قريش بخصوصية منحهم الأمن في تحركاتهم وعلى تجارتهم، في الحين الذي كانت تعيش العرب فيه من غيرهم حالات الرعب من السلب، والنهب، والقتل، وقطع الطريق، فلا أمن لهم ولا أمان، لا على تجارة ولا على ذرية، بل ولا على عرض، فقد كانت العرب يغير بعضها على بعض، من أجل الرزق والكسب، فيقتلون بعضهم، ويأخذون أموالهم، وماشيتهم، وأزواجهم ونسائهم، فسلم الله قريشاً من هذه الحالة، وهي نعمة اختص الله بها قريشاً لوجود البيت المحرم عندهم، فكانت العرب تهابهم وتحترمهم، لاسيما بعد أن دفع الله عنهم أصحاب الفيل، فتعاظمتهم العرب أكثر، ولم يجروء أحد من العرب على اعتراضهم في تجارتهم، أو الإغارة عليهم، فأمنت قريش في ذاتها، أفراداً، ومجتمعاً، واقتصاداً، وهو عماد المجتمع المكي آنذاك من التجارة، وكانت المورد الرئيس لأرزاقهم.

وإذا نظرنا إلى موقف قريش عندما جاء الإسلام ولم يؤمنوا به، واضطر المسلمون إلى الهجرة للمدينة، وأرادوا أن يكسروا شوكة قريش الاقتصادية، والسيادية كذلك، حاول المسلمون الاستيلاء على قافلة كبيرة لقريش، كانت تضم أكثر أموالها، وهذا يدل على أن قريشاً لم تستطع كتمان أمر القافلة عن المسلمين، فاندلعت بسبب ذلك الحرب الفارقة بين قريش والمسلمين في المدينة، وكانت معركة بدر، التي قتل فيها من قريش صناديدهم، واختل أمن المجتمع القرشيّ بهذه الحادثة.

ويتجلى الكتمان في قول رسول الله ﷺ عندما كان يتجول في محيط المكان الذي حصلت فيه معركة بدر، وعندما رآى شيخاً فسأله عن أخبار قريش، ثم سأله الشيخ من القوم، فقال عليه الصلاة والسلام: (نحن من ماء أي من ماء دافق وهو المني) (٢)

ففهم الشيخ فهما أراده رسول الله ﷺ، وأبعد النظر عن أخبار المسلمين، وعن إمكانية كشف أي معلومة عنهم، لاسيما أن جيش المشركين كان يتمركز قريباً منهم، وحتى يبقى المسلمون في مأمن، لا يباغتوا، فيؤخذوا على حين غرة، وسيما وأن عددهم

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٦٨٢/١٦

٢- أبو الفرج علي بن إبراهيم الحلبي، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ٢٠٧/٢، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية – ١٤٢٧هـ

قليل، ولم يخرجوا لقتال، فتقع الهزيمة، ولم يعرف الرجل شيئاً عن المسلمين، وهذا الكتمان للأسرار العسكرية سبب للنصر بإذن الله، وهذه صورة من الكتمان تتجلى عند القيادة.

وقد جاءت الشريعة بالضرورات الخمس، وهي {الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال.} (١) وكل هذه الأمور لا تتأتى إلا بوجود الأمن، ولن يكون الأمن إلا إن كان هناك كتمان لأسرار الفرد، أو المجتمع، وهي أسرار منعته وأسرار قوته، أسرار سعادته ورخائه، أسرار سيادته، وظهوره على أمثاله، حينئذ يعيش الفرد، والمجتمع، أمنه النفسي، والسياسي، والاقتصادي، والأسري، والاجتماعي، وكل ما يطلق عليه أمن.

ولنا في قصة يوسف عليه السلام أسوة حسنة، ودليل على أهمية الكتمان لحياة الفرد، واطمئنانه الذي بدوره ينعكس على اطمئنان المجتمع كله. فقد قال يوسف لأبيه: **(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)** (٢)، فكان الجواب: **(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)** (٣)

{وقوله: «إِنِّي رَأَيْتُ» أي رؤيا في المنام... ولم يكشف يعقوب ليوسف- عليهما السلام- عن تأويل هذه الرؤيا، بل أراه منها أنها تنبئ عن خير عظيم يناله، ومنزلة عالية يبلغها... وذلك في قوله:«قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ» لقد نهاه عن أن يتحدث بهذه الرؤيا إلى إخوته، فإنها توحي إليهم بأنه سيكون له من إخوته الأحد عشر ما كان من تلك الكواكب في موقفها منه... وذلك من شأنه أن يبعث الحسد والغيرة في نفوسهم منه} (٤)

١- أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، صفحة ٤٨ الناشر: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م بدون مكان النشر

٢- سورة يوسف، الآية ٤

٣- سورة يوسف، الآية ٥

٤- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، الجزء ١٢٣٥/٦

فإذا كان هذا فعل الإخوان بعضهم ببعض، فما بالك بالأباعد، سواء ذوي القربى من الأرحام أو غيرهم، فقد علم يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا، وأن سيكون لصاحبها شأناً لا يكون لإخوته، ولعلمه بطبع أبنائه الآخرين، ولما يقع في نفوسهم من وساوس الشيطان، وأنهم سوف يحاولوا إيقاع الأذى بيوسف، طلب منه أبوه ألّا يخبر أحداً بهذه الرؤيا، وأمره بالكتمان للمحافظة عليه، وعلى مستقبله الواضح من الرؤيا.

إذاً فالكتمان سر من أسرار الأمن الشخصي، والجمعي، وعلى كل من يطمح لحياة آمنة وادعة، أن يجعل الكتمان رفيقاً له في حياته وعند قضاء حوائجه التي تميزه عن غيره، أو التي لا يستطيع غيره أن يحققها. مصداقاً لقول رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه: **(**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**)** (١)

وما أروع قوله ﷺ: **(**مَن أصبَح مُعافًى في بدنِه آمنًا في سِربِه عندَه قوتُ يومِه فكأنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا**)** (٢)، وفي هذا الحديث لأهل التقوى، وأرباب العقول ما يكفيهم من الدنيا بحيث لا ينظرون بعين الحسد، والحقد، لمن كان أكثر منهم جمعاً، فيتمنون زوال النعمة عنه، أو تقع عيونهم فيما عنده، وربما قتلوه بعيونهم.

ففي الحديث تسلية ومواساة لمن كان له قلب منهم، أو أيقن أن الأرزاق، والعطايا، من الله، وبيد الله، فليرضى بما قسم الله له، وليشكر ليبقى المجتمع بأفراده في أمان، وهدوء وهناء. وكذلك لا ينبغي لمن أرادأن يعمل عملاً أن يخبر بنيته كل من قابله، حتى يتم العمل. وكذلك من دواعي الأمن الاجتماعي ستر أحوال البيوت الإسلامية، فلا يتحدث بما يكون في بيته ولا يفشيه لأحد، كي يبقى البيت آمناً هادئاً مطمئناً، فالبيت هو اللبنة الأولى في أساس المجتمع.

عبرة وعظة من قصة الإفك في القرآن:

(لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) (٣)

يقول المفسر رحمه الله:

١- سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (١)

٢- أخرجه ابن حبان في صحيحه في باب الزهد والقناعة، في ذكر الإخبار عمّن طيب الله جلّ وعلا عيشه في هذه الدنيا، ٤٤٥/٢، برقم ٦٧١

٣- سورة النور، الآية ١١

{لَوْلا أي هلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى**}**. (١)

والعبرة في هذه القصة التي هزت المجتمع المسلم هزاً عنيفاً، فقد خاضت في عرض النبيّ ﷺ، ونالت من نفسية الرسول الكريم، وعائلة أبي بكر (٢) رضي الله عنه، بل ومن المجتمع المسلم بأسره، فلو أن الذي تولى كبر حادثة الإفك التي مست أركان بيت النبوة، فلو أنهم أحسنوا الظن وكتموا الحدث، لما حصل ما حصل، ولبقي المجتمع آمناً مطمئناً، لكن هيهات هيهات، إنهم المنافقون **(وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)**. (٣)

هؤلاء المنافقون، أرادوا النيل من رسالة الإسلام، من خلال النيل من عرض رسول الله ﷺ، فحاولوا طعنه في عرضه ولكن خابوا وخسروا، وقد نزلت براءة ونزاهة عرض رسول الله ﷺ من فوق سبع سماوات طباقاً، جاءت من عند الله الذي يعلم السر وأخفى، وأسقط في أيديهم، ولاحقتهم العقوبة، فنال كل منهم جزاءه بقدر ما خاض في عرض رسول الله ﷺ، وما كان لهم في الحسنى والستر نصيب فقد فضحهم الله في الدنيا وسيفضحون في الآخرة، ولو أنهم تمثلوا حديث رسول الله ﷺ: **(**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)** (٤)

وهذا في حال أن المسلم وقع يقيناً في الذنب، فما بالكم لو أن هذا المسلم بريئاً ويعلم المجتمع نزاهته ورفعة مكانته، ولو كان مذنباً لاختفى عن الأنظار، ولكن أم المؤمنين لحقت الجيش في وضح النهار، وأُطلقت الألسنة القذرة في عرضها، وما أرادت للمجتمع أمناً، ولا سلاماً.

١- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، ٣٧١٣/٧

٢- هو عبد الله بن عثمان بن عامر القرشي التميمي، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر. كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر تقريباً، أخضع جزيرة العرب للإسلام بعد ارتدادها، كانت وفاته يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ١٤٤،١٤٥/٤ بتصرف

٣- آل عمران، الآية ١١٨

٤- سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (٢)

النفس تميل للكتمان:

إن من طبيعة النفس البشرية، ميلها للكتمان بالفطرة، خاصة، عند وقوعها في الزلل، فهي تخفي عيوبها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فالنفس السوية تخفي الذنب لتستغفر الله، وتتوب منه، فيغفر الله لها، ويتوب عليها، أما النفوس التي لا تريد الخير ولا الأمن للمجتمع، وتريد أن تحرفه عن بوصلة أخلاقه وقيمه الربانية، والتي تريد إشاعة الفاحشة، والغرائز البهيمية، فإنها لا تتورع عن نشر أفعالها، وقبائحها، أملاً في أن يقتدي بها بعض من أصحاب النفوس المريضة، والتي خرجت عن أدب الفطرة السليمة علاوة على أدب الإسلام العظيم.

أخبرنا رسول الله ﷺ عن هذه الفئة التي لا تريد الخير للمجتمع، وتريد به السوء ونشر الرذيلة، فقال: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه) (١)، هذه فئة تفاخر بذنوبها، ولا تكتمها، فهم أصحاب الفتنة، الذين لا يدخلون في معافاة الله للمؤمنين.

ومن طبيعة النفس البشرية السليمة، أن يكون لديها ما تكتمه عن الآخرين، فالإنسان بطبعه يخطئ ويصيب، فما كان مصيباً فيه، أظهره وأعلنه، وما كان مخطئاً فيه أخفاه عن الناس وكتمه، ومنه قوله ﷺ لمن جاء يسأل عن البر: (البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ. والإثمُ ما حاك في نفسِك، وكرهتَ أن يَطَّلِعَ عليه الناسُ) (٢)

ثم إن هناك أمور لو علمها بعض الناس لكان من نتائجها الضرر الكبير على صاحبها، فمثلاً التنظيمات السرّية في مجتمعاتها، لو تم اكتشافها لأودعت السجون، أو علقت على أعواد المشانق، ومنهم المجاهدون في فلسطين، أو غيرها من البلاد المستباحة هذه الأيام، مثل سوريا، والعراق، واليمن... أسال الله لكل المسلمين العافية.

من الأمور التي يعتمد عليها الكتمان، التمويه أو التنكر، وهو أن يخفي الشخص ملامحه الحقيقية فلا يُعرف، كما حصل مع كثير من أبطال فلسطين الذين يقاومون

١- أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٦٠٦٩، ٨/٢٠، باب ستر المؤمن على نفسه

٢- أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٥٥٣، ٤/١٩٨٠، باب تفسير البر والإثم

الاحتلال الصهيوني، فيصلون إلى أهدافهم، ويوقعون الخسائر في صفوف العدو، وساعدهم على ذلك، كتمان أمرهم عن أقرب الناس إليهم، فما بالكم بالأبعدين؟ وعليه فلا يكون الكتمان من ثرثار، أو مفاخر بما قام به من أعمال، أو على وشك أن يقوم به.

ولكي يتأتى الأمن للمجتمع والفرد أحد مكوناته، قال الله تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{لا يقال لك: خذ حذرك إلا إذا كان هناك عدو يتربص بك؛ فكلمة: خذ حذرك «هذه دليل على أن هذا الحذر مثل السلاح، مثلما يقولون: خذ بندقيتك خذ سيفك، خذ عصاك، فكأن هذه آلة تستعد بها في مواجهة خصومك وتحتاط لمكائدهم، ولا تنتظر إلى أن تغير عليك المكائد، بل عليك أن تجهز نفسك قبل ذلك على احتمال أن توجد غفلة منك، هذا هو معنى أخذ الحذر**}** (٢)

بالطبع لا يكون الحذر إلا بعد الكتمان، فإن كان لديك ما تكتمه، فأنت حذر، تأخذ حذرك من كل من حولك، مخافة أن تؤتى من أقرب الناس إليك وأنت تظن في نفسك أنك آمن، فتؤخذ على حين غفلة منك، فتصاب في مقتل، وكما قال القائل: (مِنْ مأمَنِهِ يؤتَى الحَذِرُ) (٣)

وما كان الحذر رفيق قوم إلا نجاهم الله من كثير من المصائب إلا المقدور.

{وكان علي بن أبي طالب رضي الله (٤) عنه يخرج كل يوم بصفّين حتى يقف بين الصفّين ويقول:

أيّ يومي من الموت أفرّ ... يوم لا يقدر أو يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه... ومن المقدور لا ينجى الحذر**}** (٥)

١- سورة النساء، الآية ٧١

٢- محمد متولي، تفسير الشعراوي، ٢٣٩٦/٤

٣- أبو الفضل النيسابوري، مجمع الأمثال، ٣١٠/٢، دار المعرفة بيروت، لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ

٤- سبقت ترجمته في صفحة (١٤) هامش (٤)

٥- شهاب الدين المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٩٦/١، تحت عنوان لابن أبي طالب في صفين. دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ

وخلاصة الموضوع: أن الكتمان سر من أسرار الأمن الفردي والجماعي، وهو عامل أساسي من عوامل الاستقرار والسلامة للمجتمع، وفيه حفظ من الأعداء وعيونهم، فهو بإذن الله يحفظ رفيقه من الحقد، والحسد، ومن خسارة المعركة، وفيه تطبيق لسنة الله وسنة رسوله ﷺ، وبه تُستر عورات المسلمين وزلاتهم، وتحفظ بيوتهم، ويصل المجاهد إلى مبتغاه، ويصل المرء إلى معافاة الله، وهذا أمل كبير، أسأل الله أن يحققه لأمتنا، ونحن نسأله العفو والعافية والمعافاة الدائمة، في الدين والدنيا والآخرة.

الفصل الثاني

في هذا الفصل أصنف الآيات التي تحدثت عن السرّية حسب الموضوع الذي تحدثت عنه الآية

تصنيف الآيات التي ورد فيها ذكر السرّية حسب موضوعها وفيه مبحثان:

المبحث الأول: التصنيف الموضوعي للآيات:

هناك مواضيع عديدة تحدثت عنها الآيات منها:

أولاً: السرّية في مكنونات النفس والنجوى.

١-قال تعالى: **(أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)** (١).

يقول المفسر يرحمه الله:

{وقوله تعالى (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون... وإذا كان يعلم ما نسر أفلا يعلم ما نعلن؟ لاشك أنه يعلم... ولكنها دقة في البلاغة القرآنية؛ ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه... السر هو ما لم تهمس به إلى غيرك... لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سراً... ولكن السر هو ما تسره في نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس**}** (٢)

فالله علّام الغيوب، وهو الذي أوجدك، أفلا يكون بك خبيراً؟ ويتابع المفسر قوله:

{وإذا كان السر هو ما تسره في نفسك، فالعلن هو ما تجاهر به. ويكون علناً مادام قد علمه اثنان... والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفي... والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب...فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيباً. إنه يعلم السر والعلن**}**(٣)

فإن كان الله سبحانه يعلم السر ويعلم الجهر وكلاهما في علمه سواء، فعلام يظن هؤلاء الأغبياء، هؤلاء الضعفاء، هؤلاء الذين هم أمام الله وفي علم الله الذي يحيط بكل شيء، هم أمامه كمن يحاول أن يخفي شيئاً في داخل صندوق من الزجاج، نظيف ومصقول، يظهر ما في باطنه من ظاهره، وما في ظاهره من باطنه، وما أمامه يُرى من

١- سورة البقرة، الآية ٧٧

٢- محمد متولي، تفسير الشعراوي، ٤١١/١

٣- محمد متولي، مصدر سابق، ٤١٢/١

خلفه، وما خلفه يُرى من أمامه، وما في جانبه يُرى من الجانب الآخر، فهل يُخفى شيء في هذا الصندوق أو حوله؟ بالطبع، لا: فأنى لهؤلاء التعساء أن يُخفوا عن الله شيئاً وهو العليم الخبير، الذي يعلم السر وأخفى، وهو الذي خلقهم، ويعلم سرهم وجهرهم، ويعلم ما يكسبون.

ولكن الله طمس على عقولهم وقلوبهم، ولم يستعملوها كما أراد الله لها أن تُستعمل، فظنوا أنهم يكتمون الله ما أرادوا أن يكتموه، ولم يقدروا الله حق قدره سبحانه، ويوم القيامة تشهد عليهم أعضاؤهم بما كتموه وأنكروه، فيا أيها الإنسان، سلم أمرك للعليم الخبير، واستغفره وتب إليه في كل حين، وكلما أخطأت فتذكر أن لك رب غفور، ولا تستعظم ذنباً أمام مغفرته، فهو يغفر ما دون الشرك كل الذنوب، فاقدُر ربك قدره، وأنخ بباب مغفرته كل أحمال الذنوب، وقل يا رب تب عليّ لأتوب واغفر بفضلك لي كل الذنوب.

٢-قال تعالى: **(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ)** (١).

يقول المفسر يرحمه الله:

{هو استعراض لقدرة الله وعلمه، وأنه هو الإله الخالق للسموات والأرض، والمالك لهما، والمتصرف فيهما...وإذ كان الله على تلك الصفة، فإنّه يعلم بعلمه كل شيء في هذا الوجود، ظاهره وباطنه، جليّه وخفيّه... «أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (٢) والإنسان صنعة الله... خلقه من طين، وتنقل به من خلق إلى خلق، حتى صار هذا الكائن البشرى، العاقل، المدرك**}** (٣)

فاعلم أيها الإنسان علم القين أن الله الذي خلقك بصير بك وبأحوالك عليم خبير، ويتابع المفسر قوله: **{**أفيخفى على الله من أمره شيء؟ وكيف وقد صنعه بيده، ورباه ونشّأه، وأمسك عليه حياته، وعدّ عليه أنفاسه، وأحصى نبضات قلبه؟ ألا يعلم الإنسان

١- سورة الأنعام، الآية ٣

٢- سورة الملك، الآية ١٤

٣- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٢٩/٤

كل خافية من صنعة صنعها، أو مخترع اخترعه؟ فكيف بعلم الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم؟ وفى هذا الاستعراض لعلم الله وقدرته استدعاء للإنسان الشارد عن الله، الغافل عن ذكره...أن يعود إلى الله} (١)

فيا أيها الإنسان، أتظن لحظة أن الله يخفى عليه شيء من مكنونات نفسك؟ بل الله الذي خلقك وسواك وصورك، فهو الذي أوجدك من عدم، وهو الخبير بك أيها المخلوق الضعيف المكشوف أمام الله وعلمه، فكيف يتسرب إلى نفسك خاطر من شك أنه لا يعلم سرك وهو الذي أوجد كل خلية فيك وما حوت تلك الخلية، بل أنت الجاهل بما في نفسك، أنت الذي تجهل ذاتك، ومهما تقدم بك العلم، فستبقى تجهل الكثير الكثير عن مكنونات نفسك، والله يعلم السر وما كان أخفى من السر وهو ما كان السر قبل أن يصبح سراً، فلا يظن جاهل أنه يستطيع أن يخفي عن الله أمراً دقيقاً، فإن كان هذا حال السر عند الله فكيف بالجهر؟

٣-قال تعالى: **(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ)** (٢).
يقول المفسر يرحمه الله:

{ألم يعلموا – وهم يدعون الإيمان – أن الله مطلع على السرائر، عالم بما يدور بينهم من أحاديث، يحسبونها سراً بينهم لأنهم يتناجون بها في خفية عن الناس؟ وأن الله يعلم الغيب الخافي المستور، فيعلم حقيقة النوايا في الصدور؟ ولقد كان من مقتضى علمهم بهذا، ألا يستخفوا عن الله بنية، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ما عاهدوا الله عليه، والكذب عليه في إعطاء العهود.**}** (٣)

وهذه الآية تتحدث عن صنف من الناس يعاهدون الله على شيء ثم ينقضون عهدهم ولا يوفون به ظانّين أنهم بهذا الفعل الهابط الشنيع يخدعون الله سبحانه، فقد كانوا يخفون في أنفسهم أمراً غير الذي يقولون.

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٢٩/٤
٢- سورة التوبة، الآية ٧٨
٣- سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٦٧٩/٣

والله يعلم سرهم، أي، ما كان مستوراً في نفوسهم ولم يظهروه لأحد من الخلق، ويعلم ما يتناجون به، وهو ما يخبر به بعضهم بعضاً خفية عن الآخرين، فالأمر عند الله سواء، في سرهم ونجواهم وجهرهم وفي كل أحوالهم، فالله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

فيا أيها الإنسان، يا أيها المسكين، راقب الله الذي لا يغيب عنه شيء من أحوالك في كل ظروفك، وتذكر قول الله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَاأَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَعَلَيْكُمْ رَقِيبًا)** (١)

وتذكر قول رسول الله ﷺ: (ثلاث مَن كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: مَن إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان.) (٢)

ولا يفوتك أن تحفر في قلب ذاكرتك أن ديننا دين أخلاق والتزام ووفاء، وأسأل الله أن يرزقنا الإخلاص والوفاء وكل خلق طيب وقويم، مقتدين بسيد الخلق محمد ﷺ

٤-قال تعالى: **(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)** (٣).

يقول المفسر يرحمه الله:

{ويا لها من رهبة غامرة، وروعة باهرة، حين يتصور القلب البشري حضور الله - سبحانه - وإحاطة علمه وقهره بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله:

«أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ. أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما

١- سورة النساء، الآية ١

٢- سبق تخريجه في صفحة (٣٢) هامش (٢)

٣- سورة هود، الآية ٥

يُعْلِنُونَ. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور»..ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين} (١)

إذاً هي غفلة قلوب المشركين عن الله سبحانه، ورسول الله ﷺ: {يسمعهم كلام الله فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم استخفاء من الله الذي كانوا يحسون في أعماقهم أنه قائل هذا الكلام...ولا يكمل السياق الآية حتى يبين عبث هذه الحركة، والله، الذي أنزل هذه الآيات، معهم حين يستخفون وحين يبرزون. ويصور هذا المعنى – على الطريقة القرآنية – في صورة مرهوبة، وهم في وضع خفي دقيق من أوضاعهم. حين يأوون إلى فراشهم، ويخلون إلى أنفسهم، والليل لهم ساتر، وأغطيتهم لهم ساتر.} (٢)

ويتابع المفسر قائلاً:

{ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر. يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون:«أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ»...وليست أغطيتهم بساتر دون علمه. ولكن الإنسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد. فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها، فيخيل إليه أن ليس هناك من عين تراه! «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ»} (٣)

فالله الواحد القهار العليم الخبير، العالم بمكنونات نفوسهم. {عليم بالأسرار المصاحبة للصدور، التي لا تفارقها، والتي تلزمها كما يلزم الصاحب صاحبه، أو المالك ملكه... فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور.

ومع ذلك فالله بها عليم... وإذن فما من شيء يخفى عليه، وما من حركة لهم أو سكنة تذهب أو تضيع} (٤).

١–سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٨٥٥/٤

٢– سيد قطب، مصدر سابق، ١٨٥٦/٤

٣– سيد قطب، مصدر سابق، ١٨٥٦/٤

٤–سيد قطب، مصدر سابق، ١٨٥٦/٤

ويظن أولائك المعرضون عن ذكر الله والمستكبرون عن دعوته سبحانه أنهم يستطيعون إخفاء ما يريدون إخفائه عن الله سبحانه، وهو عالم السر وأخفى، ولا تخفى عليه خافية، ولا يخفى عليه حال قد يكون المخلوق عليه، في خلوته أو في ظهوره، أو في سره أو في علانيته، فالأمر عند علام الغيوب سواء، فراقب الله حتى تسلم وتنجو، فمن راقب الله، علم أنه مكشوف، ومن علم أنه مكشوف أمام القاضي لم يوقع نفسه في الخطأ حتى لا يحاسبه القاضي بالدليل القاطع الذي لا يستطيع إنكاره فيثبت عليه الجرم ويستحق العقوبة.

٥-قال تعالى: **(سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)** (١).

{وَالْمَعْنَى: سَوَاءٌ فِي عِلْمِهِ الْمُسِرُّ الْقَوْلِ، وَالْجَاهِرُ بِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِهِ.**}**(٢)

٦-قال تعالى: **(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)** (٣).

يقول الله عن نفسه سبحانه وتعالى، أنه يعلم ما تسرون أيها الخلق وما تعلنون، فالأمر عنده سبحانه سواء، أفعلتموه سراً أم جهراً.

{وقوله تعالى: (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) فيه وجهان: الأوّل: أنّ الكفار مع كفرهم كانوا ليسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبيّ ﷺ وما يعلنون، أي: وما يظهرون من أذاه ﷺ فأخبر الله تعالى بأنه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى عليه خافية وإن دقت وخفيت.**}** (٤) فالله سبحانه وتعالى يخبرنا بصفة من صفاته وهي العلم بالسر والجهر، فسبحانه علّام الغيوب.

١- سورة الرعد الآية ١٠

٢- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ٣٥٨/٦، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة ١٤٢٠هـ، بدون ذكر رقم الطبعة.

٣- سورة النحل، الآية ١٩

٤- شمس الدين الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، ٢٢٣/٢، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، عام ١٢٨٥ هـ، بدون ذكر الطبعة

{والوجه الثاني: أنه تعالى لما ذكر الأصنام وذكر عجزها في الآية المتقدّمة ذكر في هذه الآية أنّ الإله الذي يستحق العبادة يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة.} (١)

٧-قال تعالى: **(لاجرم أن الله يعلم ما يُسرّون وما يُعلنون، إنه لا يحب المستكبرين)** (٢).

{وَقَوْلُهُمْ: (لَا جَرَمَ) ... : هِيَ كَلِمَةٌ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ بِمَنْزِلَةِ لَا بُدَّ وَلَا مَحَالَةَ فَجَرَتْ عَلَى ذَلِكَ وَكَثُرَتْ حَتَّى تَحَوَّلَتْ إِلَى مَعْنَى الْقَسَمِ وَصَارَتْ بِمَنْزِلَةِ حَقًّا فَلِذَلِكَ يُجَابُ عَنْهَا بِاللَّامِ كَمَا يُجَابُ بِهَا عَنِ الْقَسَمِ أَلَا تَرَاهُمْ يَقُولُونَ: لَا جَرَمَ لَآتِيَنَّكَ} (٣)

يقول المفسر رحمه الله:

{{لا جرم} أي: حقاً {أن الله يعلم} علماً غيبياً وشاهدياً{ما يسرون} أي: ما يخفون مطلقاً أو بالنسبة إلى بعض الناس {وما يعلنون} أي: يظهرون فيجازيهم ذلك. ولما كان في ذلك معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى: {إنه} أي: العالم بالسر والعلن {لا يحب المستكبرين} أي: على خلقه فما بالك بالمستكبرين على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى عدم محبتهم أنه يعاقبهم.} (٤)

٨-قال تعالى: **(وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)** (٥).

يقول المفسر رحمه الله:

{بيانٌ لإحاطةِ علمِه تعالَى بجميع الأشياء إثرَ بيانِ سعةِ سلطنتِه وشمولِ قدرتِه لجميع الكائنات أي وإن تجهَرْ بذكره تعالى ودعائِه فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك

١- شمس الدين الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، ٢٢٣/٢

٢- سورة النحل، الآية ٢٣

٣- أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، صفحة ٥٦

٤- شمس الدين الشربيني، مصدر سابق، ٢٢٤/٢

٥- سورة طه، الآية ٧

(فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى) أي ما أسرَرْته إلى غيرك وشيئاً أخفى من ذلك وهو ما أخطَرْته ببالك من غير أن تتفوّه به أصلاً أو ما أسرَرْتَه لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتي تنكيره للمبالغة في الخفاء} (١)

نعم، إنه الله السميع الذي لا يحتاج لرفع الصوت ليسمع، بل إنه عليم بخفايا النفوس وما جُبلت عليه وما يمكن أن تفكر فيه مستقبلاً. ويتابع المفسر قوله: {وهذا إما نهيٌ عن الجهر كقوله تعالى واذكر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الجهر مِنَ القول وإما ارشادٌ للعباد إلى أن الجهرَ ليس لإسماعه سبحانه بل لغرض آخرَ من تصوير النفسِ بالذكر وتثبيتِه فيها ومنْعِها من الاشتغال بغيره وقطعِ الوسوسةِ عنها وهضمها بالتضرع} (٢)

في هذا الموضع يخاطب الله عزّ وجلّ الإنسان مبيناً له أنه سبحانه يعلم كل شيء صدر عنك من قول أو فعل، أو لم يصدر عنك، ولو أنه محتمل الصدور في لحظة مستقبلية، فإن الله يعلم حصوله وكيفية الحصول وزمانها ومكانها، فاطمئن أيها الإنسان، فأنت صفحة شفافة مكشوفة أمام الله، لا يخفى منك شيء، وإن خلته خاف فهو مكشوف، فلا تقع فيما نهاك الله عنه وإن كنت عن أعين الناس بعيداً وخافياً.

٩- قال تعالى: **(فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى)** (٣).

يقول المفسر رحمه الله:

{أي السحرةُ حين سمعوا كلامه عليه الصَّلاة والسَّلام كأن ذلك غاظهم فتنازعوا {أمرهم} الذين أريد منهم مِنْ مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا {بَيْنَهُمْ} في كيفية المعارضةِ وتجاذبوا أهدابَ القول في ذلك {وَأَسَرُّواْ النجوى} أي من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقِفَ عليه فيدافعَه وكان نجواهم ما نطَق به قولُه تعالى} (٤).

١- أبو السعود، تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٥/٦ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ

٢- أبو السعود، مصدر سابق، ٥/٦

٣- سورة طه، الآية ٦٢

٤- أبو السعود، مصدر سابق، ٢٥/٦

هنا أخذ السحرة يتشاورون فيما بينهم، وأسرّوا نجواهم عن موسى عليه السلام، إلا أن الله فضح ما تناجوا به قبل أن يسلموا لله رب العالمين، فقد أخفوا أقوالهم عن موسى لحظة شركهم بالله، ظانّين أنهم يستطيعون إخفاء هذا الأمر طالما أنه لم يسمعهم من البشر أحد، وهم في غفلة عن الله وبصره وسمعه، فما علموا أنه هو السميع البصير، يسمع سرهم وجهرهم ونجواهم ومكانهم وعلى أي حال يكونون، حتى رأوا من الآيات ما جعلهم يسلمون ويوقنون بقدرات الله وبصدق نبوة موسى عليه السلام، فاختلف حالهم وسلموا لله أمرهم، وتحدّوا فرعون طاغية عصرهم، وثبتوا على ما تبين لهم من الحق.

وفي هذا درس لكل داعية إلى الله أن يثبت في وجه الطاغوت، وأن يدعوا إلى الله على بصيرة، ولا يخشى عاقبة الأمر فإن عاقبته لا شك رشداً، إما نصر له ولدعوته، وإما شهادة، ثم يكون النصر بعد ذلك عندما يراه الناس قد ثبت على مبادئه ومات عليها، فيعلمون أنها مبادئ حق ولا بد لهم من اتباع الحق، فيكون بعدها النصر بإذن الله.
ويكون هو قد مضى إلى ربه شهيداً وتبعه الناس، ويكون أجرهم في صحيفته وميزان حسناته، ويكون بذلك عند الله من الفائزين بإذنه سبحانه، فما أجمل الحق وطريق الحق والصبر عليه.

١٠- قال تعالى: **(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{وَفِي قَوْله: (لاهية قُلُوبهم) قَالَ: غافلة، وَفِي قَوْله: (وأسروا النَّجْوَى الَّذين ظلمُوا) يَقُول: أَسرُّوا الَّذين ظلمُوا النَّجْوَى...قَوْله: (وأسروا النَّجْوَى) قَالَ: أَسرُّوا نَجوَاهُمْ بَينهم (هَل هَذَا إِلَّا بشر مثلكُمْ) يعنون مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم (أفتأتون السحر) يَقُولُونَ: إِن مُتَابعَة مُحَمَّد صلى الله عَلَيْهِ وَسلم مُتَابعَة السحر**}** (٢).

١١- قال تعالى: **(قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)** (٣).

١- سورة الأنبياء، الآية ٣.

٢- جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٦١٦/٥ الناشر: دار الفكر – بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ

٣- سورة الفرقان، الآية ٦.

يقول المفسر رحمه الله:

{أي يعلم كل سرّ خفىّ في السماوات والأرض. ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله ﷺ مع علمكم أنّ ما تقولونه باطل وزور، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ وبراءته مما تبهتونه به، وهو يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه.**}** (١) فالله يعلم أسرار السماوات والأرض، أفلا يعلم ما يسره المخلوق؟

ويتابع المفسر قوله: **{**فإن قلت: كيف طابق قوله إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً هذا المعنى؟ قلت: لما كان ما تقدّمه في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه، لأنه لا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة. أو هو تنبيه على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبّاً، ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم يمهل ولا يعاجل**}** (٢)

نعم، هذا شأنه سبحانه، ما أعظمه! فهو غفور للمذنبين من المؤمنين، رحيم بهذه الأمة، وإن كان فيها من الفجور ما فيها، فهو رحيم بها إكراماً لرسوله محمد ﷺ، فهو لا يعجل لها العقوبة، بل يمهلها ويؤجلها، لعل منهم من يتوب وهو أعلم بهم وبما يمكن أن يكون منهم، ومن منهم يمكنه التوبة والعودة إلى الله.

فإن كان هذا شأنه مع العصاة وعتاة المجرمين من هذه الأمة، فكيف شأنه مع من أطاعه، ومن نشأ في طاعته، سبحانه ما أرحمه! ولنتذكر قوله ﷺ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) (٣).

نعم أخي الحبيب فهذا درس عظيم للمؤمنين عامة وللدعاة خاصة، ليكن لك أخي الحبيب بعضاً من نصيب تقتبسه من صفات الله، فهو الغفور الرحيم، فاغفر أنت

١- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢٦٥/٣، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ

٢- الزمخشري، مصدر سابق، ٢٦٥/٣

٣- صحيح البخاري، باب الصدقة باليمين، ١١١/٢، رقم ١٤٢٣

لأحبابك وإخوانك وأرحامك وجيرانك وكل من تتعامل معهم وتغاضى عن زلاتهم، وكن بهم رحيماً لتحظى بمغفرة الله ورحمته وتذكر قول رسول الله ﷺ: (كان تاجر يُدَاين النَّاس، فإذا رأى مُعْسِرًا، قال لصبيانه: تجاوزوا عنه، لعلَّ الله أن يتجاوز عنَّا، فتجاوز الله عنه)(١).

١٢- قال تعالى: **(فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)** (٢).

يقول المفسر رحمه الله:

{إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ من عداوتهم وكفرهم، وَما يُعْلِنُونَ، فيجازيهم عليه، فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة، حتى ينقشع عنهم الهمّ، ولا يرهقه حزن. وهو تعليل للنهي على طريق الاستئناف... وقوله تعالى: **(**فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ**)** فيه تسلية لمَن أُوذي في جانب الله... إذا عَلِمَ العبدُ أنه بمرأىً من الحق، هان عليه ما يقاسيه، لا سيما إذا كان في الله.**}** (٣).

هؤلاء الكفار في زمن رسول الله ﷺ، كان كفرهم واضحاً، أما اليوم فإن كفر الطغاة وظلمهم، وبما تحمله الكلمة من معاني عديدة، فإنه للأسف يغطيه علماء السلاطين وطلاب الدنيا، بغطاء شرعي، فتراهم يشرّعون قتل الدعاة إلى الله وسجنهم وملاحقة المجاهدين حيثما كانوا، ويعترفون بالأعداء ويتنازلون عن حقوق المسلمين، ويدّعون الإسلام وخدمته والإنفاق على بيوت الله، وكل ذلك لن ينفعهم، ولن يبرئ ساحتهم من دم مسلم قتلوه، أو عالم ربانيّ ظلماً سجنوه.

إنهم يفعلون ذلك ليكمموا الأفواه الناطقة بالحق، ويروعوا أصحابها، فإلى كل المجاهدين الصابرين، الممتشقين سلاح الحق في وجه الظالمين، يقول الله تبارك وتعالى: **(إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)** مهما أبطنوا من سوء وشر وعداوة تجاه الإسلام وأهله، فالله يعلم ما في نفوسهم من عداوة وحقد دفين وإن أظهروا عكس ذلك ووجدوا علماء سوء يزينون لهم قبيح أفعالهم، فيا أيها الداعية إلى الله، ويا أيها المجاهد في سبيل الله، ويا

١- صحيح البخاري، ٥٨/٣، رقم ٢٠٧٨، في باب من أنظر معسراً

٢- سورة يس، الآية ٧٦

٣- أبو العباس أحمد بن محمد بن الفاسي الصوفي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ٥٨٥/٤، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة ١٤١٩هـ، بدون ذكر رقم الطبعة.

أيها العالم الربانيّ، إلى كل هؤلاء ومن سار على دربهم، لا تأخذه في الله لومة لائم، يقول الله لكم: **(فلا يحزنك قولهم)**.

فالله لا شك فاضحهم وخاذلهم، وإن طالت سلامتهم وغرتهم الدنيا، فامض أيها المجاهد إلى هدفك، وأنت أيها الداعية، اصدح بصوت الحق، وأنت أيها العالم الرباني، إصدع بالحق وقل للظالم، أنت ظالم. قلها وأنت شامخ عزيز بعز الله، فيا شرفاء أمة محمد ﷺ وأتباعه، سيروا على منهجه، واثبتوا، فإن نصر الله من الصابرين قريب.

١٣- قال تعالى: **(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)** (١)

يقول المفسرون:

{بل أيحسب هؤلاء المشركون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بتدبير الكيد، وما يتكلمون به فيما بينهم من تكذيب الحق؟ بلى نسمعها، والحفظة من الملائكة عندهم يكتبون ذلك**}**(٢)

يظن طغاة الأرض وعتاة الظلم، أنهم يفعلون ما يفعلون من ظلم وقتل وتشريد لأهل الحق، بمنآى عن علم الله، وأن تناجيهم وتآمرهم مع أعداء الأمة وأعداء الإسلام والمسلمين، بعيد عن رقابة الله، فقد أخفوه عن شعوبهم، وظنوا أنه خاف عن الله أيضاً، فبئس ما فعلوا، وبئس ما ظنوا، فالله مخرج غدرهم، في الدنيا، وفاضحهم في الآخرة على رؤوس الأشهاد، يقول ﷺ: **(لكل غادرٌ لواءٌ عندَ أستهِ يومَ القيامةِ)** (٣)، أي خلف ظهره، وكفاه بذلك يوم القيامة خزياً ومذلة وصغاراً، ألا فليدرك الظالمون هذا وليعودوا إلى رشدهم ودينهم وحضن أمتهم، وليتركوا التبعية العمياء للغرب الكافر والحاقد على أمتنا وديننا، وليشمخوا بهامهم فوق الربى، وبدينهم ما عاشوا.

١- سورة الزخرف، الآية ٨٠

٢- المؤلف: لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، صفحة٧٣١، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، مؤسسة الأهرام، الطبعة الثامنة عشر، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م

٣- صحيح مسلم، باب تحريم الغدر، ١٣٦١/٣، رقم ١٧٣٨

١٤- قال تعالى: **(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)** (١).

يقول المفسر يرحمه الله:

{ذلِكَ أي: سبب ردّتهم بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ أي: قالوا للكافرين الصادّين عن سبيل الله سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ فبقولهم هذا حكم الله عزّ وجلّ عليهم بالردة، فكيف بمن قال لأئمة الكفر والضلال في عصرنا سنطيعكم في الأمر؟

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ أي: ما يسرونه وما يخفونه، فالله مطّلع عليه وعالم به**}** (٢)

فإذا كان الله تعالى قد حكم بردة وكفر من قال للكافرين أنهم سيطيعونهم في بعض الأمور، فكيف بمن ألقى في هذه الأيام بقياده إلى الكافرين، وأصبح أداة طيعة في أيديهم، وبوقاً إعلامياً لهم، فيقتل شعبه، ويتهم الأحرار بالإرهاب، وبالخروج على وليّ الأمر، ثمّ تجده متآمراً مع الكفرة من أجل اقتلاع وليّ أمر آخر من مكانه في بلد آخر، ويزعم أنه خادم للإسلام والمسلمين، وأنه راعياً لشئونهم، ولا حق لأحد بفهم الدين إلا كما يريده هو، فهو يفهمه فهماً كنسياً، ولا يجوز لغيره أن يتجرأ على ذلك، فإن تحدث أحد على غير هواه كان مصيره القتل، أو غياهب السجون بحجة أنه إرهابيّ، وإن أراد فعل شيء وجب على الشعب أو جميع من يمثله الانصياع والتأييد لما يريده ذلك الحاكم، والويل ثم الويل له ولذويه من لا يؤيد قوله أو فعله، وحكم من لزم الصمت كحكم من أعلن المعارضة، هذا حال أمتنا الآن، فلا نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل، وأدعو الله أن يغيّر الحال إلى أحسن حال في القريب العاجل وما ذلك عليه بعزيز.

١٥- قال تعالى: **(يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)** (٣).

يقول المفسر يرحمه الله:

{يقول تعالى ذكره: يعلم ربكم أيها الناس ما في السماوات السبع والأرض من شيء، لا يخفى عليه من ذلك خافية **(وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ)** أيها الناس بينكم من قول وعمل

١- سورة محمد، الآية ٢٦

٢- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، ٥٣١٥/٩

٣- سورة التغابن، الآية ٤

(وَمَا تُعْلِنُونَ) من ذلك فتظهرونه **(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)** يقول جلّ ثناؤه: والله ذو علم بضمائر صدور عباده، وما تنطوي عليه نفوسهم، الذي هو أخفى من السرّ، لا يعزب عنه شيء من ذلك.**}** (١)

نعم، لا يخفى عليه شيء سبحانه هو الخبير بخلقه.

ويتابع المفسر قوله: **{**يقول تعالى ذكره لعباده: احذَروا أن تسرّوا غير الذي تعلنون، أو تضمروا في أنفسكم غير ما تُبدونه، فإن ربكم لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو محص جميعه، وحافظ عليكم كله.**}** (٢)

والخطاب هنا للبشرية جمعاء، وللمسلمين منهم خاصة، فالله الذي يعلم ما في السماوات على عظمتها، وما في الأرض على رحابتها، فمن باب أولى أن يعلم ما تسرونه أيها الناس، وما تعلنونه، فاحذروا فإن في هذا تهديد خفي لمن أضمر سوءً وأظهر غير ذلك، هو أعلم بمن وضع يده في يد أعداء الأمة سراً، ثم أظهر حرصه على الدين والأمة والأوطان، علماً أنه قد باع كل ذلك سراً، فالله لمثل ذاك بالمرصاد، فهو فاضحه في الدنيا ومخزيه يوم القيامة على مرآى ومسمع من الخلائق أجمعين، وأسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في السر والعلن، في الغيب والشهادة، في القول والعمل وأن يجعل باطننا خيراً من ظاهرنا، وأن يستعملنا ولا يستبدلنا، فإن في الاستعمال رضاً وفي الاستبدال غضب.

١٦- قال تعالى: **(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)** (٣)

يقول المفسر رحمه الله:

{قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (٤) : نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَنَالُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُخْبِرُهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا قَالُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ كَيْ لَا يَسْمَعَ إِلَهُ مُحَمَّدٍ.**}** (٥).

١- الطبري، جامع البيان، ٤١٧/٢٣

٢- الطبري، مصدر سابق، ٤١٧/٢٣

٣- سورة الملك، الآية ١٣

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٢١) هامش (٢)

٥- الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، ١٢٦/٥، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ

وقد قالوا هذا من جهلهم برب العالمين، الذي خلقهم، وهو أعلم بهم، وبما في نفوسهم، وخلجاتها، وبجميع أحوالهم فهو الذي خلقهم وهو أعلم بهم.

١٧- قال تعالى: **(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) يقول تعالى ذكره: إنه على إحيائه بعد مماته لقادر يوم تُبلى السرائر، فاليوم من صفة الرجع، لأن المعنى: إنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر. وَعُنِي بقوله: **(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)** يوم تُخْتَبَرُ سرائر العباد، فيظهر منها يومئذ ما كان في الدنيا مستخفيًا عن أعين العباد من الفرائض التي كان الله ألزمه إياها، وكلَّفه العمل بها**}**(٢)

في ذلك اليوم يُكشف المستور، وتتعاظم الأمور، وعمل المشركين يبور. ويتابع المفسر: **{**وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل...في قوله: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) قال: ذلك الصوم والصلاة وغسل الجنابة، وهو السرائر، ولو شاء أن يقول: قد صُمْتُ، وليس بصائم، وقد صلَّيتُ، ولم يصلّ، وقد اغتسلت، ولم يغتسل.**}** (٣).

في ذلك اليوم الرهيب، يوم الامتحان العصيب، عندما يُظهر الله الصادق من الكاذب، فيثاب الصادق ويعاقب الكاذب، بعد أن يفضحه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق، ويا له من مشهد مخز، فقد استطاع الكاذب في الدنيا أن يخفي كذبه، أما في ذلك اليوم فمهما فعل المجرم الكاذب، فإنه لا يستطيع إخفاء الحقيقة التي يظهرها الله للخلائق جمعاء، وأسأل الله أن يستر عيوبنا في ذلك اليوم ويرحمنا ويستر آبائنا ويرحمهم.

وخلاصة القول في الآيات السابقة فيما يتعلق بالسرّية:

أنها بينت مكر أعداء الله بالدعوة، ومحاولة تشويه سمعة الداعية، وهذا دأب أعداء الدعوة من فجر الإسلام، فقد كان عليه الصلاة والسلام يعرض الإسلام على القبائل، وفي ذات الحين كان الإعلام القرشي يمثله عمّه يتبعه ويصد الناس عنه كما ورد في

١- سورة الطارق، الآية ٩

٢- الطبري، جامع البيان، ٣٥٨/٢٤

٣- الطبري، مصدر سابق، ٣٥/٢٤

السيرة النبوية: (وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقِفُ عَلَى مَنَازِلِ الْقَبَائِلِ مِنْ الْعَرَبِ، فَيَقُولُ: يَا بَنِي فُلَانٍ، إنِّي رَسُولُ اللَّهِ إلَيْكُمْ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْدَادِ، وَأَنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَتُصَدِّقُوا بِي، وَتَمْنَعُونِي، حَتَّى أُبَيِّنَ عَنْ اللَّهِ مَا بَعَثَنِي بِهِ.) (١)

لقد عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل، فاغتاظت قريش، فألبوا عليه آلتهم الإعلامية، (وَخَلْفَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ وَضِيءٌ... فَإِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ وَمَا دَعَا إلَيْهِ، قَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ: يَا بَنِي فُلَانٍ، إنَّ هَذَا إنَّمَا يَدْعُوكُمْ أَنْ تَسْلُخُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، إلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تُطِيعُوهُ، وَلَا تَسْمَعُوا مِنْه) (٢)

وآلة الإعلام هذه هدفها المحاولة لصد الناس عن الدعوة، وأن الله عالم الأسرار، وأن الداعية يصبر على أذى الناس فالله يعلم أفعالهم وأقوالهم، وسرهم وجهرهم. وبينت علم الله بكيد الكائدين لهذه الدعوة، وأن الله يسمع سرهم وما يتناجون به فيما بينهم، وكل ذلك محصيّ عليهم. وفيها تهديد الموالين لأعداء الإسلام والمسلمين، الذين يطيعون الأعداء ولو بشيء يسير ضد مصالح الأمة.

كما بينت علم الله بضمائر العباد وما في صدورهم من سر أوعلانية. وبينت جهل من حاول إخفاء قوله بالأسرار ليخفي ذلك عن الله، والله يعلم السر والجهر وما في الصدور. وبينت الاختبار العظيم يوم القيامة، وأن الكاذبين لا يستطيعون النجاح فيه، وأن الله مخزيهم على رؤوس الأشهاد. وبينت أن الله يعلم ما كان أخفى من السر ولو أنه حصل كيف يكون حصوله. وبيان عدم خفاء النجوى على الله حيث أراد أصحابها إخفائها والله بها عليم.

ثانياً: السرّية في مواعدة النساء وفي الحياة الزوجية.

هذه الآية تتحدث عن حرمة الحديث مع النساء بشكل منفرد حفظاً للأعراض.

١-قال تعالى: **(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا**

١- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ٤٢٣/١

٢- عبد الملك بن هشام، مصدر سابق، ٤٢٣/١

فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) (١).

يقول المفسر يرحمه الله:

{أي علم الله أنكم لا تقدرون على كتمان ما في أنفسكم، وسيجرى ذكرهن على ألسنتكم، وقد تجاوز سبحانه وتعالى لكم عن ذلك، ولم يبح لكم لقاءهن والتحدث إليهن في تكتم وخفاء، فذلك مما يثير الشكوك والريب، ويجعل لألسنة السوء مقالاً، فإذا كان لكم معهن حديث فليكن حديثاً مشهوداً ممن يؤتمن عليه، فيعرف ما يقال، ولا يدع سبيلًا إلى قالة سوء.**}** (٢).

والحديث هنا عن المرأة التي يموت عنها زوجها وما زالت في عدتها فإنه يحرم على الرجال التصريح بمكنون النفس تجاهها إن أراد أحدهم خطبتها بعد العدة ولكن يجوز التعريض بذلك كما فعل رسول الله ﷺ فقال: **(**اعْتَدِّي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ (٣) فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكِ، فَإِذَا حَلَلْتِ فَآذِنِينِ، قَالَتْ: فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ (٤) وَأَبَا جَهْمٍ (٥) خَطَبَانِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»(٦) فَكَرِهْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «انْكِحِي أُسَامَةَ»، فَنَكَحْتُهُ، فَجَعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا، وَاغْتَبَطْتُ بِهِ**)**(٧)

١- سورة البقرة، الآية ٢٣٥

٢- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ٢٨٢/١

٣- ابن أم مكتوم الأعمى القرشي العامري هُوَ عَبْد اللَّهِ بْن قَيْس بْن مَالِك بْن الأصم، كَانَ قديم الإسلام بمكة وهاجر إِلَى المدينة، وكان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة يستخلفه عليها فِي أكثر غزواته، وَكَانَ يؤذن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع بلال، وشهد القادسية. يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٩٩٨،٩٩٧/٣ الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

٤- سبقت ترجمته في صفحة (١٨) هامش (٦)

٥- سبقت ترجمته في صفحة (١٩) هامش (١)

٦- الْحِبُّ بْنُ الْحِبِّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ شَرَاحِيلَ ابْنِ كَعْبٍ، كنيته أَبُو زَيْدٍ، وَقِيلَ: أَبُو يَزِيدَ، وَقِيلَ: أَبُو خَارِجَةَ، أَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَيْشِ مُؤْتَةَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، تُوُفِّيَ بِالْجُرُفِ، وَقِيلَ بِوَادِي الْقُرَى بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَحُمِلَ إِلَى الْمَدِينَةِ. أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة ٢٢٤/١ الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٧- أخرجه مسلم في صحيحه، باب الطلاق، ١١١٤/٢ برقم ١٤٨٠

ولننظر هنا إلى جمال القيم الإسلامية التي تراعي حرمة الميت وتحترم شعور الحيّ، فجعل للمتوفى عنها زوجها أجلاً لا تستطيع أن تتزوج قبل انقضائه، ويحرم عليها ذلك، وفي هذا مراعاة لحرمة الميت وما كان بينهما من عشرة ومودة، ومراعاة لمشاعر أهل الزوج.

كما أن الزوجة تعيش لحظات حزن على فراق زوجها، ولا ينبغي لهذه اللحظات أن تنقلب رأساً على عقب عندما يخطبها آخر بعد وفاة زوجها مباشرة، وكأنها قطعة من أثاث تنتقل من بيت إلى بيت في أي وقت، ودون مراعاة للمشاعر الإنسانية، بل جعل الإسلام لها ولزوجها المتوفى كرامة، وذلك عندما جعل لها عدة محدودة، لتستبرئ رحمها من زوجها المتوفى، وتبرد أحزانها وأحزان أهل زوجها ثم تكون أثناء عدتها قد تدرجت لقبول زوج آخر بعد انقضاء عدتها، ونهى الله عن المواعدة سراً، إلا أن يكون هناك قول معروف لا يخدش حياءً ولا يهتك ستراً، ثم التهديد بعد ذلك لمن تجاوز الحدود ولم يلتزم بالأمر الرباني **(واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه)**

٢-قال تعالى: **(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)** (١).

{ويذكر المفسرون لهذه الآية وما بعدها أسباباً لنزولها... ومن الأسباب التي يذكرونها... ما يروى من أن رسول الله ﷺ، حين أهديت له مارية القبطية (٢)، أدخلها ذات مرة حجرة زوجه، حفصة بنت عمر (٣)، وكانت حفصة غائبة، فلما جاءت، ووجدت

١- سورة التحريم، الآية ٣

٢- مارية القبطية مولاة رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأم ولده إِبْرَاهِيم، بنت شمعون، أهداها له المقوقس القبطي صاحب الإسكندرية ومصر، وتوفيت مارية فِي خلافة عُمَر بْن الْخَطَّابِ، وذلك فِي المحرم من سنة ست عشرة، وَكَانَ عمر يحشر الناس بنفسه لشهود جنازتها، وصلى عليها عمر، ودفنت بالبقيع. يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١٩١٢/٤

٣- حفصة بنت عمر بن الخطاب من بني عدي بن كعب، وكانت تحت خنيس بن حذافة السهمي، تزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وطلقها تطليقة ثم ارتجعها، أمره جبريل عليه السلام بذلك، توفيت حفصة في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين-وقيل غير ذلك-. عز الدين ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٦٧/٧ ، باب النساء ٦٨٥٢

النبي، ومارية في حجرتها، غضبت، وقالت فيما قالت للنبيّ: إنه ما اتخذ حجرتها مأوى لمارية، دون حجرات غيرها من نسائه، إلا لهوانها عليه} (١)

وهذا نوع من الغيرة عند حفصة رضي الله عنها {فأرضاها النبيّ الكريم، وحلف لها ألا يقرب مارية بعد هذا، وأوصاها ألا تتحدث بما كان إلى أحد من نسائه...ولكن الذي حدث، هو أن حفصة أذاعت هذا السر، وأفضت به إلى عائشة (٢)} (٣)

في هذه القصة درس عظيم للمجتمع المسلم عامة، وللنساء خاصة، كما أن فيه بيان لكيد النساء، وإن كان ذلك من أفضل نساء العالمين وهن بعض أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن، فعندما أسرّ النبي ﷺ الحديث إلى زوجه حفصة رضي الله عنها، وطلب منها ألّا تتحدث به لزوجاته الأخريات، فأقرت بذلك ثم خالفت وأخبرت به عائشة رضي الله عنهن أجمعين، وفي ذلك مخالفة لأمر رسول الله ﷺ، وفي ذلك إفشاء لسر من أسرار رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وقد كاد إفشاء السر أن يودي باستقرار البيت النبوي، وكاد رسول الله أن يفارق زوجاته، بل إنه هجرهن شهراً بقسم اليمين، وشاع في المجتمع أن رسول الله طلق أزواجه، فارتج المجتمع المسلم الفتيّ بهذه الشائعة، وظهر الحزن في بيت النبوة، وكل هذا بسبب إفشاء سر من الأسرار البيتية، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن طلق حفصة. (ولما أفشت حفصة رضي الله عنها سره ﷺ طلقها...، فجاءه جبريل عليه السلام يأمره بمراجعتها، لأنها صوامة قوامة، وإنها إحدى زوجاته ﷺ في الجنة.) (٤)

فما بالكم بالنسبة للزوجة التي لا تبقي من أسرار الزوجية شيئاً إلا وتفشيه لجاراتها أو لأهلها، ألا تستحق العقاب لتزدجر؟ فلتتقي الله كل زوجة مسلمة في أسرار زوجها

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٠٢٣/١٤

٢- عائشة بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن عثمان، ولدت سنة ٩ قبل الهجرة، وتوفيت سنة ٥٨ هجرية في المدينة، أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب، تكنى بأم عبدالله، تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحب نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه. الزركلي، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م

٣- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١٠٢٣/١٤

٤- علي الحلبي، أبو الفرج، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ٤٤٢/٣

وأسرار بيتها لا يخرج منه شيء إلا في حالة واحدة، إن كان في كتمان الأسرار مضرة عليها، أو على أحد من المسلمين، فحينئذ لا بد من إفشاء السر لمن يستطيع أن يحل المشكلة ويحول دون وقوع الضرر على أحد من المسلمين.

وهذا على صعيد البيت المسلم، فما بالكم بمن يفشي أسرار المجتمع والدولة والجيش، فيتسبب بالهزيمة وخسران أموال الدولة، وربما موت الكثير أو القليل من المسلمين؟ ألا يستحق عقوبة رادعة لمن خلفه، قد تصل إلى الموت إن تسبب بموت أحد من المسلمين، أو الموت تعزيراً، أو ما يراه وليُّ الأمر مناسباً ورادعاً لغيره؟ وقد أشارت الآيات إشارة واضحة إلى مكانة الأسرار الزوجية، وخطورة إفشائها، وأثر ذلك على تماسك الأسرة واستقرارها.

تبدو هنا لطيفة، أنه عندما كانت المرأة غير متزوجة، حَرُمَ على الرجل أن يحدثها سراً ليحفظ عرضها من كلام الناس، وعندما تزوجها، حَرُمَ عليها أن تفشي سره، حتى لا يخوض في عرضه الناس، فسبحان الله، قد صانها الرجل في بداية الأمر فصانته في ختامه.

وخلاصة القول في هاتين الآيتين فيما يتعلق بالسرّية أنها بينت لنا حرمة مواعدة النساء سراً حفاظاً على الأعراض وحرماتها وصيانة لها كما بينت حرمة إفشاء الأسرار الزوجية وخطورتها على الأسرة والمجتمع.

ثالثاً: السرّية في الصدقة والإنفاق.

١-قال تعالى: **(الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{قوله: "الذين ينفقون أموالهم" إلى قوله:"ولا هم يحزنون"، هؤلاء أهلُ الجنة، ذكر لنا

١- سورة البقرة، الآية ٢٧٤

أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: (المكثِرون هم الأسفلون). قالوا: يا نبيّ الله إلا مَنْ؟ قال: المكثرون هم الأسفلون، قالوا: يا نبيّ الله إلا مَنْ؟ قال: المكثرون هم الأسفلون. قالوا: يا نبيّ الله، إلا مَنْ؟ حتى خشوا أن تكون قد مَضَت فليس لها رَدّ، حتى قال: "إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله، وهكذا بين يديه، وهكذا خلفه، وقليلٌ ما هُمْ(١) } (٢).

ففي هذه الآية مدح لأصحاب الأموال الذين ينفقونها في سبيل الله بطرق متعددة وأوقات مختلفة، ولا يضيرهم عطاء في سبيل الله، موقنون بأن ما عند الله خير لهم، وأن الله وعدهم بالعطاء المقابل فقال عز من قائل: **(وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه)** (٣)، وقال عليه الصلاة والسلام: (ما نقصت صدقة من مال) (٤)، وقال أيضاً (أنفق يا ابن آدم ينفق عليك) (٥) والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكلها بشريات للمنفقين، بالعطاء الرباني المتجدد المبارك فيه، وبالأجر والمثوبة ورفع الدرجات.

فيا أصحاب الأموال، ومن يكنزون الكنوز وكثير من أمة الإسلام جائع، عريان، لا مأوى له ولا علاج، شعوباً بأكملها تجتاحها المجاعة، أو يفتك بها داء الكوليرا، وأغنياء الأمة ينظرون إلى معاناة هؤلاء المسلمين، ولا يرف لهم طرف، فأين تذهبون من بطش الله سبحانه القائل: **(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ)** (٦)

وقول الحبيب ﷺ في هذا المقام: (أيما أهل عرصة ظلّ فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله) (٧).

١- أخرجه أحمد في مسنده، تحت عنوان مسند أبي هريرة رضي الله عنه. ٣٢٣،٣٢٢/١٥، برقم ٩٥٢٦، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م

٢- الطبري، جامع البيان، ٦٠٢/٥

٣- سورة سبأ، الآية ٣٩

٤- صحيح مسلم، باب استحباب العفو والتواضع، ٢٠٠١/٤، رقم ٢٥٨٨

٥- صحيح البخاري، باب فضل النفقة على الأهل، ٦٢/٧، رقم ٥٣٥٢

٦- سورة براءة، الآية ٣٥،٣٤

٧- أخرجه ابن أبي شيبة في الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ٣٠٢/٤، رقم ٢٠٣٩٦، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض الطبعة الأولى، ١٤٠٩

وإن استطعت أن تخفي أعمالك وطاعاتك عن خلق الله فافعل، وحسبك بعلم اللطيف الخبير.

١- قال تعالى: **(وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)** (١).

قال المفسر رحمه الله:

{{وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أَيْ: عَلَى الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِنْفَاقُ لَهُمْ مِنْ زَوْجَاتٍ وَقَرَابَاتٍ وَأَجَانِبَ، مِنْ فُقَرَاءَ وَمَحَاوِيجَ وَمَسَاكِينَ، {سِرًّا وَعَلَانِيَةً} أَيْ: فِي السِّرِّ وَالْجَهْرِ، لَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَالٌ مِنَ الْأَحْوَالِ، فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} أَيْ: يَدْفَعُونَ الْقَبِيحَ بِالْحَسَنِ، فَإِذَا آذَاهُمْ أَحَدٌ قَابَلُوهُ بِالْجَمِيلِ صَبْرًا وَاحْتِمَالًا وَصَفْحًا وَعَفْوًا**}** (٢).

نعم فإن الجهر والسر في علم الله سواء، والأمة الإسلامية أمة أخلاق، فهم ينفقون من أموالهم في السر فلا يعلم ذلك إلا الله، وفي العلن ليكونوا قدوة لغيرهم فيتأسّى بهم في العطاء غيرهم، ومن كمال أخلاقهم أنهم لا يردون على الإساءة والأذى بمثلها، وإن كان ذلك من حقهم، إمتثالاً لقوله تعالى: **(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)** (٣)، إلا أنهم يستكبرون على الباطل ويستعلون بالحق رغبة فيما عند الله لمن عفا وأصلح رجاء أن يعفو الله عنهم ويصلح أحوالهم.

٢- قال تعالى: **(قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)** (٤).

١- سورة الرعد، الآية ٢٢

٢- ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ٤٥١/٤، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

٣- سورة الشورى، الآية ٤٠

٤- سورة إبراهيم، الآية ٣١

يقول المفسر رحمه الله:

{قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أضاف عباده إلى نفسه تشريفاً لهم، ووصفهم بأعلى أوصافهم وهو الإيمان يُقِيمُوا الصَّلاةَ بالمحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يدخل في ذلك أداء الزكوات، والنفقة على القربات...وإخفاء التطوع أفضل، وإعلان الواجب أفضل، إلا لمصلحة في الحالتين مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ هو يوم القيامة لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ...فالخلال المخالة أي الصداقة**}**(١)

وقد تحدثت آيتا سورة الرعد عن استواء السر والجهر في علم الله وسواء كان ذلك في الليل أو النهار، وعن الذين يصبرون على الأذى رجاء ما عند الله سبحانه من المثوبة، والذين يقيمون الصلاة، وينفقوا من أموالهم الحلال، سراً وعلانية، ويقابلون السيئة بالحسنة، وهذه الآية تشترك مع آيتي سورة الرعد في إقامة الصلاة، وفي الإنفاق في السر والعلن، إلا أنها تذكرنا بضرورة التعجل في الإتيان بهذه الأعمال قبل أن يأتي يوم القيامة حيث لا بيع ولا شراء ولا فدية وفي هذا تحذير مبطن لمن يؤخر هذه الأعمال، فاعتبروا يا أولي الألباب.

٣- قال تعالى: **(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)**(٢).

يقول المفسر رحمه الله:

{أَيْ: يُنْفِقُ مِنْهُ فِي حَالِ السِّرِّ وَحَالِ الْجَهْرِ وَالْمُرَادُ بَيَانُ عُمُومِ الْإِنْفَاقِ لِلْأَوْقَاتِ، وَتَقْدِيمُ السِّرِّ عَلَى الْجَهْرِ مُشْعِرٌ بِفَضِيلَتِهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الثَّوَابَ فِيهِ أَكْثَرُ**}** (٣).

وهذا العبد يتقلب في الإنفاق بين حال السر والجهر، وكلا الحالتين عند الله في العلم سواء، أأنفق في السر أو الجهر، ليلاً أو نهاراً، فالله لا يخفى عليه شيء ولا حال.

١- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، الجزء ٥/٢٨١٠

٢- سورة النحل، الآية ٧٥

٣- الشوكاني، فتح القدير، ٣/٢١٧، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ

٤- قال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{إِن الَّذين يَتلون**}** يقرءُون **{**كِتَابَ الله**}** الْقُرْآن أَبُو بكر (٢) وَأَصْحَابه **{**وَأَقَامُواْ الصَّلَاة**}** أَتموا الصَّلَوَات الْخمس **{**وَأَنفَقُواْ**}** تصدقوا **{**مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**}** أعطيناهم من الْأَمْوَال **{**سِرّاً**}** فِيمَا بَينهم وَبَين الله **{**وَعَلاَنِيَةً**}** فِيمَا بَينهم وَبَين النَّاس **{**يَرْجُونَ تِجَارَةً**}** يَعْنِي الْجنَّة **{**لَّن تَبُورَ**}** لن تهْلك وَلنْ تفْسد (٣).

هؤلاء الناس أنفقوا من أموالهم وأخفوا أفعالهم، فحق على الله أن يكرمهم يوم القيامة بما هو أهله، وبفعل يحاكي فعلهم، فقد أخفوا عن الخلق شيئاً، وسيخفي الله لهم عن الخلق يوم القيامة أشياءً، سيخفي الله سيئاتهم عن خلقه، ويسترها عن الخلائق، ويغفرها لهم، فما أعظمك ربي، وما أعظم مكافأتك!

وخلاصة القول فيما يتعلق بالسرّية في هذه الآيات، أنها بينت سواسية السر والعلن في علم الله، وأن الله يتجاوز عن مكنونات النفس، ولا يحاسب عليها ما لم تتحول إلى قول أو نية بقصد فعل، كما بيَّن مكانة المنفقين في سبيل الله في السر والعلانية. وبينت لنا علم الله المطلق في السر والجهر في الليل أو النهار، وأرشدت العباد إلى التجارة الرابحة والتي لا تتعرض لخسارة أبداً، وهي العبادات، وخص منها تلاوة القرآن والصلاة والإنفاق في السر والعلن.

رابعاً: إسرار النفاق وإسرار الندامة.

١- قال تعالى: **(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ)** (٤).

١- سورة فاطر، الآية ٢٩

٢- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٣- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، صفحة ٣٦٧، ينسب: لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ

٤- سورة المائدة، الآية ٥٢

يقول المفسر رحمه الله:

{وقولـه تعـالى: «فَعَسَـى اللَّهُ أَنْ يَـأْتِيَ بِـالْفَتْحِ أَوْ أَمْـرٍ مِـنْ عِنْـدِهِ فَيُصْـبِحُوا عَلَـى مـا أَسَـرُّوا فِـي أَنْفُسِـهِمْ نـادِمِينَ» هـو وعيـد للمنـافقين بمـا يمـلأ قلـوبهم حسـرة ونـدماً، إذ جـاء تـدبيرهم وبـالاً علـيهم وخسـراناً لهـم، حـين قـدّروا أن الـدائرة سـتدور علـى المـؤمنين، فـأخلوا مكانهم من بينهم... ثم هو وعد كريم من الله، يجـيء بتلك البشريات المسعدة للمؤمنين، وبـأنهم هـم المنتصـرون، وأن الخـزي والخـذلان لأعـدائهم، ولمـن انضـوى إلـيهم مـن منافقين**}**(١) وفضل الله على أصحاب الدعوات عظيم ونصره للصابرين قريب.

{«فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ» الذي يمكّن للمؤمنين من أعدائهم، وقد جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً فدالت دولة الشرك، وذهبت ريح النفاق والمنافقين. وقوله تعالى: «أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ» أي تدبير من عند الله، يجيء على غير انتظار، وعلى غير عمل من المؤمنين، كأن يوقع الشقاق والخلاف بين أحلاف السوء ومجتمع الضلال، فيفضح بعضهم بعضاً، ويخذل بعضهم بعضاً.**}** (٢)

فعليك أيها الداعية الثبات على الحق وستأتيك البشريات من الله من حيث لا تدري.

{وحمل هذا الوعد الكريم من الله للمؤمنين على يدي فعل الرجاء «عسى» إنما ليقيم المسلمين على رجاء وأمل في رحمة الله بهم...فتظل قلوبهم شاخصة إلى الله، ذاكرة له، ترقب غيوث رحمته...وقوله تعالى: «فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ» هو عرض لتلك النهاية التي ينتهي إليها أمر هؤلاء المنافقين، وما يؤول إليه عاقبة مكرهم وتدبيرهم... إنه الندم والحسرة والخسران.**}** (٣).

فهذه الآية الكريمة تتحدث عن المنافقين ممثلين برأسهم عبدالله بن أبيّ بن سلول(٤) الذي أظهر موالاته للمسلمين وتمسك بمواليه من اليهود الذين خانوا الله ورسوله

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١١١٦/٣

٢- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١١١٦/٣

٣- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١١١٧/٣

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٣٤) هامش (٢)

من بني قينقاع، حين حاصرهم رسول الله ﷺ ونزلوا على حكمه، فجاء رأس النفاق عبدالله بن أبيّ بن سلول يشفع لهم عند النبيّ عليه الصلاة والسلام.

{أَنَّ بَنِيَ قَيْنُقَاعَ كَانُوا أَوَّلَ يَهُودَ نَقَضُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَارَبُوا مِنْهَا بَيْنَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ. فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَمْكَنَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ**}** (١)

فهذا زعيم المنافقين يطالب النبي عليه الصلاة والسلام أن يحسن في اليهود الذين نقضوا العهد مع المسلمين.

{فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيَّ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْسِلْنِي»، وَغَضِبَ حَتَّى رُئِيَ لِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظِلَالٌ، فَقَالَ لَهُ: «وَيْحَكَ أَرْسِلْنِي». فَقَالَ: وَاللهِ لَا أُرْسِلُكَ حَتَّى تُحْسِنَ فِي مَوَالِيَّ ... وَاللهِ إِنِّي لَامْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُمْ لَكَ»**}** (٢)

وهذا حال من يتولى أعداء الله على حساب المؤمنين، فإن الله مظهرٌ خبث نفسه، وفاضحه على رؤوس الأشهاد في الدنيا قبل الآخرة، ومخزيه بنصر المؤمنين، حتى يتفطر قلبه ندماً وحسداً وألماً لما حلّ بمشروعه من الانكشاف والتعري، وكيف باء بالخزي والعار، فلا ينفعه ما كان يخفيه من حقد دفين على الإسلام والمسلمين، فقد أظهر الله له ما ينفطر به كبده من نصر للإسلام وإعزاز للمسلمين.

ويا للأسف فقد كان في زمن النبوة جسم واحد للنفاق والمنافقين، واليوم لهم أجسام عديدة ورؤوس لا حد لها ولا عدّ في جسم أمتنا الإسلامية، ينخرون فيها الفساد والظلم والتآمر على مصالح هذه الأمة، ولكن الله منجز وعده بلا شك، وأن الله مخزي الكافرين

١- أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة، ١٧٤/٣، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٢- أبو بكر البيهقي، مصدر سابق، ١٧٤/٣

والمنافقين، وناصر هذا الدين، رغم أنوفهم، شاء من شاء وأبى من أبى، فإلى ذلك الحين، وما هو عنا ببعيد، يا أمتي خذي بأسباب النصر حتى يأتي موعده، ولا تركني للذين ظلموا ونافقوا وكانوا لأمتهم أعداءً.

٢-قال تعالى: **(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ أي كفرت أو أشركت أي ولو أن لكل نفس ظالمة ما فِي الْأَرْضِ أي ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها لَافْتَدَتْ بِهِ أي لجعلته فدية لها، فافتدوا الآن أنفسكم إذن وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ أسروا من الأضداد وعلى هذا فتحتمل هنا أنهم يظهرون الندامة، وتحتمل أنهم يخفونها عجزاً عن النطق لشدة الأمر وهوله وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أي بين الخلائق بِالْقِسْطِ أي بالعدل وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ شيئاً.**}** (٢)

في ذاك اليوم الرهيب العصيب، يظن المجرمون أنهم قادرون على أن يفعلوا فعلهم في الدنيا، فيقدمون الهدايا والرشى للمسئول أو القاضي، فيخرجون من أي مشكلة وقعوا فيها، أو من أي ظلم ظلموه وذلك بتقديم أموالهم بالباطل للحكام الظالمين، فتنقلب الموازين ويصبح الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً، فتضيع الحقوق على أصحابها، ويخرج المجرم منتصراً، رافعاً رأسه، ويخرج المظلوم منكساً رأسه ليرفعه إلى قاضي السماء طالباً حقه وإنصافه، فيقول الحق سبحانه: **(**وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**)** (٣)

عند ذلك الحين يسقط في أيدي المجرمين الظالمين ولا يستطيعون تقديم المال ولو ملكوا الدنيا وما فيها، فلا يقبل منهم عدل ولا فدية، فالقاضي هو العدل الذي لا تضيع عنده الحقوق وإن كانت مثقال ذرة، وليخش الظالم والمجرم من ذلك اليوم، وليوقن أن الحقوق ستعود إلى أصحابها، ولْيَتُب إلى الله، وليتحلل من المظالم قبل ألّا يكون درهم ولا دينار، فلا يكون إلا الحسنات أو شَوْيَهُ بالنار والعياذ بالله.

١-سورة يونس، الآية ٥٤.

٢- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، ٢٤٧٦/٥

٣- صحيح ابن حبان، باب الأدعية، ذكر البيان بأن دعوة المظلوم تستجاب له لا محالة، وإن أتى عليها البرهة من الدهر، ١٥٨/٣، رقم٨٧٤

٣-قال تعالى: **(وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{وَقالَ الأتباع الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لم يكن إضلالكم وتغريركم علينا منحصراً في الصد والذب باللسان والأركان بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ...وليس مخصوصاً بوقت دون وقت لأنكم رؤساء بيننا أصحاب الثروة والجاه فينا فتخدعون بنا قولاً وفعلاً وقد مالت قلوبنا إلى ما أنتم عليه إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وبتوحيده وننكر رسله وكتبه وَنَجْعَلَ لَهُ أي نثبت ونعتقد لله الواحد الأحد الصمد المنزه عن الشريك مطلقًا**}** (٢)

وهذا لن يغني عنهم شيئاً، قد خلق الله لهم عقولاً فما استعملوها، ويتابع المفسر قوله: **{**أَنْداداً شركاء معه سبحانه في استحقاق العبادة والإطاعة والتوجه والرجوع في مطلق الخطوب والمهام وَبالجملة هم قد أَسَرُّوا أي أظهروا أو أخفوا النَّدامَةَ على ما قد فات عنهم يعنى لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ النازل عليهم بشؤم ما صدر عنهم في النشأة الأولى أظهروا الندامة تحسراً وتحزناً أو أخفوها مخافة التعيير والتقريع...**}** (٣)

وهذا هو مصير من يسير وفق هوى الظالمين في الدنيا، فيحققون من خلاله مآربهم، ويبيع دينه بعرض من الدنيا، بل يبيع دينه بدنيا غيره، ونتيجة ذلك يوم القيامة حسرة وندامة حيث لا مكان لها ولا نفع، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وخلاصة القول في هذه الآيات فيما يتعلق بالسرّية أنها فضحت المنافقين وما أسروه في الدنيا على رؤوس الأشهاد، وبينت مصيرهم يوم القيامة بما أسرّوه في الدنيا، وأظهرت الحسرة والندامة على وجوه الكافرين والمنافقين جميعاً حيث لا ينفع الندم، ولا يستطيعوا حينها إخفاء شيء أو إسراره عن الله.

١- سورة سبأ، الآية ٣٣

٢- نعمة الله النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، ١٧٧/٢، الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

٣- نعمة الله النخجواني، مصدر سابق، ١٧٧/٢

خامساً: الأسرار في البضاعة والتجارة.

١-قال تعالى: **(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{وهنا تلوح «سيّارة» أي جماعة من المسافرين، يمرّون بالجبّ ويحطّون رحالهم على مقربة منه، ليستقوا، ولتستقى دوابّهم، ثم ليتزودوا بما يقدرون على حمله من الماء...وفى كلمات قليلة موحية معجزة، تطوى الأحداث طياً، فلا تعرض منها إلا تلك الشواهد التي تقوم منها معالم مضيئة، تتحرك بها أحداث القصة إلى نهايتها...«وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً» أي أخفوه في أمتعتهم، وجعلوه بضاعة من بضاعتهم**}** (٢)

ليبيعوه في سوق العبيد، ويتابع المفسر قوله: **{**هكذا كان حكم من يقع من الآدميين حينئذ، في يد من يظفرون به في حرب أو سلم!. «وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ» ... هكذا جاءت السيارة كما قدّر أبناء يعقوب...لأن الجبّ على طريق يصل بين الشام ومصر، ويكثر عليه مرور القوافل المسافرة... في ذلك كلّه، ما يوحى بأن القافلة في غفلة تامة عن هذا الإنسان الذي في الجبّ، يعالج سكرات الموت، وهي التي يسوقها القدر إليه، لتنقذه**}** (٣)

سبحان من لا يغفل عن عباده، ساق إليه هذه القافلة لتنقذه من الهلاك، ويواصل المفسر تفسيره قائلاً: **{**وحطّت- القافلة- رحالها- بعد لأي- على مقربة من الجب، وجعلت تعالج في تثاقل أمتعتها، وتسوى رحالها، وتهيئ لها منزلاً آمناً تجد فيه الراحة في ظله...«فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ» ليرد الماء، وليستقى لهم منه... والوارد، هو الذي يرد الماء. «قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ» ... لقد جاء الدلو الذي أدلاه في الجبّ بما لم يكن يتوقع أبداً... جاءه بالغلام الذي كان ملقى فيه**}** (٤)

ومن جميل أقدار الله ليوسف عليه السلام، أن أرسل هذه القافلة في هذا الوقت تحديداً، لتنقذ يوسف عليه السلام، ليبدأ سيره تجاه المجد والمسؤولية، ولكن قدر الله أن

١- سورة يوسف، الآية ١٩

٢- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٢٤٧/٦

٣- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١٢٤٨/٦

٤- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ١٢٤٨/٦

تكون أولى المراحل في طريقه مرحلة العبودية والرق. ويختم المفسر قوله:
{وفى قوله تعالى: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ» ... إشارة إلى أن هذا الذي يعملونه هو ما يقع في علمه سبحانه وتعالى، وأنه- جل شأنه- غير غافل عما يحدث ليوسف} (١)

ومعلوم أن التجارة ذات أسرار، وأن التجار لا يكشفون أسرار تجارتهم ولا أسباب نجاحها، وكذلك فعلت هذه السيارة فقد كانوا تجاراً ويفهم هذا من قوله تعالى (وأسروه بضاعة) وغالباً ما تكون البضاعة للتجار ومن مثلهم ممن يحاول التجارة، فقد أخفوه ليكسبوا المال من بيعه، واعتبروه شيئاً من بضاعتهم، وأخفوا شأنه حتى لا ينكشف سرهم وتذهب أرباحهم أو يشاركهم فيها غيرهم.

وخلاصة القول في هذه الآية فيما يتعلق بالسرّية أن كيد الأقربين أشد وقعاً على النفس، وأن الكيد والحسد والتلفيق يكون دائماً للشخص الناجح، وبينت سعة صدر الداعية في مواجهة من حوله.
وكما قال الشاعر:
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة...على المرء من وقع الحسام المهند (٢)

سادساً: الإسرار في الدعوة وفي ردّ الأذية.
١-قال تعالى: **(قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)** (٣).

يقول المفسر رحمه الله:

{أَيِ اقْتَدَى بِأَخِيهِ، وَلَوِ اقْتَدَى بِنَا مَا سَرَقَ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِيَبْرَءُوا مِنْ فِعْلِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أُمِّهِمْ، وَأَنَّهُ إِنْ سَرَقَ فَقَدْ جَذَبَهُ عِرْقُ أَخِيهِ السَّارِقِ، لِأَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الْأَنْسَابِ يُشَاكِلُ فِي الْأَخْلَاقِ. وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي السَّرِقَةِ الَّتِي نَسَبُوا إِلَى يُوسُفَ، فَرُوِيَ...أَنَّ عَمَّةَ

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ١٢٤٨/٦

٢- طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، صفحة ٢٧، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة الثالثة، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

٣- سورة يوسف، الآية ٧٧

يُوسُفَ بِنْتَ إِسْحَاقَ كَانَتْ أَكْبَرَ مِنْ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ صَارَتْ إِلَيْهَا مِنْطَقَةُ إِسْحَاقَ لِسِنِّهَا، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِالسِّنِّ...وَكَانَ مَنْ سَرَقَ اسْتُعْبِدَ} (١)

وهذا من الأمور الكيدية التي في نفوسهم له، ويتابع المفسر ويبين لنا قصة السرقة التي اتهموه بها فيقول:

{وَكَانَتْ عَمَّةُ يُوسُفَ حَضَنَتْهُ وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ وَشَبَّ قَالَ لَهَا يَعْقُوبُ: سَلِّمِي يُوسُفَ إِلَيَّ، فَلَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ يَغِيبَ عَنِّي سَاعَةً، فَوَلِعَتْ بِهِ، وَأَشْفَقَتْ مِنْ فِرَاقِهِ، فَقَالَتْ لَهُ: دَعْهُ عِنْدِي أَيَّامًا أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا يَعْقُوبُ عَمَدَتْ إِلَى مِنْطَقَةِ إِسْحَاقَ، فَحَزَّمَتْهَا عَلَى يُوسُفَ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لَقَدْ فَقَدْتُ مِنْطَقَةَ إِسْحَاقَ، فَانْظُرُوا مَنْ أَخَذَهَا} (٢)

قد دبرت عمته هذه الحيلة لاستبقائه عندها، ويتابع المفسر فيقول:

{فَوُجِدَتْ مَعَ يُوسُفَ. فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ لِي سِلْمٌ أَصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ، ثُمَّ أَتَاهَا يَعْقُوبُ فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ لَهَا: أَنْتِ وَذَلِكَ، إِنْ كَانَ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ سِلْمٌ لَكِ، فَأَمْسَكَتْهُ حَتَّى مَاتَتْ، فَبِذَلِكَ عَيَّرَهُ إِخْوَتُهُ فِي قَوْلِهِمْ: " إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ" وَمِنْ هَاهُنَا تَعَلَّمَ يُوسُفُ وَضْعَ السِّقَايَةِ فِي رَحْلِ أَخِيهِ كَمَا عَمِلَتْ بِهِ عَمَّتُهُ.} (٣)

وتَعَلَّم يوسف عليه السلام الالتفاف على القانون من عمته، وأنقل آخر قول للمفسر هنا:

{وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ (٤): إِنَّمَا أَمَرَتْهُ أَنْ يَسْرِقَ صَنَمًا كَانَ لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ، فَسَرَقَهُ وَكَسَرَهُ وَأَلْقَاهُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُمَا تَغْيِيرًا للمنكر، فرموه بالسرقة وعيروه بها، وقاله قَتَادَةُ (٥)... أَنَّهُ كَانَ صَنَمُ ذَهَبٍ.} (٦)، وهناك أقوال أخرى لا مقام لذكرها هنا.

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٩/٩

٢- القرطبي، مصدر سابق، ٢٣٩/٩

٣- القرطبي، مصدر سابق، ٢٣٩/٩

٤- سعيد بن جبير الوالبي مولاهم أبو محمد وأبو عبد الله أحد الاعلام عن بن عباس قتل في شعبان شهيدا ٩٥هـ. شمس الدين الذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ٤٣٣/١ الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – مؤسسة علوم القرآن، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م

٥- سبقت ترجمته في صفحة (٣٢) هامش (٣)

٦- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٣٩/٩

الله أكبر ما أشد جهل كثير من الناس بربهم، ألا يعلمون أنه العليم الخبير؟ ألا يعلمون أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ ألا يعلمون أنه يعلم السر وأخفى؟ ألا يعلمون أنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟

وأظن أن بعض الذين يقعون في الخطأ يعلمون ذلك كله، ولكنها لحظة غفلة عن الله وعلمه ورقابته، يظنون أنهم بإخفائهم الفعل عن البشر فإنهم يخفونه عن الله وهذا جهل منهم وشدة غفلة عن الله وقدرته، فعندما كذب إخوان يوسف على أبيهم، وأخفوا شنيع فعلهم، والله به عليم، وعندما اتهموه بالسرقة ليبرؤوا أنفسهم، ولم يردّ عليهم يوسف الإساءة بل كتمها في نفسه، وكشف الله كذبهم، وأظهر فعلهم، مما اضطرهم إلى الاعتذار والاعتراف بخطيئتهم وطلب المغفرة من أبيهم وأخيهم ليصفحا عنهم من أجل أن يغفر الله لهم.

٢-قال تعالى: **(ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)** (١).

يقول المفسر رحمه الله:

{(ثم إني أعلنت لهم) أي دعوتهم معلناً لهم بالدعاء (وأسررت لهم) الدعوة (إسراراً) كثيراً قيل المعنى أنه يدعو الرجل بعد الرجل يكلمه سراً فيما بينه وبينه، والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، فلم ينجح ذلك فيهم، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يبتدئ بالأهون ثم بالأشد فالأشد، قال مجاهد معنى أعلنت صحت، وقيل معنى أسررت أتيتهم في منازلهم فدعوتهم فيها.**}** (٢)

وفي منهج نوح عليه السلام (٣) درس وهداية وتوجيه لكل داعية، أن يتبع أساليب مختلفة ومتنوعة في دعوته للناس، ومخالطته لهم بكل الوسائل الحسنة، من الزيارة والتهنئة والتبريك ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم وأن يحنوا عليهم ويكون في خدمتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن خدمة الناس من أفضل العبادات، ورسول الله ﷺ يقول:

١- سورة نوح، الآية ٩

٢- أبو الطيب محمد صديق القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، ٣٣٤/١٤، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت، ١٤١٢هـ، بدون طبعة

٣- للتوسع، أنظر صفحة ١٤٤

(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومَن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربةً، فرج الله عنه كربةً مِن كربات يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا، ستره الله يوم القيامة) (١)

فمن منا لا يحتاج أن يفرّج الله عنه من كربات يوم القيامة، ومن منا لا يحتاج أن يستره الله يوم القيامة، وكلنا عورات وذنوب، وستر هذه العورات وتفريج الكربات يكون بمَشْيِك في حاجات المسلمين، ومساعدتك لهم، والداعية بحاجة أن يكون قدوة للناس، فهو كالثوب الأبيض الذي تظهر عليه أقل درجات السواد والاتساخ، فليحرص الداعية على نصاعة سيرته، سريرته وعلانيته، وليتفانى في خدمة الناس حتى يحبه الناس فيتبعوه.

وخلاصة القول في هذه الآيات فيما يتعلق بالسرّية أنها بينت أخلاق الدعاة وسعة صدورهم في احتمال أذى المدعويين وبينت كثرة طرق الدعوة وتنوعها واختلاف أحوالها وأساليبها وعلى الداعية أن يصبر وينوع من أساليبه فيدعو سراً وجهراًحسب ما تقتضيه الحاجة وحسب حال المدعو.

سابعاً: إسرار المودة للكافرين–(والنهي عنها)

١–قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)** (٢).

قال المفسر رحمه الله:

{وقوله: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ أي بالنصيحة وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ أي من المودة للكفار وَما أَعْلَنْتُمْ أي أظهرتم بألسنتكم منها وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ أي الإسرار وإلقاء المودة إليهم فقال: فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ أي أخطأ طريق الهدى.**}** (٣)

١– سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (٢)

٢– سورة الممتحنة، الآية ١

٣– علاء الدين علي بن محمد، المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ٢٨٠/٤، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

فكيف يا أمة محمد تسرون المودة لأهل الكفر وقد ناصبوكم العداء؟ وهم يمكرون بكم ليل نهار، فسواء عند الله أأسررتم المودة أم أعلنتموها، أكانت مكتوبة أم مسموعة، أكانت في جلسات وحوارات سرية أم على وسائل الإعلام، أكانت معلومة للشعوب أم عنهم خافية، كل ذلك معلوم عند الله وفي صحائفكم منقوش، وتلقونه غداً عند بارئكم تحاسبون عليه، فإن أنكرتم وهذا شأنكم، فحينئذ عليكم تشهد الأعضاء وقد خرست ألسنتكم، فويل حينها لكم.

وخلاصة القول في هذه الآية فيما يتعلق بالسرّية أنها أرشدتنا إلى عدم محبة الأعداء وعدم موالاتهم وهم من كفروا بمحمد ﷺ وبالدعوة، وعدم إسرار المودة للكفار في قلوب المسلمين فالله أعلم بهم، وبينت أن من يفعل ذلك من المودة أو الموالاة (١) أنه في طريق الضلال.

١- الْمُوَالَاةُ ضِدُّ الْمُعَادَاةِ، أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، صفحة ٣٤٥

المبحث الثاني

في هذا المبحث ستتضح أهمية السرّية والأخذ بها في المحافظة على الفرد والمجتمع.

أهمية السرّية في الاستقرار والسلامة للمجتمع على مستوى الجماعة والفرد.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى وجعل اقتدائنا به عبادة، فقد قال الله تبارك وتعالى: **(لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)** (١)، فمن أراد الله سبحانه وتعالى، وما يحبه الله، ويرجو ما عند الله، فليتخذ رسول الله ﷺ قدوة، وما أجملها من قدوة وأجلّها، ومما علّمنا إياه رسول الله ﷺ أسلوب الدعوة عندما تكون في مهدها، ولم يشتد عودها، فلا تستطيع دفع الأذى عن نفسها ولا عن أتباعها، فقد بدأ دعوته العظيمة سراً، ولم يعلن عنها إلا عندما أمره الله بذلك وبعد أن أصبح لها أتباع يستطيعون حمل الدعوة واحتمال الأذى في سبيلها.

{كان رسول الله ﷺ في هذه الفترة يجتمع بالمؤمنين سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم (٢) الذي دخل في الإسلام أيضاً، وكان الرسول يتلو عليهم ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم، ويعلمهم من أحكام الدين وشرائعه ما كان ينزل حينئذ.**}** (٣) إذ لا بد للقائد من اللقاءات المستمرة مع جنده وأتباعه لتزداد الثقة بينه وبين جنده وليخبرهم بكل جديد بشأن دعوتهم.

{إن دعوة الإصلاح إذا كانت غريبة على معتقدات الجمهور وعقليته، ينبغي ألا يجهر بها الداعية حتى يؤمن بها عدد يضحون في سبيلها بالغالي والرخيص، حتى إذا

١- سورة الأحزاب، الآية ٢١

٢- الأرقم بن عبد مناة بن أسد بن عبد الله بن مخزوم، يكنى أبا عبد الله. قديم الإسلام، في داره كان النبي -ﷺ- يدعو إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير منهم عمر بن الخطاب. توفي في المدينة سنة خمس وخمسين وهو ابن بضع وثمانين سنة. خليفة بن خياط، طبقات خليفة بن خياط، صفحة ٥٤، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م

٣- مصطفى السباعي، السيرة النبوية – دروس وعبر، صفحة ٤٧، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م

نال صاحب الدعوة أذى، قام أتباعه المؤمنون بدعوته بواجب الدعوة، فيضمن بذلك استمرارها.} (١)

وقد كان رسول الله ﷺ يجتمع بأصحابه سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم ويتلوا عليهم القرآن، وكانت مركزاً سرياً للدعوة وهذا من ضرورات المرحلة، ومن بصيرة القائد اختار عليه الصلاة والسلام تلك الدار.

{لا بد للمحافظة على سرية التنظيم من اختيار مركز سري بعيد عن الأعين يتم فيه اللقاء بين الجنود مع بعضهم، وبين القيادة وجنودها، بحيث لا تعرفه استخبارات العدو} (٢)

وكانت دار الأرقم بعيدة عن أنظار قريش، وذلك لأن رسول الله ﷺ كان يبالغ في الأخذ بالسرية والكتمان في بداية الدعوة {وكانت التعمية والمبالغة في السرية كفيلة أن تموه الأمر على قريش} (٣).

عندما هاجر ﷺ، كذلك كانت هجرته سراً، وفي وقت لا يفطن إليه أحد وقلما يخرج الناس فيه، فالجو حار ومزعج، ومع ذلك فقد اختار الوقت بعناية حتى لا يشك في حركته أحد، وجاء إلى أبي بكر (٤) رضي الله عنه في وقت لم يعتد أبو بكر على مجيئه فيه.

{كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ، إمَّا بُكْرَةً، وَإِمَّا عَشِيَّةً، حَتَّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أُذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِهِ، أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ، فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا. قَالَتْ: فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السَّاعَةَ إلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ.} (٥)

١- مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، صفحة ٤٩

٢- منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ٤٨/١

٣- منير الغضبان، مصدر سابق، ٤٩/١

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٥- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ٤٨٥/١، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م

وهذا من حنكته ﷺ، واختياره الوقت الذي لا يلفت الانتباه، وبالكاد يتحرك ويخرج فيه أحد من الناس.

{قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ، تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ (١) عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَا وَأُخْتِي أَسَمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ (٢) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وَمَا ذَاكَ؟ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي! فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ. قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الصُّحْبَة.**}** (٣)

هذا فعل رسول الله ﷺ، وفعله قدوة، ولذا لابد لكل داعية فرد أن يكون للسرية مكان مكين في حياته وتصرفاته ودعوته للآخرين، لاسيما في عصرنا الحالي الذي يحارب فيه الدعاة إلى الله ويمجد فيه الفاسق، ويتحدث فيه التافه في أمر العامة، ويُخَوَّن فيه الأمين، ويستأمن فيه الخؤون، ويلاحق فيه المجاهدون، ويودع السجون أحرار الأمة، لابد من تفعيل منهج ومبدأ السرّية في عمل الداعية ليحفظه الله من سوء الظالمين، حتى يصل إلى هدفه أو يهلك دونه ويفوز بالشهادة، هذا على مستوى الفرد، فهي حافظة له بإذن ربه ودرع حصين.

واستمر العمل في جوانب خاصة ملفوفاً بالسرّية إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا من متطلبات القوة والسيطرة وبسط النفوذ للدولة وسلامة أمن من يعمل في مهمات خاصة مثل الجواسيس الذين تزرعهم الدولة في دولة أخرى لتزويدها بما يتوصل إليه من معلومات مهمة ومخفية عن العلن (٤)، ولن يستغني العالم أفراداً أو دولاً وجماعات عن السرّية لحظة ما، فقد حفظ الله بالسرّية رسوله الكريم كفرد،

١- سبقت ترجمته في صفح (٤٥) هامش (٤)

٢- أسماء بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قُحَافَة عثمان بن عامر آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة، وهي أخت عائشة لأبيها، وأم عبد الله بن الزبير. توفيت بمكة، سنة ٧٣ هجرية وسميت (ذات النطاقين) لأنها صنعت للنّبيّ صلّى عليه وسلّم طعاماً حين هاجر إلى المدينة، فلم تجد ما تشده به، فشقت نطاقها وشدت به الطعام. الزركلي، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م

٣- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، ٤٨٥/١

٤- للتوسع راجع قصة الجاسوس (الإسرائيلي) صفحة ١٣٠

وحفظت الجماعة عندما حفظ الله بها قائدها، فالتقى بجماعته وأقام دولة الإسلام، وسلم القائد والفرد والجماعة، واستقر المجتمع وأمن من فتنة ظالميه حينها، وانطلق به القائد نحو المجد الشامخ.

صور من القرآن لحفظ الفرد والجماعة بالسرّية:

من الصور التي تبرز أمامنا جلية في القرآن قصة موسى عليه السلام، فقد حفظه الله بصمت أمه ومحافظتها على سرّه، إلى أن أعاده الله إليها، لتتيقن من صدق وعد الله لها، ولتزداد على السر محافظة.

أولاً: قصة موسى عليه السلام.

{وأوحينا إلىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ. وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.} (١)

فهذه من أروع قصص القرآن، قصة طفل لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، لا يستطيع أهله حمايته، والموت يحيط به من كل جانب، يكاد يدركه في كل لحظة، ولكن لهذا الطفل عند الله شأن عظيم، فالله سبحانه يريد أن يهيئه لأمر جلل، يهيؤه الله تعالى للنبوة، ولقيادة بني إسرائيل المضطهدين، فماذا حصل؟

{ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة! وقالت لأخته: قصيه ... اتبعي أثره، واعرفي خبره، إن كان حياً، أو أكلته دواب البحر أو وحوش البر... أو أين مقره ومرساه؟ وذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية، وتتلمس خبره في الطرق والأسواق. فإذا بها

١- سورة القصص، الآيات ٧-١٣

تعرف أين ساقته القدرة التي ترعاه؛ وتبصر به عن بعد في أيدي خدم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع} (١)

يقول المفسر رحمه الله:

{«وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ... فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» وبدلاً من أن كانت أم موسى على وشك أن تطرق باب فرعون، وتستصرخ هناك، فإنها- وقد ربط الله على قلبها- قد رجعت إلى صوابها، وأخذت تنظر إلى الأمور بعين الحكمة والروية، فطلبت إلى ابنتها أن تتحسس أخباره من بعيد، وأن تتسمع ما يتحدث به المتحدثون من حاشية فرعون من أمر هذا الوليد الذي التقطوه} (٢)

وقد ثبت الله قلبها حتى لا يُفتضحُ الأمر ويهلك المولود.

ويتابع المفسر قوله:

{وتسللت الأخت في خفّة ولطف، تحوم حول بيت فرعون، ولا تلمّ به، وتلتقط الأخبار المتساقطة من أفواه القوم، ولا تستخبرهم عنها...حتى لا يفتضح أمرها، وأمر الوليد معها... وفي قوله تعالى: «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» إعجاز من إعجاز النظم القرآني، الذي تشخّص فيه الكلمة ألطف المعاني وأرقها، فإذا شعاعات هذا النور، كيان شاخص، يمسك باليد، ويصور بالعين!.} (٣)

وحصلت على المعلومة التي تطمئن قلب الأم والأخت معاً دون إثارة شكوك حولها.

ويتابع المفسر:

{ففي كلمة «بصرت» نرى أن قلب تلك الأخت كان أمام عينيها، فلم تبحث عن أخيها، بعينيها، ولم تتسمع أخباره بأذنيها، وإنما كانت كياناً من الحذر والحيطة، بحيث تقرأ الحركات والإشارات، وتتأول الرموز والألغاز...فالبصر هنا، بصر علم، أقرب ما يكون إلى الإلهام... وفي كلمة: «عَنْ جُنُبٍ» - إشارة إلى الموقف الذي كانت تأخذه هذه الأخت من موقع الحدث...} (٤)

١- سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٦٨٠/٥

٢- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ٣١٧/١٠

٣- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ٣١٧/١٠

٤- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ٣١٧/١٠

نعم، قد جعلت السرّية والكتمان لها عنواناً في كل تصرفاتها فنجحت وإلى هدفها وصلت. ويتابع المفسر:

{إنها لم تكن تلقى الأمر لقاء مواجهاً، وإنما كانت تلقاه عرضاً، كأنه من غير قصد! وفي قوله: «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» تصفية هذا الموقف، المحاذر، المجانب، من أن يدخل عليه ما يدخل على موقف كثير من المحاذرين المجانبين من أخطاء، لا يلتفتون إليها، ولا يعملون حساباً لها، فتكون سبباً في كشف أمرهم، وفضح سترهم**}** (١)

نعم هذه الأخت لموسى لم تدرس السرّية وطرق البحث والتخفي وتشتيت الأنظار من حولها في مدرسة عسكرية، أو ملحقية أمنية، إنما قادتها فطرتها السليمة، وحرصها النابع من قلب الأم والأخت الملهوفتان على وليد العائلة، تخشيان عليه من الهلاك بيد الظالمين، أو بوحش من وحوش البر أو البحر، فهما لا يعلمان مصير الوليد بعد أن أُلقي في النهر، فكانت الأخت مثالاً لتتبع الحريص الذكي لهدفه دون أن يشعر بها أحد، فوصلت لهدفها وحصلت على المعلومة التي تريد، والتي تفرح قلب الأم الذي كاد ينفطر.

فلولا أنها طبقت السرّية والتزمت بما يستر أمرها، لكانت النتيجة مفجعة، إذاً لمات الوليد، إلا أن موقف الأم كان فيه القليل من الاختلاف عن موقف الأخت، فقلب الأم لا شك أنه مختلف، وقد كادت أن تصرخ بأعلى صوتها أن هذا الطفل الذي في النهر هو طفلي، ولو حصل ذلك لكان هلاك الطفل أمراً واقعاً لا لبس فيه، ولكن الله جلّ في علاه ربط على قلبها لتصبر على الفراق قليلاً، ولتكون الفرحة بعد ذلك أعظم، فالتزمت السرّية ولم تبح بذلك السر الخطير الذي سيؤدي لموت وليدها.

من هذه القصة نرى ونعقل أن السرّية كانت سبب نجاة نبي الله موسى عليه السلام من هلاك محتوم، فحفظ الله بها نبيّه للمهمة التي من أجلها كانت كل هذه القصة بأحداثها العظيمة، حيث أن موسى تربّى ونشأ نشأة ملوكية في قصر فرعون، وفرعون لا يدري ما يدور في قصره، وأن هذا الطفل الذي أنقذوه من الهلاك هو نفسه الذي سيقوض الله عرش فرعون بيده، وهذا هو تدبير الله ومكره، فأين تدبير ومكر الظالمين منه!

١- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ٣١٧/١٠

كذلك من القصص التي تبرز أمامنا في القرآن العظيم قصة أصحاب الكهف، هؤلاء الفتية الذين فروا بدينهم من السلطة الجائرة، فخلّد الله ذكرهم وجعله عبادة.

ثانياً: قصة أصحاب الكهف.

(وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا.) (١)

يقول المفسر يرحمه الله:

{وينتقل المنظر من الكهف إلى المدينة... وإذا رسول الجماعة يسعى هناك، مقتصداً في مشيته، مكثراً من التلفّت التائه في هذا العالم الغريب، الذي يراه كما يرى النائم حلماً يطوّف به في عالم غير عالمه الذي عاش فيه! وفجأة ينكشف أمر الرجل لأهل المدينة، وإذا هو ظاهرة غريبة، أشبه بالظواهر الكونية التي تبغت الناس... والذي انكشف للقوم من غرابة الرجل، هو غرابة هيئته في زيّه**}** (٢)

هنا تبرز مسألة مهمة لمن أراد أن يعمل في بيئة غير بيئته في عمل محاط بالسرية أن يتزيّا بزيّ المحيط، حتى لا يكون شاذاً في لباسه فيتم اكتشاف أمره، أما النقود فقد أصبح العالم اليوم يتعامل بكل أنواع النقود.

ويتابع المفسر قائلاً:

{ثم إن الذي نمّ عليه كذلك، هو هذا النقد الذي قدّمه ليشترى به طعاماً...فالزّى الذي يتزيّا به الرجل قديم، من زمن مضى لا يلتقي مع زىّ القوم في هذا الوقت الذي طلع عليهم فيه، إذ أن الناس يستحدثون في كل زمن زيّاً غير زىّ الآباء والأجداد، وكذلك النقد الذي يتعاملون به، إنه يأخذ صوراً وأشكالاً في كل عصر...وبهذا الزىّ، وهذا النقد... افتضح أمر الرجل للقوم، وبدا واضحاً أنه من عالم غريب عنهم...**}** (٣)

قد أخفى هؤلاء الشباب أنفسهم عن العيون ابتداءً، وتصرفوا بحنكة، وأخفوا أمرهم، وكتموا سرهم، كما قام رسولهم بالتخفي ولم يظهر شخصيته، وقد تواصو بينهم أن يتلطف

١- سورة الكهف، الآية ١٩

٢- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ٦٠٣/٨

٣- عبد الكريم الخطيب، مصدر سابق، ٦٠٣/٨

رسولهم ويقوم بما يستطيع حتى يحافظوا على سرهم ولا يفتضح أمرهم فيهلكوا، وليستطيع أن يأخذ حاجتهم دون لفت الأنظار، وهكذا لزاماً على كل مجاهد ومناضل يريد أن يحقق هدفه بأقل الخسائر أن يتكتم على شخصيته، وإمكاناته وأساليبه، وأن يبتعد عن عيون السلطة الظالمة، وأن يتصرف بما لا يثير الريبة والشكوك حوله في المجتمع الذي يعيش فيه حتى يحقق هدفه ويصل إلى الاستقرار.

مما سبق نرى جلياً كيف أن السرّية والتستر عن العيون الظالمة قد حمت هذه الجماعة أو هذه الثلة المؤمنة من الهلاك، فكانوا كما أراد الله لهم، دليلاً على قدرة الله المطلقة في الإحياء والإماتة والبعث بعد الموت، ودليلاً على أن الله قادر على أن يوقف تأثير الزمن على أناس ويجريه على آخرين في نفس الوقت، فهاهم الفتية وقد ناموا زمناً طويلاً، ولم تتغير أشكالهم ولا شابت شعورهم، ولا تجعدت جلودهم، بينما تغيرت أحوال قومهم، فسبحان الله الذي لا حدّ لقدرته.

والخلاصة هنا أن السرّية هي حاضنة حافظة لأمن الفرد والجماعة، وحافظة للدعوات وأتباعها، وحافظة للقيادات، وأصحاب الرسالات، محققة للأهداف بأقل الخسائر، جالبة للنصر بإذن الله فإن لم يكن النصر فتكون قد حافظت على الكيان من الهلاك أو الدمار، وجاءت بأقل الأضرار.

الفصل الثالث

في هذا الفصل سيكون الحديث عن ممارسة السرّية والكتمان في حياة النبيّ عليه الصلاة والسلام، وفي حياة أصحابه الكرام، كما سأذكر صفات أمين السر، والتدريب على الكتمان، وكذلك الإيجابيات والسلبيات لهذا الموضوع، ثم يكون الحديث عن نماذج من السرّية والكتمان في العصر الحديث والعصر القديم.

السرّية والكتمان في السنة النبوية، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول:

في هذا المبحث نتعلم من رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام كيف مارس السرية والكتمان في مناحي حياته.

السرّية والكتمان في حياة النبيّ ﷺ.

أولاً: السرّية في الدعوة.

بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالحق نبياً، مبشراً، ومنقذاً، وهادياً، ومعلماً الخير للبشرية وما يصلح شأنها في دينها ودنياها، فجاء منهجه خير المناهج، ورسالته خاتمة الرسالات، وعلم الأمة فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها.

جاء محمد ﷺ بهذا الدين من عند رب العالمين، وجعل الله أقواله ﷺ وأفعاله وصمته سنة لنا نقتفي بها أثره ونقتدي بفعاله، ويأجرنا الله تعالى على ذلك، والحديث هنا في جانب من جوانب أقواله وسلوكه ﷺ، وهو جانب السرّية والكتمان في حياته الشريفة، وإذا نظرنا إلى سيرته ﷺ، وجدناها مفعمة بالأحداث التي تعلمنا أهمية السرّية والكتمان، فهناك نماذج كثيرة في حياة رسول الله ﷺ ما أجمل أن نتذكرها ونتذاكرها في مثل هذه الظروف العصيبة التي تمر بها الأمة، فقد بدأ رسول الله ﷺ دعوته سراً، وكتم أمرها عن المجتمع، بل عن بعض أقرب الأقربين، فكان يدعو بصورة فردية من يتوسم فيه الإجابة، ويُعلِمُ من لا يستجيب له أن يكتم عنه، كي لا ينتشر الأمر قبل أن يأذن الله له بالجهر، فيكون ذلك الهلاك لهذه الدعوة في مهدها وقبل أن يشتد عودها ويمكّن لها.

{ولو درسنا سيرته ﷺ وتدبرناها لوجدنا أن هذا الرسول الكريم كان يخطط لكل عمل يريد أن يقوم به، فيختار الوقت المناسب، والظرف المناسب، والمكان المناسب، والرفيق المناسب، ويفرغ جهده في التخطيط والأخذ بالأسباب ثم يدع النتائج إلى الله عزّ وجلّ**}**(١)

وفي انتقائه واختياره لأصناف الذين يدعوهم كان يعتمد السرّية والكتمان، وهذه قصة علي رضي الله عنه:

{ثم إن علي بن أبي طالب (٢) جاء بعد ذلك بيومين فوجدهما يصليان، فقال عليّ: ما هذا يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، وإلى عبادته، وكفر باللات والعزى**}** (٣)

هنا رأى علي شيئاً جديداً لم يألفه فتسائل، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه لم يهضم الفكرة، وأراد أن يستشير في ذلك، فنهاه رسول الله ﷺ.

{فقال له رسول الله ﷺ: تشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد، ففعل علي وأسلم، ومكث علي يأتيه ... وكتم علي إسلامه ولم يظهر به.**}** (٤)

هذا نموذج من حياته الدعوية، فقد كان يدعو سراً، وينتقي من الناس من يتوقع أن يؤمن به، وقد بدأ الدعوة فيمن تربطه بهم قرابة أو صداقة. ولنرى نموذجاً آخر من حياته، وذلك في هجرته مع صديقه أبي بكر الصديق (٥) حين أذن الله له بالهجرة.

ثانيا: السرّية في الهجرة.

هنا أحاول أن أعيش مع هجرته عليه الصلاة والسلام وإعداداته لها واحتياطاته التي اتخذها:

١- محمد أبو فارس، المدرسة النبوية العسكرية، صفحة ٩١، الناشر دار الفرقان-عمّان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م

٢- سبقت ترجمته في صفحة (١٤) هامش (٤)

٣- ابن إسحاق، السير والمغازي، صفحة ١٣٧

٤- ابن إسحاق، مصدر سابق، صفحة ١٣٧

٥- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

{عَنْ عَائِشَةَ (١) أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لَا يُخْطِئُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ النَّهَارِ، إمَّا بُكْرَةً، وَإِمَّا عَشِيَّةً، حَتَّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أُذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَيْ قَوْمِهِ، أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ، فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا. قَالَتْ: فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السَّاعَةَ إلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ.**}** (٢)

هذه فراسة أبي بكر رضي الله عنه، علم أن مجيئه في هذا الوقت من ورائه أمر كبير، وغير عاديّ، ثم إن هذا حسن تدبير من رسول الله ﷺ في اختيار الوقت الذي لا ينتبه له أحد. واعتاد فيه الناس أن يلزموا بيوتهم لقساوة الجو بحرارته التي تلفح الوجوه.

{قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ، تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ (٣) عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إلَّا أَنَا وَأُخْتِي أَسَمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ (٤) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وَمَا ذَاكَ؟ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي! فَقَالَ: إنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ. قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الصُّحْبَة.**}** (٥)

هي السرّية والكتمان يطبقهما رسول الله ﷺ، كما هو الشوق من أبي بكر رضي الله عنه لرفقة الرسول الكريم في طريق الهجرة، وما أجملها من رفقة، وحق لأبي بكر أن يحرص عليها ويشتاق.

١- سبقت ترجمتها في صفحة (٦٧) هامش (٢)

٢- أبو القاسم السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية ١٨١/٤ الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ

٣- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٤- سبقت ترجمتها في صفحة (٨٥) هامش (٢)

٥- أبو القاسم السهيلي، مصدر سابق ١٨١/٤

{وَلَمْ يَعْلَمْ فِيمَا بَلَغَنِي، بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ، حَيْنَ خَرَجَ، إِلَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (١)، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (٢)، وَآلُ أَبِي بَكْرٍ} (٣)

هؤلاء النفر الذين علموا بهجرة رسول الله ﷺ، قد كان لكل واحد منهم دور في المحافظة على السرّية والكتمان وحفظ أمن رسول الله ﷺ في هجرته، فقد كان علي بن أبي طالب الفدائيّ الذي نام في فراش رسول الله ﷺ حين أراد الخروج من مكة، وقد ترك معه الأمانات القرشية التي كانت بحوزة الرسول ﷺ ليردها إلى أصحابها وقال له:

{نم على فراشي وتسجّ ببردى هذا الحضرميّ الْأَخْضَرِ، فَنَمْ فِيهِ، فَإِنّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْك شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مِنْهُمْ} (٤)

وكان عليٌّ بفعله قد حافظ على عهد رسول الله ﷺ أن يمسه قول سوء من أهل مكة فأعاد إليهم ودائعهم وأماناتهم التي كانوا وضعوها عند رسول الله ﷺ.

{أَمَاعَلِيّ فَإِنّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا بَلَغَنِي- أَخْبَرَهُ بِخُرُوجِهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَخَلّفَ بَعْدَهُ بِمَكّةَ، حَتّى يُؤَدّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَدَائِعَ، الّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنّاسِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَيْسَ بِمَكّة أَحَدٌ عِنْدَهُ شَيْءٌ يُخْشَى عَلَيْهِ إلّا وَضَعَهُ عِنْدَهُ، لِمَا يُعْلَمُ مِنْ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ صَلّى اللهُ عليه وسلم.} (٥)

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد كان له شأن آخر،{وقد أعد أبو بكر رضي الله عنه جهازه وجهاز رسول الله ﷺ، منتظراً حتى يأذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في الخروج فلما كانت ليلة همّ المشركون بالفتك برسول الله ﷺ، وأرصدوا على الباب أقواماً، إذا خرج عليهم قتلوه، فلما خرج عليهم لم يره منهم أحد، وقد جاء في حديث أنه ذرّ على رأس كل واحد منهم تراباً ثم خلص إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه} (٦)

١- سبقت ترجمته في صفحة (١٤) هامش (٢)

٢- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٣- أبو القاسم السهلي، مصدر سابق، ١٨٢/٤

٤- أبو القاسم السهيلي، مصدر سابق، ١٧٨/٤

٥- أبو القاسم السهيلي، مصدر سابق، ١٨٢/٤

٦- ابن كثير الدمشقي، الفصول في السيرة، صفحة ١١٤، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ

{فخرجا من خوخة (١) في دار أبي بكر ليلاً، وقد استأجرا عبد الله بن أريقط (٢)، وكان هادياً خريتاً، ماهراً بالدلالة إلى أرض المدينة، وأمناه على ذلك مع أنه كان على دين قومه، وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث، فلما حصلا في الغار عمى الله على قريش خبرهما، فلم يدروا أين ذهبا.**}** (٣)

وكان لآل أبي بكر في الهجرة شأن عظيم، فمنهم من حافظ على الأمن الغذائي لرسول الله ﷺ في الهجرة، ومنهم من حافظ على أمنه وسلامته في محو آثار من يقومون بالتزويد الغذائي حتى لا يجرّموا أمام قريش بدعمهم للإرهاب آنذاك، ومنهم من يأتيه بأخبار قريش، ليبقى على علم بما يفعلون.

{وَأمر أَبُو بكر (٤) ابْنه عَبْد اللَّهِ أَن يتسمع مَا يَقُول النَّاس، وَأمر مَوْلَاهُ عَامر بْن فهَيْرَة (٥) أَن يرْعَى غنمه ويريحها عَلَيْهِمَا لَيْلًا، ليَأْخُذ مِنْهَا حاجتهما. ثمَّ نهضا فدخلا الْغَار، وَكَانَت أَسمَاء بنت أبي بكر (٦) تأتيهما بِالطَّعَامِ، ويأتيهما عَبْد اللَّهِ بْن أبي بكر(٧) بالأخبار، ثمَّ يتلوهما عَامر بْن فهَيْرَة بالغنم فيعفي آثارهما.**}** (٨)

١- الْخَوْخَةُ: كَوَّةٌ فِي الْجِدَارِ تُؤَدِّي الضَّوْءَ. أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، باب الخاء، صفحة ٩٨

٢- عبد الله بن أريقط، الليثي، ثم الدّيلي، دليل النّبي صلى الله عليه وسلّم وأبي بكر لما هاجرا إلى المدينة، وأنه كان على دين قومه، لم يعرف له إسلاماً. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٥/٤

٣- ابن كثير الدمشقي، الفصول في السيرة ، صفحة ١١٤

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٥- عامر بْن فهيرة، مولى أَبِي بكر الصديق، يكنى أبا عمرو. من السابقين إِلَى الإسلام، اشتراه أَبُو بكر، فأعتقه، كان في الهجرة مع النبي وصاحبه، ويروح بالغنم عليهما ليحتلباها، ويعفي آثار عبد الله بن أبي بكر، شهد بدرًا، وأحدًا، وقتل يَوْم بئر معونة، سنة أربع من الهجرة، وهو ابن أربعين سنة. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٣٤/٣

٦- سبقت ترجمتها في صفحة (٨٥) هامش (٢)

٧- هو عبد الله بن عبد الله، بن عثمان بن أبي بكر الصديق، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بأخبار قريش وهو غلام شابّ فطن، فكان يبيت عندهما ويخرج من السحر فيصبح مع قريش. مات قبل أبيه. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٢٤/٤

٨- النمري، الحافظ بن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، صفحة ٨١ الناشر: دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ

فهذا فريق أمن وحماية للشخصيات المهاجرة متكامل الأدوار، وعندما وصل رسول الله إلى المدينة: {أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى المَدِينَةِ وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ شَيْخٌ يُعْرَفُ، وَنَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَابٌّ لاَ يُعْرَفُ، قَالَ: فَيَلْقَى الرَّجُلُ أَبَا بَكْرٍ فَيَقُولُ يَا أَبَا بَكْرٍ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ؟ فَيَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ، قَالَ: فَيَحْسِبُ الحَاسِبُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي الطَّرِيقَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الخَيْرِ} (١) وقد فهم أبو بكر معنى السرّية والكتمان، فتعامل مع السائل بالتورية، ولعله كان ما زال يخشى على النبي ﷺ في تلك اللحظة.

فهذه هجرة رسول الله ﷺ، تعلمنا الكثير من الدروس في مجال السرّية والكتمان، اللذان أديا إلى حفظ حياة النبيّ ﷺ، والّذي أدى إلى حفظ المجتمع المسلم عندما وصلت إليه قيادته بسلام وتأسست دولة الإسلام واستقرت، وقوله عليه الصلاة والسلام: (اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ) (٢)، فقوله (إنجاح) يعني الوصول إلى الهدف، وقوله (الحوائج) (٣) وهي جمع حاجة، وتشمل كل ما في حياة المسلم، فالتجارة، والربح، والسعادة، والصحة، والغنى، والذرية، والزواج...الخ، كلها حاجات للمسلم، إما حسية، وإما معنوية، وكلها تحتاج السرّية والكتمان لنجاحها، وهو أمر أساسي لحماية المجتمع المسلم بأفراده وهيئاته.

ثالثاً: السرّية في الحياة الاجتماعية.

جاء رسول الله ﷺ للبشرية بالخير كله، فما ترك شيئاً فيه صلاح للفرد أو الجماعة إلا علمنا إيّاه وأخبرنا عنه، وذلك في جميع مناحي الحياة البشرية، فعلى مستوى العلاقة بين الرجل وزوجه، ولتستمر الحياة الزوجية وتحقق الهدف المنشود منها، علمنا الأدب في المعاشرة الزوجية وحفظ أسرارها، فقال عليه الصلاة والسلام: (إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها) (٤)

١- أخرجه البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، ٦٢/٥ برقم ٣٩١١

٢- سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (١)

٣- أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، باب الحاء صفحة ٨٤

٤- سبق تخريجه في صفحة (١٣) هامش (٣)

فقد جعل الإسلام للحياة الزوجية رونقاً وخصوصية، وأخلاقاً عالية فاضلة يتعامل بها الزوجان، وأن ما بينهما لابد من صيانته والمحافظة عليه فلا يخرج من بينهما لأي سبب من الأسباب إلا ما يسمح به الشرع.

{ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة فقيل له ما الذي يريبك فيها فقال العاقل لا يهتك ستر امرأته فلما طلقها قيل له لم طلقتها فقال مالي ولامرأة غيري**}** (١)

وقد ذُكِرَت الرواية أيضا في مجلة مجمع الفقه الإسلامي، **{**جاء في أخبار بعض أهل الفضل أنه سُئِل عن حال زوجة له كان قد طلقها فتزوجت بعده، فلما سئل عنها قال: **(**ما لي ولزوجة غيري؟**)** والمراد بما يكتم هنا تفاصيل ما يقع بين الزوجين في خلوتهما**}** (٢)، وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالتستر على المسلمين وحفظ أسرارهم وعوراتهم وعدم إذاعة ما نعرفه عنهم من تقصير أو أخطاء وقعوا فيها على علمنا، فأخلاق المسلم لا تسمح له بذلك الفعل علاوة على أنه يطمح لستر الله عليه يوم القيامة، فلا يفضح أخطائه، ويسترها عليه كما ستر هذا العبد على عباد الله في الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)** (٣)

وهذا أحد كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، هو حذيفة بن اليمان (٤)، جعله رسول الله ﷺ أميناً لسره، فأخبره بأسماء المنافقين، ومع أنهم منافقون إلا أنه رضي الله عنه لم يخبر أحداً بأسمائهم ولم ينشرها، وبقي لسر رسول الله ﷺ حافظاً.

١- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب آداب النكاح ٥٦/٢، الناشر: دار المعرفة – بيروت، بدون طبعة أو تاريخ

٢- منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، باب أخلاقيات الطبيب، ومسؤوليته ١١٤١/٨، بدون طبعة وبدون تاريخ

٣- سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (٢)

٤- هو أبو عبدالله حذيفة بن اليمان بن جابر، وُلِدَ في مكة، كان أمين سر رسول الله ﷺ، ولاه عمر على المدائن ومات فيها سنة ست وثلاثين للهجرة. يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٣٣٤/١-٣٣٥

{وَكَانَ أسر إِلَيْهِ أَسمَاء الْمُنَافِقين فَكَانَ عمر يسْأَله عَنْهُم وَهُوَ مَعْرُوف فِي الصَّحَابَة بِصَاحِب السِّرّ وَكَانَ عمر (١) فِي خِلَافَته ينظر إِلَيْهِ عِنْد موت من يَمُوت فَإِن لم يشْهد جنَازَته حُذَيْفَة لم يشهدها عمر} (٢)

وإن كان هذا من الأمانة فلا بد من المحافظة عليها، فلا تنشر لأحد ولا تؤدى لغير أهلها، حتى لا يتصف من فرط فيها ونشرها بأن فيه خصلة وصفة من النفاق، قال ﷺ: (ثلاث مَن كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: مَن إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان) (٣)

وحتى لا يوصف بالخيانة، فإنه من فرط في الأمانة خان، ولا شك أن المحافظة على أسرار المسلمين تزيد من روابط المودة والمحبة وتقوي عرى الأخوة وتزيد الثقة بين الإخوان، والذي يحافظ على سر صاحبه لا بد أنه له محب، وإلا لما استطاع أن يكتم هذا السر، علماً أن السر يعتبر من الأمور الثقيلة على النفس، ولا يستطيع الحفاظ عليه إلا كل ذي ثقة وعزيمة.

وقد علمنا رسول الله ﷺ أدباً من الآداب التي تزيد المحبة والمودة بين المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: (إذا حدَّثَ الرَّجلُ بالحديثِ ثمَّ التفتَ فَهي أمانةٌ) (٤)

من صفات أمين السر:

١-الأمانة؛ قال ﷺ: (إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، لا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره) (٥)

٢- الكتمان؛ وهذه صفة يتمتع بها قليل من الناس وهي أساسية في أمين السر.

١- سبقت ترجمته في صفحة (٤) هامش (١)

٢- جمال الدين ابن حديدة، المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ٨٧/١، الناشر: عالم الكتب – بيروت، بدون طبعة أو تاريخ.

٣- سبق تخريجه في صفحة (٣٢) هامش (٢)

٤- أخرجه أبو داود في سننه، باب في نقل الحديث، ٢٦٧/٤، برقم ٤٨٦٨

٥- سبق تخريجه في صفحة (١٦) هامش (٢)

قال الشاعر:

لا يكتم السر إلا من له شرف ... والسر عند كرام الناس مكتوم

السر عندي في بيت له غلق ... ضلت مفاتيحه والباب مختوم (١)

٣-الفطنة والذكاء؛ لننظر إلى فعل أمين سر رسول الله ﷺ (حذيفة) (٢) عندما كلفه بالذهاب إلى معسكر المشركين يوم الخندق، يقول: {فَأَقْبَلْت فَجَلَسْت عَلَى نَارٍ مَعَ قَوْمٍ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ (٣) فَقَالَ: احْذَرُوا الْجَوَاسِيسَ وَالْعُيُونَ، وَلْيَنْظُرْ كُلّ رَجُلٍ جَلِيسَهُ. قَالَ، فَالْتَفَتّ إلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (٤) فَقُلْت: مَنْ أَنْتَ؟ وَهُوَ عَنْ يَمِينِي. فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ. وَالْتَفَتّ إلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ (٥) فَقُلْت: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ} (٦)

٤- الصمت وعدم الثرثرة؛ قال ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت) (٧)

٥-الصبر وسعة الصدر؛ (إذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر، وتوصف به ضعفة الرجال والصبيان والنساء) (٨)

٦-الهدوء وبرودة الأعصاب؛ بحيث لا يستطيع أحد استفزازه فيخرج ما عنده في لحظة ضعف وليتذكر أنه أمين على السر وإخراجه من الخيانة.

١- القائل الحسين بن عبد الله، ابن حبان، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، باب ذكر الحث على لزوم كتمان السر، صفحة ١٩١ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت بدون طبعة وبدون تاريخ

٢- سبقت ترجمته صفحة (٩٧) هامش (٤)

٣- أَبُو سُفْيَان صخر بْن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي، ولد قبل الفيل بعشر سنين، وَكَانَ من أشراف قريش فِي الجاهلية، وَكَانَ تاجرا، أسلم أَبُو سُفْيَان يوم الفتح، مختلف في حسن إسلامه، مات سنة ثلاث وثلاثين وقيل غيرها، فِي خلافة عُثْمَان ودفن بالبقيع. يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٦٧٧/٤-١٦٨٠

٤- عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله: فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم، وأسلم في هدنة الحديبيّة، وولاه النبي ﷺ إمرة جيش " ذات السلاسل"، الزركلي، الأعلام، ٧٩/٥

٥- سبقت ترجمته في صفحة (١٨) هامش (٦)

٦- الواقدي، المغازي، ٤٨٩/٢، الناشر: دار الأعلمي – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٩٨٩/١٤٠٩.

٧- أخرجه البخاري في صحيحه، باب إكرام الضيف، ٣٢/٨، برقم ٦١٣٥

٨- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، كتمان السر صفحة ٢١٢، دار النشر: دار السلام – القاهرة ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م

التدريب على كتمان السر:

إذا أردنا ألّا يتسرب السر فلا بد لنا من أن نتبع الآتي من الخطوات:

١-أن نتخير الكتوم من الرجال، قليل الكلام، لنستودعه السر.

٢-أن نبيّن أهمية الكتمان، ونبيّن الأضرار العائدة على الفرد، أو الجماعة إذا تسربت الأسرار.

٣-أن نبتعد عن صحبة الثرثار، ونذكر دائماً بأمانة المجالس.

٤-الاقتصار على عدد قليل ما أمكن ذلك لحفظ الأسرار، فإن زيادة أعداد من يحملون الأسرار تؤدي إلى زيادة احتمالية تسريبها.

٥-بيان أن كتمان السر واجب شرعي، ويأثم من يفشي سراً، وإن أدى ذلك للكذب، فإن الكذب جائز لإخفاء أسرار الأمة، أو الهيئة، أو الفرد.

النواحي الإيجابية للسريّة والكتمان:

١-السمع والطاعة للتوجيه الرباني والإقتداء بمحمد ﷺ.

٢-سبب من أسباب النصر والتمكين.

٣-سبب من أسباب الاستقرار في حياة الفرد والمجتمع.

٤-تحميان من الكيد والحسد.

٥-سبب من أسباب النجاح وتحقيق الأهداف.

٦-سبب من أسباب حماية الذات والممتلكات.

٧-سبب من أسباب حماية الدعوة ونجاحها.

٨-السرّية والكتمان تؤديان إلى الصمت، والذي بدوره يؤدي إلى النجاة من العقاب في الدنيا والآخرة.

٩-تفريغ قاعدة بيانات الأعداء من المعلومات، فلا يعلمون ما في جعبته من المفاجآت، فيحسبون له كل حساب.

النواحي السلبية عند ترك السرّية والكتمان:

١- إهمال التوجيه الرباني، وعدم الإقتداء بمحمد ﷺ.

٢- سبب من أسباب الهزيمة.

٣- سبب من أسباب الاندثار.

٤- سبب من أسباب الكيد والحسد.

٥- سبب من أسباب الفشل وعدم الوصول إلى الأهداف.

٦- سبب من أسباب هلاك الذات والممتلكات.

٧- سبب من أسباب هلاك الدعوة واندثارها.

٨- عدم السرّية والكتمان تؤديان إلى الثرثرة، والتي تورث العقوبة في الدنيا والآخرة.
٩- يسقط من عين الأعداء، ولا يحسبون له حساب، فهو في نظرهم مثل صندوق زجاجي يُرى باطنه من ظاهره.

رابعاً: السرّية في الغزوات والحياة العسكرية.
علمنا رسول الله ﷺ فنون السرّية والكتمان، ومن فهم رسول الله ﷺ ومراعاته للسرية والكتمان وحفظ الأمن.

أ- سرية عبد الله بن جحش (١) رضي الله عنه
تمثل القمة في هذا الموضوع، فلا يعلم بوجهتها أحد.

{بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش
وبعث معه ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، لَيْسَ فِيهِمْ مِنَ الأَنْصَارِ أَحَدٌ، وَكتب لَهُ كِتَابًا، وَأَمَرَهُ أَنْ لا يَنْظُرَ فِيهِ حَتَّى يَسِيرَ يَوْمَيْنِ ثُمَّ يَنْظُرُ فِيهِ، فَيَمْضِي لِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَلا يَسْتَكْرِهُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ... فَلَمَّا سَارَ عَبْد اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ فَنَظَرَ فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ: «إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، فَتَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشًا، وَتَعْلَم لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ» فَلَمَّا نَظَرَ فِي الْكِتَابِ قَالَ: سَمْعًا وَطَاعَةً، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ لأَصْحَابِهِ، وَقَالَ: قَدْ نَهَانِي أَنْ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ، فَمَضَوْا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ أَحَدٌ**}** (٢)

وقد قام رسول الله ﷺ بهذا الفعل من منطلق السرّية والكتمان، وليحرم الأعداء من الحصول على المعلومة، لإنجاح المهمة، ولتصل السرّية إلى أهدافها، لأنها لو انكشفت معلومات الرسالة ربما لوصلت الأخبار إلى من يستطيع أن يفسد على القائد تخطيطه. كما أنه علَّم بهذا التصرف أصحابه درساً عملياً في السرّية والكتمان، وكان له السبق التاريخي في ابتكار هذه الطريقة لإخفاء الهدف وتعمية العيون، فبها يستطيع مباغتة العدو والانتصار عليه.

١- عبد الله بن جحش بن رياب، ابن يعمر الأسدي، هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً، كان أوّل أمير في الإسلام، دعا الله يوم أحد أن يرزقه الشهادة فقتل بها. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ٣١،٣٢/٤

٢- محمد أبو الفتح، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ٢٦٤/١، الناشر: دار القلم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤/١٩٩٣.

ب- سرية سالم بن عمير (١) إلى عفك:

والمجاهد عليه أن يخطط لعمله جيداً قبل تنفيذه حتى يصاحبه النجاح.

{إِنّ شَيْخًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَفَكٍ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، قَدْ بَلَغَ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ حِينَ قَدِمَ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، كَانَ يُحَرّضُ عَلَى عَدَاوَةِ النّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ.**}** (٢)

وكان الصحابة يبادرون إلى ما يحبه رسول الله ﷺ، فقال أحد الصحابة: **{**فَقَالَ سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَهُوَ أَحَدُ الْبَكّائِينَ مِنْ بَنِي النّجّارِ: عَلَيّ نَذْرٌ أَنْ أَقْتُلَ أَبَا عَفَكٍ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ. فَأَمْهَلَ فَطَلَبَ لَهُ غِرّةً، حَتّى كَانَتْ لَيْلَةٌ صَائِفَةٌ، فَنَامَ أَبُو عَفَكٍ بِالْفِنَاءِ فِي الصّيْفِ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَأَقْبَلَ سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ، فَوَضَعَ السّيْفَ عَلَى كَبِدِهِ حَتّى خَشّ فِي الْفِرَاشِ، وَصَاحَ عَدُوّ اللهِ فَثَابَ إلَيْهِ أُنَاسٌ مِمّنْ هُمْ عَلَى قَوْلِهِ، فَأَدْخَلُوهُ مَنْزِلَهُ وَقَبَرُوهُ. وَقَالُوا: مَنْ قَتَلَهُ؟ وَاَللهِ لَوْ نَعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ لَقَتَلْنَاهُ بِهِ**!}** (٣)

نعم، هكذا تنجح الأعمال، بالتخطيط، والإتقان، والسرّية، والكتمان، يصل المجاهد والعامل إلى هدفه بأمان، ونجاح دون خسران، فما أحوجنا إلى توجيه رسول الله ﷺ: **(**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**)** (٤)، وما أحوجنا إلى أن نصل إلى فهم أصحاب رسول الله ﷺ، لمعنى السرّية والكتمان، وكيف إذا أخذنا بها، وطبقناها في مناحي حياتنا، ستقودنا إلى قمة النجاح وتحقيق الأهداف والآمال بإذن الله رب العالمين.

ت- اغتيال كعب بن الأشرف

هذا كعب بن الأشرف (٥) اليهودي الحاقد على الحق وأهله يتمادى في النيل شتماً لمحمد ﷺ ويحرض المشركين على قتاله.

١- سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف، له ذكر في التنزيل. نزلت هذه الآية في سالم بن عمير وأصحابه: {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع}. ابن مندة، معرفة الصحابة، الناشر: مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، صفحة ٧٢٠

٢- أبو عبد الله الواقدي، المغازي، ١٧٤/١

٣- أبو عبد الله الواقدي، مصدر سابق، ١٧٥/١

٤- سبق تخريجه في صفحة (١٧) هامش (١)

٥- كعب بن الأشرف، وكان رجلاً من طيء، ثم أحد بني نبهان، وكانت أمه من بني النضير- وبعد هزيمة قريش في بدر- خرج حتى قدم مكة، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ، ثم شبب بنساء المسلمين، وكان شاعراً. سيرة ابن إسحاق صفحة ٣١٧

{قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ (١)، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، فَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ (٢) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَأْذَنْ لِي أَنْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ: «قُلْ»، فَأَتَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَنَا صَدَقَةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّانَا وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ، قَالَ: وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمَلُّنَّهُ، قَالَ: إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ، فَلاَ نُحِبُّ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ تُسْلِفَنَا وَسْقًا أَوْ وَسْقَيْنِ... فَقَالَ: نَعَمِ، ارْهَنُونِي، قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟} (٣)

إنها مهمة صعبة، لكن قد انبرى لها رجالها، لا يهابون الموت، يدافعون عن دين الله وعن أعراض المسلمين، واقتحموا الحصن على صاحبه بالدهاء وحسن التصرف وطلبوا منه شيئاً من الطعام.

{قَالَ: ارْهَنُونِي نِسَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا وَأَنْتَ أَجْمَلُ العَرَبِ، قَالَ: فَارْهَنُونِي أَبْنَاءَكُمْ، قَالُوا: كَيْفَ نَرْهَنُكَ أَبْنَاءَنَا، فَيُسَبُّ أَحَدُهُمْ، فَيُقَالُ: رُهِنَ بِوَسْقٍ أَوْ وَسْقَيْنِ، هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ...- يَعْنِي السِّلاَحَ - فَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ، فَجَاءَهُ لَيْلًا وَمَعَهُ أَبُو نَائِلَةَ (٤)، قَالَ: وَيُدْخِلُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مَعَهُ رَجُلَيْنِ} (٥)

لقد طلب ذلك الخبيث رهن النساء، وبكل وقاحة، وبدون حياء، فلما لم يوافقوه على طلبه الخبيث، طلب الأولاد، ثم بعدها رضي برهن السلاح، وكان به مقتله، ثمّ إنّ الفريق اتفق على كيفية تنفيذ القتل.

١- ترجمته في االصفحة السابقة

٢- محمد بن مسلمة بن سلمة بن عدي أبو عبد الله وأبو سعيد الأنصاري، ولد قبل البعثة باثنين وعشرين سنة، شهد بدراً وأحداً، والمشاهد كلها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلا تبوك ومات بالمدينة سنه (٤٦) أو (٤٧) وله (٧٧) سنة. إمتاع الأسماع للمقريزي ٢٩٢/٩، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، باب قتل كعب بن الأشرف، ٩٠/٥ برقم ٤٠٣٧

٤- اسمه سلكان بن سلامة بن وقش بن عبد الأشهل الأنصاري الأوسي، شهد أحداً وغيرها، وكان شاعراً، ومن الرماة المذكورين، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٣٣٦/٧،

٥- البخاري، مصدر سابق، باب قتل كعب بن الأشرف، ٩٠/٥ برقم ٤٠٣٧

{فَقَالَ (محمد بن مسلمة): إِذَا مَا جَاءَ فَإِنِّي قَائِلٌ بِشَعَرِهِ فَأَشَمُّهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمْكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ، فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ، وَقَالَ مَرَّةً: ثُمَّ أُشِمُّكُمْ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ مُتَوَشِّحًا وَهُوَ يَنْفَحُ مِنْهُ رِيحُ الطِّيبِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ رِيحًا، أَيْ أَطْيَبَ، ...فَقَالَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ رَأْسَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَشَمَّهُ ثُمَّ أَشَمَّ أَصْحَابَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي؟ قَالَ: نعَمْ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنَ مِنْهُ، قَالَ: دُونَكُمْ، فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ.} (١)

كان هذا التشكيل لهذه المجموعة محاطاً بالسرّية والكتمان، فاستطاعوا الوصول إلى هدفهم، وتحقيقه على أكمل وجه، ولولا السرّية والكتمان لما تمكنوا من الوصول إلى بغيتهم، وزاد من قوة موقفهم واطمئنان عدوهم لهم أنهم تكلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يروق لعدوهم وكانوا قد استأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك فأذن لهم.

ث- سرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص (٢) وقد سمّاها بعض أصحاب السِيَر ،غزوة

وينطلق أمير السرية بجنده تظلله السرّية والكتمان فيسير الليل ويتوارى في النهار.

{بَلَغَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنّ جَمْعًا... قَدْ تَجَمّعُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَدْنُوَا إلَى أَطْرَافِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدعا رسول الله ﷺ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فَعَقَدَ لَهُ لِوَاءً أَبْيَضَ، وَجَعَلَ مَعَهُ رَايَةً سَوْدَاءَ، وَبَعَثَهُ فِي سَرَاةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ... وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِمَنْ مَرّ بِهِ مِنْ الْعَرَبِ.... فَسَارَ، وَكَانَ يَكْمُنُ النّهَارَ وَيَسِيرُ اللّيْلَ، وَكَانَتْ مَعَهُ ثَلَاثُونَ فَرَسًا} (٣)

والشاهد هنا أن عمرو بن العاص رضي الله عنه، كان يسير الليل ويكمن النهار وما ذلك إلا ليخفي أخباره عن القوم، فلا تصلهم الأنباء، فيصل إليهم عمرو فيبغتهم، وينتصر عليهم، فيغنم منهم، وهو حريص على ألّا يصيبه أذى أو يصيب من معه من الجند، منطلقاً في فعله من مبدأ الأخذ بالسرّية والكتمان، لإنجاح المهمة التي أوكلت إليه من القائد الأعلى، رسول الله ﷺ، وقد أحسن فهم السرّية والكتمان فطبقهما، فكان له مراده بإذن الله.

١- أخرجه البخاري في صحيحه، باب قتل كعب بن الأشرف، ٥/٩٠ برقم ٤٠٣٧

٢- سبقت ترجمته في صفحة (٩٩) هامش (٤)

٣- الواقدي، المغازي، ٢/٧٧٠

ج- سَرِيَّةُ أَبِي قتادة بن ربعي (١) إلى خضرة:

وتتميز هذه السرية بكثرة غنائمها التي وزعت على المجاهدين.

{وَهِيَ أَرْضُ -قبيلة- مُحَارِبٍ بِنَجْدٍ، فِي شَعْبَانَ سنة ثمان.

قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة، ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان، وأمره أن يشنَّ عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار، فهجم على حاضر منهم عظيم، فأحاط به، فصرخ رجل منهم: يا خضرة! وقاتل منهم رجال، فقتلوا من أشراف لهم، واستاقوا النعم، فكانت الإبل مائتي بعير والغنم ألفي شاة، وسَبَوْا سبيًا كثيرًا، وجمعوا الغنائم، وغابوا في هذه السرّية خمس عشرة ليلة} (٢)

ويظهر هنا بوضوح فهم القائد لما يوصله إلى هدفه بأيسر الأمور وأقل الخسائر، فقد أخذ بمبدأ السرّية والكتمان، فسار الليل وكمن النهار، حتى لا تصل أخباره إلى العدو، فيستعد، أو ينصب له كميناً، فتقع الخسائر الكبيرة في صفوفه، أو يغادر المنطقة ويتمنع من المسلمين، فلا ينالوا من الغنائم، ولا يصيبوا العدو في مقتل، وعليه فقد أدرك هذا القائد أهمية السرّية والكتمان وطبقها واقعاً ملموساً في مسيره فيتعلم منه جنده، لتصبح لديهم الخبرة فيما بعد إذا استلموا القيادة.

ح- غزوة دومة الجندل (٣)

كان ﷺ دأبه الحذر من الأعداء والحرص على أصحابه، فكان يأخذ عدوه بالمباغتة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ففي هذه الغزوة جاءت الأخبار بحشود الأعداء لمهاجمة المدينة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يبادرهم بالهجوم كي يكونوا عبرة لغيرهم

١- أبو قتادة ، المشهور أن اسمه الحارث، وقيل النعمان، وقيل عمرو. وأبوه ربعي ابن بلدمة بن خُناس ابن سلمة الأنصاري الخزرجي السلمي اختلف في شهوده بدراً، واتفقوا على أنه شهد أحداً وما بعدها، وكان يقال له فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت وفاته بالكوفة في خلافة عليّ. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ٢٧٢،٢٧٤/٧

٢- أبو أسماء محمد بن طه، الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية بترتيب أحداث السيرة النبوية، صفحة ٤٢٢، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة – دار سبل السلام – الفيوم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

٣- دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة وكان النبي، صلى الله عليه وسلّم، وجّه إليه خالد بن الوليد من تبوك فأسر خالد صاحب الحصن وقتل أخاه وافتتحها عنوة. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٤٨٧/٢، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م

ممن تسول له نفسه بمهاجمة المدينة.

{ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل، قريباً من الشام – تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمر بها، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله – ﷺ – على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري (١)، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليالي بقين من ربيع الأول سنة ٥ للهجرة...خرج يسير الليل ويكمن النهار حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارّون**}** (٢).

والملاحظ هنا أنه ﷺ أراد تحقيق عنصر المباغتة للأعداء، فتقع الهزيمة في صفوفهم رعباً وقتلاً دون أن يكونوا مستعدين لقتال، وبهذا تكون الخسائر في صفوف المسلمين قليلة وتزداد في صفوف الأعداء، ولا يتحقق له عنصر المباغتة إلا إذا طبق السرّية والكتمان في تحركاته تجاه الأعداء، وقد أخذ عليه الصلاة والسلام بهذا، والدليل على ذلك أنه كان يسير ليلاً ويكمن نهاراً، حتى لا ترصده العيون وتصل أخباره إلى الأعداء فيتجهزوا.

خ–غزوة المريسيع(بني المصْطَلِقْ)

في هذه الغزوة أخذ رسول الله ﷺ بمبدأين؛ الأول مبدأ استخباري، يجمع فيه المعلومات عن العدو، ويتأكد من الأخبار، والثاني مبدأ السرّية والكتمان والمباغتة، ففي المبدأ الأول أرسل عليه الصلاة والسلام عيناً له ليأتيه بصادق الأخبار، **{**فبلغ خبرهم رسول الله ﷺ، فبعث بريدة الأسلميّ (٣) يعلم ذلك، واستأذن رسول الله ﷺ أن يقول، فأذن له،

١– سباع بْن عرفطة الغفاري استعمله النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى المدينة لما خرج إِلَى خيبر، وَإِلى دومة الجندل–لحق برسول الله ﷺ لفتح مكة–قبل الفتح بيوم، أو بعده بيوم. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٤٠٣/٢

٢– منير الغضبان المنهج الحركي للسيرة النبوية، ٣٣٢/٢، الناشر: مكتبة المنار – الأردن – الزرقاء الطبعة السادسة، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م

٣– بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث ابن الأعرج بن أسلم ، يكنى أبا عَبْد الله، –وغير ذلك– أسلم قبل بدر، ولم يشهدها وشهد الحديبية، فكان ممن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكان من ساكني المدينة ثم تحول إلى البصرة، ثم خرج منها إلى خراسان غازياً فمات بمرو في إمرة يزيد بن معاوية. يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ١٨٥/١

فخرج حتى ورد عليهم ماءهم، فوجد قوما مغرورين قد تألّبوا وجمعوا الجموع، فقالوا: من الرّجل؟ قال: رجل منكم قدمت لمّا بلغني عن جمعكم لهذا الرّجل، فأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يدا واحدة حتى نستأصله... فقال بريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي، فسرّوا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم} (١)

وأما فيما يتعلق بالمبدأ الثاني وهو السرّية والكتمان، فيكفي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذهم على حين غرة وهو دليل على المباغتة التي لا تكون إلا نتيجة للسرية والكتمان {إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغَارَ عَلَى بَنِي المُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ (٢)، وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى المَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ (٣)} (٤)

د- غزوة الأحزاب

كاد المشركون فيها أن يقضوا على الإسلام لولا أن سخر الله رجالاً رفعوا لواء السرية والكتمان لهم شعاراً

قال عليه الصلاة والسلام:

{«أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ(٥)، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»} (٦)

١- محمد الصالحي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ٣٤٤/٤، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

٢- الْغَارُّ بِالتَّشْدِيدِ الْغَافِلُ، أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، صفحة ٢٢٥

٣- جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة الخزاعية المصطلقية، سباها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم غزوة بني المصطلق، سنة خمس، وقيل: سنة ست، أدى عنها رسول الله ﷺ كتابها وتزوجها ورد المسلمون سبي قومها. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥٧/٧

٤- أخرجه البخاري، باب من ملك من العرب رقيقاً، ١٤٨/٣، رقم ٢٥٤١

٥- سبقت ترجمته في صفحة (٩٧) هامش (٤)

٦- أخرجه مسلم في صحيحه، باب غزوة الأحزاب، ١٤١٤/٣ ، رقم ١٧٨٨

وفي هذا إشارة واضحة جلية إلى الأخذ بالسرّية والكتمان، واستطاع حذيفة أن يأتي بما أمره به النبي ﷺ وكذلك حفظه الله بمحافظته على السرّية والكتمان وحفظ أمنه الشخصي فلو كُشِفَ أمره لما رجع إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ثمّ إن القصة التالية تظهر جلياً فهم أصحاب رسول الله ﷺ، لمعنى السرّية والكتمان، وأن المعلومة التي عنده ليست ملكه، بل هي ملك للأمة بقيادتها، وأنه يجب عليه أن يصونها فلاتخرج في غير مكانها، ولا إلى غير أهلها، وقد صدرت من هذا الصحابي الجليل إشارة فقط، فندم عليها واتهم نفسه بالخيانة، وما استطاع أن يواجه القيادة بوجهه بعد ما فعل، واعتبر فعله جريمة نكراء، وعاقب نفسه حتى تاب الله عليه، وحلت وثاقه قيادته النبوية بعد أن نزلت توبته، أما في عصرنا الحاضر فإنهم يقومون بكبير الخيانات ويعتبرون ذلك مصلحة للأمة، وأن الأمة لا تعرف مصلحتها، وعلى القيادة السياسية أن تقوم بواجبها طالما أن الأمة جاهلة لمصالحها، فالقائد أدرى بمصلحة شعبه!!

{ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ(١)... فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ...وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ! أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ، إِنَّهُ الذَّبْحُ. قَالَ أَبُو لبَابَة: فوالله مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ ...حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ. وَقَالَ: لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ، وَعَاهَدَ اللَّهَ: أَنْ لَا أَطَأَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا، وَلَا أُرَى فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ أَبَدًا**}** (٢)

ذ- غزوة مؤتة:

إن الدارس لأحداث هذه الغزوة، وعند معرفته بأعداد الجيوش لكلا الطرفين، يقول دون مقدمات أن الطرف الأقل، سوف يتم سحقه بلا هوادة وبلا رحمة وأن الفارق الكبير في العدد والعدة بين الجيشين لا يتصوره عقل بشري، فالمعطيات المادية تؤكد هلاك الطرف الإسلامي، لكن عبقرية القائد الملهم، وبأخذه السرّية والكتمان على أصولها في تخطيطه العسكري، حيث

١- رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس أبو لبابة، شهد العقبة وكان نقيباً، وشهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدراً، وتوفي في خلافة علي. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، صفحة ٢٦٠/٦

٢- عبد الملك بن هشام، سيرة ابن هشام ٢٣٧/٢

أحاط جميع مخططاته العسكرية وخطته للانسحاب، بكامل السرّية والكتمان، وأوهم العدو بأن مدد المسلمين متلاحق من خلال الفرسان الذين يثيرون النقع في الصحراء، استطاع بفضل الله تضليل العدو وألقى في روعه أن المسلمين ينسحبون انسحاباً مدروساً، وأنهم يريدون سحبهم إلى قلب الصحراء حيث أعدوا لهم كميناً محكماً، فما كان من الروم إلا أن أحجموا عن ملاحقة المسلمين، وانسحب المسلمون بأمان.

{فَاصْطَلَحَ النّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ (١) ...بَاتَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَلَمّا أَصْبَحَ غَدَا، وَقَدْ جَعَلَ مُقَدّمَتَهُ سَاقَتَهُ، وَسَاقَتَهُ مُقَدّمَتَهُ، وَمَيْمَنَتَهُ مَيْسَرَتَهُ، وَمَيْسَرَتَهُ مَيْمَنَتَهُ، فَأَنْكَرُوا مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ رَايَاتِهِمْ وَهَيّأَتْهُمْ وَقَالُوا: قَدْ جَاءَهُمْ مَدَدٌ! فَرُعِبُوا فَانْكَشَفُوا مُنْهَزِمِينَ، فَقُتِلُوا مَقْتَلَةً لَمْ يُقْتَلْهَا قَوْمٌ}(٢)

فهذا البطل، الأسد الرباني، استطاع أن ينقذ جيش المسلمين من هلاك محتوم، بفضل ما آتاه الله من حنكة عسكرية جعلها في إطار ذهبي من السرية والكتمان.

{فاتخذ خالد خطة حربية محكمة حيث غير مواقع الجند...واختار عددًا من الفرسان وأمرهم بأن يثيروا الغبار فيظن العدو بأن هناك مدداً قادماً، فأوقع الله في قلوب الروم الرعب فانسحبوا وبذلك نصر الله جنده} (٣)

ر – غزوة فتح مكة

كان هناك سِرّية ممقوتة عند كفار قريش، كانت سبباً في فتح مكة، وهذه تُعدُّ من الخيانات، ونقض المواثيق، وقلة المروءة، فكيف كان ذلك وكيف نفهمه؟ لنقرأ عن فعل رسول الله ﷺ: {خرج له ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذي وقع بالحديبية فإنه كان قد وقع الشرط: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت

١– خَالِد بْن الْوَلِيد بْن المغيرة بْن عَبْد اللَّهِ بْن عمر بْن مخزوم أَبُو سليمان، وقد اختلف في وقت إسلامه وهجرته، فقيل: هاجر بعد الحديبية وقبل خيبر، سمّاه الرسول عليه الصلاة والسلام "سيف من سيوف الله"، توفي بحمص من الشام، وقيل: بل توفي بالمدينة سنة إحدى وعشرين. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ١٤٠/٢

٢– أبو عبد الله الواقدي، المغازي ٧٦٤/٢

٣– محمد بن صامل السُّلَميُّ وآخرون معه، صَحِيحُ الأثَر وجَمَيلُ العبر من سيرة خير البشر، صفحة ٢٤٦، الناشر: مكتبة روائع المملكة – جدة الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م

خزاعة (١) في عقد رسول الله ﷺ وعهده وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، فتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر في بني الديل (٢). حتى بيت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له: الوتير، فأصاب منهم رجلاً ...، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال. وأمدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل بعضهم معهم ليلاً في خفية.} (٣)

هنا، تم نقض العهد من طرف قريش، حيث قاموا بالإمداد العسكري لقبيلة بكر حليفتهم، بالسلاح تارة وبالرجال تارة أخرى وبشكل خفيّ، وبسرّية تامة، وفي ظنهم أن هذا الأمر مستور، فقد أسرّوا ذلك ولم يظهروه، إلا أن الله أظهره لرفع الظلم عن المظلوم ولأمر آخر يحبه الله وهو الأهم، فقد أدى ذلك إلى فتح مبارك كبير، هو فتح مكة، الفتح الذي بشر الله به نبيّه عليه الصلاة والسلام وهو راجع بعد اتفاق الحديبية. فقال عزّ من قائل: **(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا)** (٤) فمن المفسرين من قال: {يعني: صلح الحديبية، كان فتحًا بغير قتال} (٥)، ومن المفسرين من قال: {أَنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ} (٦) وفي القولين خير.

فكانت السرّية التي مارستها قريش ممقوتة ظالمة، وأدت إلى فتح مكة، ثم لننظر إلى موقف بديل بن ورقاء (٧) وكيف أخفى خبر لقائه بالنبي ﷺ، وأسرّه، حتى لا يعطي لأبي سفيان فرصة ليعد خطة مضادة ليقابل بها النبيّ ﷺ.

١- من قبائل اليمن هاجرت بعد سيل العرم ونزلت مكة، أبو العباس القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، صفحة ٣٧، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢ م

٢- نوفل بن معاوية بن عَمْرو الديلي، من بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أسلم، وشهد مع النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتح مكة، ونزل المدينة حَتَّى توفي بِهَا أيام يزيد بن معاوية. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٣٤٩/٥

٣- أبو عبد الله الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، باب غزوة الفتح الأعظم، ٣٧٧/٣-٣٧٩، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، بدون بيان مكان الطباعة

٤- سورة الفتح، الآية ١

٥- أبو الحسن الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، ١٣٣/٤، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م

٦- أبو محمد البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٢٢٢/٤

٧- بديل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبد العزى بن عمرو بن ربيعة الخزاعي، مات قبل النبي صلّى الله عليه وسلم، كان إسلامه قبل الفتح، وقيل يوم الفتح. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة،٤٠٨/١، ٤٠٩

{فخرج أبو سفيان (١) إلى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة، فلقى بديل بن ورقاء... فكتمه بديل مسيره إلى النبى ﷺ، وأخبره أنه إنما سار فى خزاعة على الساحل؛ فنهض أبو سفيان حتى أتى المدينة} (٢)

وكانت سِرّيتهم مفضوحة بأمر الله، فقابلها ﷺ بسرّية مطلوبة محفوفة برضا الرحمن وتوفيقه، ولنقرأ فعل رسول الله ﷺ ونتخيل فعله الشريف، كأننا حاضرون معه، هذا الذي أدى إلى فتح مكة الذي تجلت فيه السرّية والكتمان في أبهى صورها، فقد عزم رسول الله ﷺ، على غزو مكة إثر ما حدث من نقض قريش للعهد الذي بينهما، وبصورة سرية ودون أن تشعر قريش بما يفكر فيه رسول الله ﷺ، وشتان ما بين سرّية قريش التي أريقت فيها الدماء ظلماً وعدواناً ونقضاً للعهد، وبين سرّية الرسول عليه الصلاة والسلام، التي تتوجت بفتح مكة، والنصر العظيم دونما إراقة دماء تذكر إذا ما قورنت بالفتح والنصر العسكري الكبير الذي حققه الله لرسوله عليه الصلاة والسلام، وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالتعبئة العسكرية ولم يخبر عن وجهته أحد.

{وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِالْجِهَازِ، وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُجَهِّزُوهُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ (٣) عَلَى ابْنَتِهِ عَائِشَةَ (٤) وَهِيَ تُحَرِّكُ بعض جهاز رسول الله ﷺ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّةُ، أَأَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ بِأَنْ تُجَهِّزُوهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، فَتَجَهَّزْ، قَالَ: فَأَيْنَ تَرَيْنَهُ يُرِيدُ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي.}(٥)

وما بين سرّية قريش في الظلم والإيذاء والاعتداء، وبين سرّية النبيّ ﷺ التي أتت بنصر الله والفتح العظيم المبين، هناك سرّية كانت ناجمة عن قلة إدراك، وعدم دقة في الفهم، وعدم تقدير صحيح للموقف، ولولا حب الله لمن قام بها، وعلمه سبحانه بحسن نيته، وشفاعة سابق عمله له،

١- سبقت ترجمته في صفحة (٩٩) هامش (٣)

٢- ابن حزم الأندلسي، جوامع السيرة النبوية، صفحة ١٧٨، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ

٣- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٤- سبقت ترجمتها في صفحة (٦٧) هامش (٢)

٥- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري٤٧/٣ الناشر: دار التراث – بيروت الطبعة: الثانية – ١٣٨٧ هـ

لتم تصنيف ما قام به تحت مسمى الخيانة العظمى والتي عقوبتها الإعدام، فعندما علم حاطب بن أبي بلتعة (١) رضي الله عنه بنيّة رسول الله ﷺ لغزو مكة، قام بإرسال كتاب سرّاً مع امرأة لكفار قريش، يعلمهم فيه بنيّة الرسول ﷺ، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ يخبره بذلك. يقول عليّ رضي الله عنه **{**بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرَ (٢)... فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا رَوْضَةَ خَاخٍ (٣)، فَقُلْنَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مِعِيَ مِنْ كِتَابٍ، قُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ، أَوْ لَنَقْلِبَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجُوهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا فِيهِ، مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**}** (٤)
واستدعى رسول الله ﷺ حاطباً واستجوبه فبرأه من فعلته.

{فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قَوْمِي، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْهُمْ مِنَ النَّسَبِ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ كُفْرًا، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَكُمْ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "**}** (٥)

ويزيد ﷺ في الحيطة والحذر والسرّية والكتمان تعمية على قريش أن تصلها الأخبار فتتجهز

١- أبو محمد حاطب بن أبي بلعته سكن الكوفة، شهد بدراً والحديبية، مات سنة ثلاثين وهو ابن خمس وستين سنة وصلى عليه عثمان رضي الله عنه بالمدينة. أبو القاسم البغوي، معجم الصحابة ٢٠٧/٢الناشر: مكتبة دار البيان – الكويت الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م

٢- الزّبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب القرشي الأسدي، أبو عبد الله، حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن عمته، أحد الستّة أصحاب الشّورى، أول رجل سلّ سيفه في الله، كان قتله في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وله ست أو سبع وستون سنة. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ٤٥٧/٢، ٤٥٩، ٤٦٠

٣- بقرب حمراء الأسد من المدينة، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣٣٥/٢

٤- أبو الشيخ الأصبهاني، أخلاق النبي وآدابه ٢٦٢/١ الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨

٥- أبو الشيخ الأصبهاني، مصدر سابق، ٢٦٢/١

لحرب فتكون ملحمة دامية في حرم الله وهذا ما لا يريده رسول الله ﷺ فيبعث {سَرِيَّةَ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ (١) إِلَى بَطْنِ إِضَمَ (٢) فِي أَوَّلِ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنْ مُهَاجَرِ رَسُولِ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلم، قَالُوا: لَمَّا هَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلم بِغَزْوِ أَهْلِ مَكَّةَ بَعَثَ أَبَا قَتَادَةَ بْنَ رِبْعِيٍّ فِي ثَمَانِيَةِ نَفَرٍ سَرِيَّةً إِلَى بَطْنِ إِضَمَ... لِيَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وسلم تَوَجَّهَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَلِأَنْ تَذْهَبَ بِذَلِكَ الْأَخْبَارُ} (٣)

وقد تعامل عليه الصلاة والسلام بالكتمان حتى مع أقرب الناس، فهذه زوجته الأكثر حباً لها لا تعرف أين يتجه رسول الله ﷺ، وقد جهزت له ما يلزمه، ومع كل هذا الأخذ بالأسباب البشرية واستنفاد الوسع، فإنه يتوجه إلى الله بالدعاء أيضاً، وليفهم أصحابه والتابعين من بعده، أن الله هو مسبب الأسباب وعلى من أخذ بالأسباب والإعداد، أن يلجأ إلى الله ويتوج عمله بالدعاء، فبعد ما قام بما يتوجب عليه، لهج إلى الله بالدعاء فقال عليه الصلاة والسلام: (اللهُمَّ عَمِّ عَلَيْهِمْ خَبَرَنَا حَتَّى نَأْخُذَهُمْ بَغْتَةً) (٤) وكان لرسول الله ﷺ ما أراد من هذه السرّية والكتمان، فقد استطاع أن يباغت أهل مكة فما استطاعوا إعداداً ولا قتالاً، ليحقق النصر والفتح بدون دماء، حتى لا تستباح حرمة مكة.

١- سبقت ترجمته في صفحة (١٠٥) هامش (١)

٢- ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢١٤/١

٣- ابن سعد، الطبقات الكبرى،١٠١/٢، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٩ م

٤- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٤٣٣/٢٣، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة الطبعة الثانية، بدون تاريخ

المبحث الثاني

يبين هذا المبحث كيف فهم الصحابة رضوان الله عليهم معنى السرّية والكتمان وكيف طبقوهما في جوانب حياتهم.

السرّية والكتمان في حياة الصحابة في زمن النبيّ ﷺ

أولاً: السرّية في الدعوة.

نهل الصحابة رضوان الله عليهم من معين علم رسول الله ﷺ، كلٌ حسب وعائه، وقد علمهم فأحسن تعليمهم، وكان لهم أعظم قدوة، وهذا أبو بكر (١) رضي الله عنه يريد أن يجهر بالدعوة.

{أَلَحَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الظُّهُورِ، فَقَالَ: " يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّا قَلِيلٌ ".فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُلِحُّ حَتَّى ظَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ كُلُّ رَجُلٍ فِي عَشِيرَتِهِ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، فَكَانَ أَوَّلَ خَطِيبٍ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**}** (٢)

هو حب المبادرة إلى التضحية في سبيل الدعوة إلى الله، ومن باب الأخذ بالعزيمة، وإن كان له فسحة للأخذ بالرخصة، وعدم الظهور، وقد أشار عليه بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه أصر على ذلك فلم يمنعه رسول الله ﷺ، وفيه درس للدعاة وأصحاب الهمم، ليقدروا أمرهم لفعل المناسب.

{وَثَارَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ فَضُرِبُوا فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَوُطِئَ أَبُو بَكْرٍ وَضُرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَدَنَا مِنْهُ الْفَاسِقُ عُتْبَةُ بن ربيعَة (٣) فَجعل يضْربهُ بنعلين...وَيُحَرِّفُهُمَا لِوَجْهِهِ...حَتَّى مَا يُعْرَفُ وَجْهُهُ مِنْ أَنْفِهِ...فَتَكَلَّمَ آخِرَ النَّهَارِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَمَسُّوا مِنْهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَعَذَلُوهُ، ثُمَّ قَامُوا وَقَالُوا

١- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٢- ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية ٤١/٣، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م

٣- عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد: كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، قتل يوم بدر في سنة ٢هـ. الزركلي، الأعلام، ٢٠٠/٤

لِأُمِّهِ أُمِّ الْخَيْرِ: انْظُرِي أَنْ تُطْعِمِيهِ شَيْئًا أَوْ تَسْقِيهِ إِيَّاهُ؟. فَلَمَّا خَلَتْ بِهِ أَلَحَّتْ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَقُولُ: مَا فَعَلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟} (١)

وقد دفع أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه والمسلمين ضريبة الصدح بالحق والدعوة وهم راضين بصنيعهم، ثم إنّ من أكبر همهم أن تكون القيادة بأمان.

{فَقَالَتْ: وَالله مالي عَلْمٌ بِصَاحِبِكَ. فَقَالَ: اذْهَبِي إِلَى أُمِّ جَمِيلِ بِنْتِ الْخَطَّابِ (٢) فَاسْأَلِيهَا عَنْهُ. فَخَرَجَتْ حَتَّى جَاءَتْ أُمَّ جَمِيلٍ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ يَسْأَلُكِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَتْ: مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ وَلَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، وَإِنْ كُنْتِ تُحِبِّينَ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكِ إِلَى ابْنِكِ، قَالَتْ: نَعَمْ، فَمَضَتْ مَعَهَا حَتَّى وَجَدَتْ أَبَا بَكْرٍ صَرِيعًا دَنِفًا، فَدَنَتْ أُمُّ جَمِيلٍ وَأَعْلَنَتْ بِالصِّيَاحِ وَقَالَتْ وَاللَّهِ إِنَّ قَوْمًا نَالُوا هَذَا مِنْكَ لَأَهْلُ فِسْقٍ وَكُفْرٍ، وَإِنِّي لأرجو أَن ينْتَقم الله لَك مِنْهُم} (٣)

وطلب من والدته أن تأتي له بخبر رسول الله ﷺ، ولكن هذا المصدر أنكر معرفته برسول الله ﷺ وبأبي بكر، وهذا من حرص المصدر على السرية والكتمان.

{قَالَ: فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: هَذِهِ أَمُّكَ تَسْمَعُ. قَالَ: فَلَا شئ عَلَيْكِ مِنْهَا. قَالَتْ: سَالِمٌ صَالِحٌ. قَالَ: أَيْنَ هُوَ؟ قَالَتْ: فِي دَارِ ابْنِ الْأَرْقَمِ (٤) قَالَ: فَإِنَّ لِلَّهِ عَلَيَّ أَنْ لَا أَذُوقَ طَعَامًا وَلَا أَشْرَبَ شَرَابًا أَوْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَمْهَلَتَا حَتَّى إِذَا هَدَأَتِ الرِّجْلُ وَسَكَنَ النَّاسُ، خَرَجَتَا بِهِ يَتَّكِئُ عَلَيْهِمَا حَتَّى أَدْخَلَتَاهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.} (٥)

١- ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ٤١/٣

٢- هي فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلِ أُخْتُ عُمَرَ، تُكْنَى أُمَّ جَمِيلٍ، كَانَتْ تَحْتَ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، وَأَسْلَمَتْ قَبْلَ عُمَرَ - أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، ٣٤١٠/٦

٣- ابن كثير، مصدر سابق، ٤١/٣

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٨٣) هامش (٢)

٥- ابن كثير، مصدر سابق، ٤١/٣

ولننظر لهذا الحس الأمني الذي بلغ أوجه عند أم جميل (١) للمحافظة على الدعوة وقيادتها، فقد أنكرت معرفتها بأبي بكر رضي الله عنه، بل وأنكرت معرفتها برسول الله ﷺ، فهي مسلمة ولا تريد أن يكشف إسلامها فينكشف الغطاء عن بعض المعلومات التي تكتمها عن المشركين، وقد تصرفت بذكاء ولم تقطع خط التواصل معها، علّها تكون صادقة فيما أرادت، فقالت لها إن شئت أذهب معك إلى إبنك، هذا لتتأكد من أن هذه المرأة ليست مدسوسة من قبل المشركين لمعرفة بعض الأحوال المكتومة عن المسلمين،

وبعد ذلك عندما رأت أبا بكر وهو في حالة مزرية بعدما ضربه المشركون، وحتى هذه اللحظة لم تقرّ بمعرفتها أبي بكر أمام أمه، وعندما سألها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم تجبه، وقالت – هذه أمك تسمع – فطمأنها أبو بكر (٢) فأجابت، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إنها استمرت في أخذ الاحتياطات الأمنية عندما أصرّ أبو بكر رضي الله عنه على الذهاب إلى رسول الله ﷺ، فخرجت ومعها أبو بكر وأمه في ساعة تَقِلُ فيها الحركة، ويسكن فيها الناس، إلى أن أوصلته إلى هدفه بأمان.

وهذا أيضا خباب بن الأرت (٣)، مع سعيد بن زيد (٤) وزوجه فاطمة بنت الخطاب وكنيتها أم جميل، يعلمهما سورة طه، في منزلهما متخفياً عن العيون، وهما قد أسلما وكتما إسلامهما. { وَكَانَ إِسْلَامُ عُمَرَ فِيمَا بَلَغَنِي أَنَّ أُخْتَهُ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْخَطَّابِ، وَكَانَت عِنْد سعيد بن زيد ابْن عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، كَانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ، وَأَسْلَمَ زَوْجُهَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَهُمْ مُسْتَخْفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ من عمر(٥)} (٦)

١- سبقت ترجمتها صفحة (١١٥) هامش (٢)

٢- سبقت ترجمته صفحة (٤٥) هامش (٤)

٣- خَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ بْنِ جُنْدُلَةَ بَدْرِيٌّ مُهَاجِرِيٌّ أَوَّلِيٌّ، سَادِسُ الْإِسْلَامِ، يُكْنَى: أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَكَانَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ فِي اللهِ ، تُوُفِّيَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ. أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، ٩٠٦/٢

٤- سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، يُكْنَى: أَبَا الْأَعْوَرِ، وَقِيلَ: أَبُو ثَوْرٍ، مُهَاجِرِيٌّ، بَدْرِيٌّ أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَكَانَتْ أُخْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ تَحْتَهُ. أبو نعيم الأصبهاني، مصدر سابق، ١٤٠/١

٥- سبقت ترجمته في صفحة (٤) هامش (١)

٦- ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، ١٠٠/٣

وفي أسلوب رسول الله عليه الصلاة والسلام في تعليم المسلمين الجدد أمر دينهم، درس عظيم في أصول السرّية والكتمان، فإن تقسيم المسلمين إلى مجموعات صغيرة فيه سهولة في إخفاء الأمر، وخاصة إذا كانوا من أهل البيت ويأتيهم معلم من غيرهم، فهذا أمر لا يثير الشكوك والعيون من حولهم، فالمجتمع العربي بطبعه مضياف، ومن الطبيعي أن يتزاور الناس، أما إن كان العدد كثيراً فهذا مثير للشكوك، ومدعاة للتساؤل الذي من شأنه أن يفضح الأمر ويكشفه، وهذا ما لا تريده القيادة متمثلة في رسول الله ﷺ.

ويبرز هنا دور المرأة في حماية الدعوة بفهمها للسرية والكتمان، وهي شقيقة الرجل في الفهم السليم وفي حصولها على حقها ونصيبها من الإرث النبوي العظيم الذي خرّج عمالقة الدعوة على مرّ التاريخ والذين قامت على أكتافهم دولة الإسلام بما تلقوه من علم وتوجيه نبويّ كريم، وهذه صورة تدلل على ما كان.

{لقد كان ربع هذا المجتمع من النساء. ومعظم الشباب المتزوجين أسلمت معهم زوجاتهم، وعشن المرحلة السرّية دون أن يدري بهن أحد، وحافظن على السر وكتمنه دون أن نسمع شيئاً من إفشائهن له ولعلنا نعطي المرأة حقها من الاهتمام في مسيرة هذه الدعوة، فتكون بجانب الرجل أختاً وزوجاً وأُمّاً وتعيش همه**}** (١)

وهذه قصة إسلامِ أَبي ذرٍّ؟ (٢) **{** قال أبو ذرٍّ: كُنتُ رجلًا مِن غِفارٍ، فبَلَغنا أنَّ رجلًا قد خَرَج بمكَّةَ يَزعُم أنَّه نبيٌّ، فقُلتُ لِأَخي: انطلِقْ إلى هَذا الرَّجلِ كلِّمْه وأْتِني بِخَبرِه. فانطلَقَ فلَقِيَه ثُمَّ رجَعَ، فقُلتُ: ما عِندَك؟ فَقال: واللهِ لَقد رأيتُ رجلًا يأمُرُ بالخَيرِ ويَنهى عنِ الشِّرِّ. فقُلتُ له: لم تَشفِني مِن الخَبرِ، فأَخذتُ جِرابًا وعصًا، ثُمَّ أقبلتُ إلى مكَّةَ، فجَعلتُ لا أَعرفُه، وأَكرهُ أن أَسألَ عَنه، وأشرَبُ مِن ماءِ زَمزمَ وأكونُ في المَسجدِ، قال: فمرَّ بي عليٌّ (٣) فَقال: كأنَّ الرَّجلَ غَريبٌ؟ قال: قُلتُ: نَعَم، قال: فانطَلِقْ إلى المَنزلِ**}**(٤)

١- منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، ٢٧/١

٢- جُندب بن جُنادة بن سفيان بن عبيد، من بني غِفار، صحابي، من كبارهم. قديم الإسلام، يقال أسلم بعد أربعة وكان خامساً. يضرب به المثل في الصدق. وهو أول من حيّا رسول الله صلّى الله عليه وسلم مات في الرَّبَذَة (من قرى المدينة) سنة ٣٢هـ، الزركلي، الأعلام، ١٤٠/٢

٣- سبقت ترجمته في صفحة (١٤) هامش (٢)

٤- أخرجه البخاري في صحيحه، باب قصة زمزم، ١٨٤/٤

{قال: فانطَلَقْتُ مَعه، لا يَسألُني عن شيءٍ ولا أُخبِره، فلمَّا أَصبحتُ غَدوتُ إلى المَسجدِ لأَسألَ عَنه، وَلَيس أحدٌ يُخبرُني عَنه بشيءٍ، قال: فمرَّ بي عليٌّ، فَقال: أما نالَ للرَّجلِ يَعرِفُ مَنزلَه بعدُ؟ قال: قُلتُ: لا، قال: انطَلِقْ مَعي، قال: فقال: ما أَمرُكَ؟ وما أَقدَمَك هذه البَلدةَ؟ قال: قُلتُ له: إن كَتمتَ عليَّ أَخبرتُك. قال: فإنّي أفعلُ. قال: قُلتُ له: بَلغَنا أنَّه قد خَرَج هاهنا رَجلٌ يَزعُم أنَّه نبيٌّ، فأَرسلتُ أَخي لِيُكلِّمَه، فرَجَع ولم يشَفِني منَ الخَبرِ، فأَردتُ أن أَلقاهُ، فَقال له: أما إنَّك قَد رَشدتَ، هذا وَجْهي إليهِ فاتَّبعْني**}** (١)

وهذا من فقههما بالسرية والكتمان، فقد وضعا خريطة للطريق، وكيفية تجاوز الخطر في حال حدوثه.

{ادخُل حيثُ أدخُلُ فإنّي إن رَأيتُ أحدًا أخافُه عليكَ، قُمتُ إلى الحائطِ كأنّي أُصلِحُ نَعلي وامضِ أنتَ، فمضى ومَضيتُ مَعه حتَّى دَخل ودَخلتُ مَعه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، فقُلتُ لَه: اعرِضْ عليَّ الإسلامَ، فعَرضَه فأَسلمتُ مَكاني، فَقال لي: يا أَبا ذرٍّ، اكتُمْ هَذا الأمرَ، وارجِعْ إلى بَلدِك، فإذا بَلغَك ظُهورُنا فأَقبِلْ . فقُلتُ: والَّذي بَعثَك بالحقِّ، لَأصرُخنَّ بِها بينَ أَظهُرِهم، فَجاء إلى المَسجدِ وقُريشٌ فيهِ، فَقال: يا مَعشرَ قُريشٍ، إنّي أَشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأَشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورَسولُه**}** (٢)

وهذا الصحابي يحاكي بفعله فعل أبي بكر عندما صدح بالحق، ففعلوا به أشد ما فعلوا بأبي بكر.

{فَقالوا: قوموا إلى هَذا الصَّابئِ، فَقاموا فضُرِبتُ لِأموتَ، فأَدرَكني العبَّاسُ (٣) فأكبَّ عليَّ ثُمَّ أقبَلَ عليهِم، فَقال: وَيلَكم! تَقتلُون رَجلًا مِن غِفارٍ، ومَتجَرُكم ومَمرُّكم على غِفارٍ! فأَقلَعوا عنّي، فلمَّا أن أَصبحتُ الغدَ رَجعتُ، فقُلتُ مثلَ ما قُلتُ بالأَمسِ، فَقالوا: قوموا إلى هَذا الصَّابئِ، فصُنِع بي مِثلُ ما صُنِع بالأَمسِ، وأَدرَكني العبَّاسُ فأكبَّ عليَّ، وقال مثلَ مَقالَتِه بالأَمسِ. قال: فكان هَذا أوَّلَ إسلامِ أبي ذرٍّ رَحِمه اللهُ.**}** (٤)

١- أخرجه البخاري في صحيحه، باب قصة زمزم، ١٨٤/٤

٢- البخاري، مصدر سابق، ١٨٤/٤

٣- العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل: ولد سنة٥١ ق هـ، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم أخبار المشركين، مات سنة٣٢ هـ. الزركلي، الأعلام، ٢٦٢/٣

٤- البخاري، مصدر سابق، ١٨٤/٤

ما أروع هذه الصور تتجلى في تصرفات أبي ذر قبل أن يسلم، فالسرّية والكتمان له عنوان، فما سأل عن النبي أحداً مع أنه قادم ليلقاه، من أجل أن يصل إليه بالطريقة التي تناسبه ودون مؤثرات خارجية من أحد حتى لا يسمع من أطراف مناوئة ما يصده عن هدفه، ثم تصرفه مع علي بن أبي طالب (١) حيث طلب منه الكتمان قبل أن يخبره بحاجته، فلما أعطاه العهد بالكتمان أخبره عن حاجته.

وتتوالى قضية السرّية والكتمان بين الرجلين، فيتفقان على كيفية التصرف إن كان ثمة خطر في الطريق على الرجل الغريب، إنها السرّية تتجلى واقعاً ملموساً في حياة الصحابة في مهد الدعوة، ويصلان إلى رسول الله ﷺ بأمان، ويسلم الرجل، ويوصيه رسول الله عليه الصلاة والسلام بالسرّية والكتمان، فما أفقه ذلك الجيل وما أحوجنا أن نستنير بفقههم.

ثانياً: السرّية والكتمان في الحياة الاجتماعية.

إن من أبرز القصص التي تلمع في أذهاننا للوهلة الأولى في هذا الجانب، قصة حفصة بنت عمر بن الخطاب (٢) رضي الله عنهما، وذلك عندما مات زوجها، وأخذ عمر بن الخطاب (٣) يعرضها على الصحابة الكرام ليتزوجها أحدهم. {حِينَ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ (٤)، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَتُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ. قَالَ عُمَرُ :فَأَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ (٥) فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ. قَالَ :قُلْتُ :إِنْ شِئْتَ

١- سبقت ترجمته في صفحة (١٤) هامش (٤)

٢- سبقت ترجمتها في صفحة (٦٦) هامش (٣)

٣- سبقت ترجمته في صفحة (٤) هامش (١)

٤- خُنَيْسُ بْنُ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمٍ، أسلم قَبْلَ دُخُولِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دَارَ الأَرْقَمِ ويكنى أَبَا حذافة، هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ الْهِجْرَةَ الثَّانِيَةَ وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَاتَ عَلَى رَأْسِ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ شَهْرًا مِن مُهَاجَرِ النَّبِيِّ، ودفن في البقيع. ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣٠٠/٣ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م

٥- عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، ذو النورين، ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشّرين، ولد بمكة عام ٤٧ قبل الهجرة، وأسلم بعد البعثة بقليل، ومن أعظم أعماله في الإسلام تجهيزه نصف جيش العسرة بماله، فبذل ثلاث مئة بعير بأقتابها وأحلاسها وتبرع بألف دينار، أتمّ جمع القرآن، قتل صبيحة عيد الأضحى سنة ٣٥ هجرية. الزركلي، الأعلام، ٢١٠/٤

أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ، فَقَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي. فَمَكَثْتُ لَيَالِيَ ثُمَّ لَقِيَنِي فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ زَوَّجْتُكَ حَفْصَةَ. قَالَ عُمَرُ: فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ (١) فَلَمْ يرجع إليّ شَيْئًا فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ فَمَكَثْتُ لَيَالِيَ ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ} (٢)

هي سنة كريمة في ديننا، أن يخطب الرجل لابنته من يراه مناسباً لها، خير من أن تبقى بلا زوج، ولكن ماذا حصل مع هذا الصحابي الكريم؟ فيقول:

{فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا قَالَ عُمَرُ (٣): فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ إِلا أَنِّي قَدْ كُنْتُ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ ذَكَرَهَا فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَوْ تَرَكَهَا رَسُولُ اللَّهِ قَبِلْتُهَا.} (٤)

نعم قد عرض عمر ابنته على أصحابه للزواج بعد أن انقضت عدتها، ولم يجبه إلى ذلك منهم أحد، وقد وجد في نفسه شيئاً عليهم، أما أحدهما فكان حزيناً على زوجة حبيبة فارقته بالموت وانتهاء الأجل، وأما الآخر فلم يجبه بشيء، وقد أثر ذلك الأسلوب في نفسه، إذ كيف يعرض ابنته على صاحبه ثم لا يجيبه بشيء، فلو أجابه بالرفض لكان ذلك أهون عليه من عدم الإجابة.

إلا أن ذلك الأثر يزول من صاحب النفس الكريمة وذلك حين أخبره أبو بكر رضي الله عنه بالسبب الذي منعه من الإجابة، حيث كان يعلم أن رسول الله ﷺ ذكرها، وهذا الأمر ما زال في طي الكتمان، ولا يجوز إفشاؤه، فهو من الأسرار الاجتماعية، ولمن هذا السر؟ إنه لرسول الله ﷺ، فاطمأنت نفس عمر وزال الذي وجد على إخوانه حيث خطبها رسول الله ﷺ، وهو الأكرم من صاحبيه وكان الخير لعمر وابنته في ذلك. فهذا جانب من جوانب السرّية في الحياة الاجتماعية في حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

١- سبقت ترجمته في صفحة (٤٥) هامش (٤)

٢- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٦٥/٨

٣- سبقت ترجمته في صفحة (٤) هامش (١)

٤- ابن سعد، مصدر سابق، ٦٦/٨

ولنأخذ قصة أخرى من حياة غلمانهم :

وهي قصة أنس بن مالك (١) رضي الله عنه حيث يقول:

(أتى علي رسول الله ﷺ- وأنا ألعب مع الغلمان- قال: فسلم علينا، فبعثني إلى حاجة، فأبطأت على أمي، فلما جئت قالت: ما حبسك؟ قلت بعثني رسول الله ﷺ لحاجة. قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سرٌّ. قالت: لا تحدثنَّ بسرِّ رسول الله ﷺ أحدًا) (٢)

فهذا فهم الغلمان لمعنى السر ومكانته في المجتمع، ليبقى المجتمع بأسره متكاتفاً متحاباً، فما بالكم بفهم الكبار من الصحابة؟

وهذه زوج رسول الله ﷺ، عائشة رضي الله عنها تقول:

(كنَّ أزواج النَّبي ﷺ عنده لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة (٣) تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها رحَّب بها فقال: مرحبًا بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم سارّها فبكت بكاء شديدًا، فلما رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت. فقلت لها: خصَّك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها، ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سرَّه.) (٤)

صلى عليك الله يا رسول الرحمة للبشرية، تأبى أن يجزع القلب ويحزن حتى تدخل إليه السرور.

(قالت: فلما تُوفي رسول الله ﷺ، قلت عزمت عليك بما لي عليك من الحقِّ لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ؟ فقالت: أما الآن فنعم، أما حين سارّني في المرة الأولى فأخبرني: أن جبريل كان يعارضه القرآن في كلِّ سنة مرة أو مرتين، وإنَّه عارضه الآن

١- أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصاري البخاري، خادم رسول الله ﷺ، وله صحبة طويلة، وحديث كثير، وكان آخر الصحابة موتًا. مات في سنة٩٣هـ. تاريخ الثقات، أبو الحسن العجلي، باب الألف صفحة ٧٣، الناشر: دار الباز، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، باب من فضائل أنس بن مالك، ١٩٢٩/٤، رقم ٢٤٨٢

٣- فاطمة بنت رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم ابن عبد الله بن عبد المطلب، ١٨ ق هـ - ١١ هـ ، وأمها خديجة بنت خويلد، تزوجها أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب في الثامنة عشرة من عمرها، وعاشت بعد أبيها ستة أشهر، وهي أول من جعل له النعش في الإسلام. الزركلي، الأعلام، ١٣٢/٥

٤- أخرجه مسلم في صحيحه، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، ١٩٠٤/٤، رقم ٢٤٥٠

مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك. قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارّني الثانية، فقال: يا فاطمة، أما ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟ قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت) (١)

هذا الحديث يبين لنا فهم النساء لكتم السر والمحافظة عليه، فما أعظم ذلك المجتمع الذي رباه رسول الله ﷺ وما أحوجنا أن نقتفي أثر رسول الله ﷺ ونقتفي أثر ذلك المجتمع لنعيش في أمن وطمأنينة!

ثالثاً: السرّية والكتمان في الغزوات والسرايا والبعوث.

اغتيال أبي رافع اليهودي

وقد أخرج البخاري القصة التالية وتعتبر قمة في السرّية والكتمان فهي عملية خاصة رتب لها رجال من الأنصار وأقرها رسول الله ﷺ فقال:

{بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَبِي رَافِعٍ اليَهُودِيِّ (٢) رِجَالًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَتِيكٍ (٣)، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الحِجَازِ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ، وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَرَاحَ النَّاسُ بِسَرْحِهِمْ (٤)، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ: اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ، فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ، وَمُتَلَطِّفٌ لِلْبَوَّابِ، لَعَلِّي أَنْ أَدْخُلَ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَنَا مِنَ البَابِ، ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوْبِهِ كَأَنَّهُ يَقْضِي

١- أخرجه مسلم في صحيحه، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام، ١٩٠٤/٤، رقم ٢٤٥٠

٢- سَلَّامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ الْيَهُودِيُّ وَكَانَ تَاجِرًا مَشْهُورًا بِأَرْضِ الْحِجَازِ وَكَانَ فِيمَنْ حَزَّبَ الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابن كثير الدمشقي، السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير) ٢٦٤/٣

٣- عبد الله بْن عَتِيك الأَنْصَارِيّ، من بني عَمْرو بْن عوف، قتل أَبَا رَافِع بْن أَبِي الحقيق، واستشهد عَبْد اللَّهِ بْن عَتِيك يَوْم اليمامة. يوسف بن عبد البر،الاستيعاب في معرفة الأصحاب،٩٤٦/٣-٩٤٧

٤- السَّرْحُ المالُ يُسامُ فِي الْمَرْعَى مِنَ الأَنعام، -لسان العرب- ابن منظور، الجيم، فصل السين٤٧٨/٢، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ

حَاجَةً، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ، فَهَتَفَ بِهِ البَوَّابُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ}(١)

فسبحان مسهل الأمور، فقد ناداه البواب وأدخله، فيقول:

{فَدَخَلْتُ فَكَمَنْتُ (٢)، فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ البَابَ، ثُمَّ عَلَّقَ الأَغَالِيقَ (٣) عَلَى وَتَدٍ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَى الأَقَالِيدِ فَأَخَذْتُهَا، فَفَتَحْتُ البَابَ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسْمَرُ عِنْدَهُ، وَكَانَ فِي عَلاَلِيَّ لَهُ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِهِ صَعِدْتُ إِلَيْهِ، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا فَتَحْتُ بَابًا أَغْلَقْتُ عَلَيَّ مِنْ دَاخِلٍ، قُلْتُ: إِنِ القَوْمُ نَذِرُوا بِي لَمْ يَخْلُصُوا إِلَيَّ حَتَّى أَقْتُلَهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسْطَ عِيَالِهِ، لاَ أَدْرِي أَيْنَ هُوَ مِنَ البَيْتِ} (٤)

إنه يتحرك ضمن خطة واضحة، ويحمل روحه على راحته ويأخذ بكل ما استطاع من أسباب تحقيق الهدف، ويصل لدائرة الهدف ولكنه لا يتبينه، فيتصرف بذكاء وحكمة.

{فَقُلْتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَأَهْوَيْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ... وَصَاحَ، فَخَرَجْتُ مِنَ البَيْتِ، فَأَمْكُثُ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ فَقَالَ: لِأُمِّكَ الوَيْلُ، إِنَّ رَجُلًا فِي البَيْتِ ضَرَبَنِي قَبْلُ بِالسَّيْفِ، قَالَ: ...ثُمَّ وَضَعْتُ ظِبَةَ (٥) السَّيْفِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى أَخَذَ فِي ظَهْرِهِ، فَعَرَفْتُ أَنِّي قَتَلْتُهُ، فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الأَبْوَابَ بَابًا بَابًا، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ لَهُ، فَوَضَعْتُ رِجْلِي، وَأَنَا أُرَى أَنِّي قَدِ انْتَهَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَانْكَسَرَتْ سَاقِي فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَةٍ} (٦)

حتى لا يخطيء هدفه بسبب الظلام فقد ناداه ليحدد الهدف بناءً على مصدر الصوت، ونفذ المهمة وانطلق راجعاً وهو مصاب بكسر في قدمه.

{ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى البَابِ، فَقُلْتُ: لاَ أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ: أَقَتَلْتُهُ؟ فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ، فَقَالَ: أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الحِجَازِ، فَانْطَلَقْتُ

١- أخرجه البخاري في صحيحه، باب قتل أبي رافع عبدالله بن أبي الحقيق، ٩١/٥ رقم ٤٠٣٩

٢- كَمَنَ كُمُوناً: اخْتَفَى، - لسان العرب – ابن منظور، فصل الكاف ٣٩٥/١٣

٣- هِيَ الْمَفَاتِيحُ، وَاحِدُهَا إِغْلِيقٌ- لسان العرب – ابن منظور، القاف، فصل الغين المعجمة ٢٩١/١٠

٤- أخرجه البخاري في صحيحه، باب قتل أبي رافع عبدالله بن أبي الحقيق، ٩١/٥ رقم ٤٠٣٩

٥- ظُبَةُ السَّيْفِ، وَهُوَ طَرَفُه- لسان العرب – ابن منظور، فصل الظاء المعجمة ٥٦٨/١

٦- البخاري، مصدر سابق، ٩١/٥ رقم ٤٠٣٩

إِلَى أَصْحَابِي، فَقُلْتُ: النَّجَاءَ، فَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ أَبَا رَافِعٍ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: «ابْسُطْ رِجْلَكَ» فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا، فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ.} (١)

ونخلص من هذه القصة إلى:

أ- تنافس المسلمين وتبارزهم في الخيرات للقضاء على أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ب- يحكم على من اشتد في إيذاء رسول الله ﷺ بالقتل بعلم وإقرار القضاء والقيادة.

ت- قتل المجرم في بيته وبين أهله يدل على قوة المسلمين وطول يدهم وقوة ردعهم.

ث- تجنب قتل الأطفال أو أحد من أهل البيت يدل على الوجه الحضاري لهذا الدين، وأنه لا تؤخذ نفس بذنب غيرها.

وفي القصة التالية تظهر البراعة في استعمال السرّية والكتمان:

{ثُمّ إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ - وَلَهُ الْحَمْدُ - صَنَعَ أَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ خَذَلَ بِهِ الْعَدُوَّ، وَهَزَمَ جُمُوعَهُمْ، وَفَلَّ حَدَّهُمْ، فَكَانَ مِمَّا هَيَّأَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنْ غَطَفَانَ يُقَالُ لَهُ نعيم بن مسعود بن عامر (٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ»} (٣) هذا رجل جاء مسلماً، ويطلب من رسول الله ﷺ أن يستعمله فيما يفيد المسلمين، وكان لا يعلم بإسلامه أحد، فطلب منه رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يخذل عن المسلمين ما بوسعه، فماذا فعل؟

١- البخاري، مصدر سابق، ٩١/٥ رقم ٤٠٣٩

٢- نعيم بن مسعود بن عَامِر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ الغطفاني الأشجعي، أَبُو سلمة، أسلم فِي وقعة الخندق، وهو الَّذِي أوقع الخلف بين قريظة وغطفان وقريش يوم الخندق، مات نعيم فِي زمن خلافة عثمان، وقيل: بَلْ قتل يوم الجمل. عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣٢٨/٥

٣- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، سبب غزوة الخندق، ٢٤٤/٣، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

{فَذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ ذَلِكَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ عَشِيرًا لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيّةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِهِ، فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ إِنَّكُمْ قَدْ حَارَبْتُمْ مُحَمَّدًا، وَإِنَّ قُرَيْشًا إِنْ أَصَابُوا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، وَإِلَّا انْشَمَرُوا إِلَى بِلَادِهِمْ رَاجِعِينَ وَتَرَكُوكُمْ وَمُحَمَّدًا، فَانْتَقَمَ مِنْكُمْ، قَالُوا: فَمَا الْعَمَلُ يَا نعيم؟ قَالَ: لَا تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يُعْطُوكُمْ رَهَائِنَ قَالُوا: لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ} (١)

هذا الرجل يخطط لأمر عظيم، فلو قال لهم لا تقاتلوا محمداً واكتفى لوقع في قلوبهم الشك تجاهه، ولكنه قال لهم وكأنه يوحي إليهم بالنصح، أن قاتلوا بشرط أن تأخذوا منهم رهائن حتى تضمنوا استمرار قريش معكم إلى النهاية، وهذا هو الوتر الحساس الذي سيلعب عليه نعيم بن مسعود.

{ثُمَّ مَضَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ لَهُمْ: تَعْلَمُونَ وُدِّي لَكُمْ وَنُصْحِي لَكُمْ، قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ نَقْضِ عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَإِنَّهُمْ قَدْ رَاسَلُوهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ رَهَائِنَ يَدْفَعُونَهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ يُمَالِئُونَهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ سَأَلُوكُمْ رَهَائِنَ فَلَا تُعْطُوهُمْ} (٢)

فقد زرع بذور الشك في قلوب اليهود، وذهب إلى قريش وقال لهم إن اليهود يريدون أخذ رهائن منكم ليسلموهم إلى محمدٍ، فقد ندموا على ما فعلوا فإن سألوكم فلا تعطوهم.

{ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى غَطَفَانَ، فَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةُ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ بَعَثُوا إِلَى الْيَهُودِ: إِنَّا لَسْنَا بِأَرْضِ مُقَامٍ...فَانْهَضُوا بِنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْيَهُودُ: إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَنَا حِينَ أَحْدَثُوا فِيهِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّا لَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتَّى تَبْعَثُوا إِلَيْنَا رَهَائِنَ...قَالَتْ قُرَيْشُ: صَدَقَكُمْ وَاللَّهِ نعيم، فَبَعَثُوا إِلَى يَهُودَ، إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَحَدًا، فَاخْرُجُوا مَعَنَا حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، فَقَالَتْ قُرَيْظَةُ: صَدَقَكُمْ وَاللَّهِ نعيم، فَتَخَاذَلَ الْفَرِيقَانِ.} (٣)

١- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، سبب غزوة الخندق، ٢٤٤/٣ الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

٢- ابن قيم الجوزية، مصدر سابق، ٢٤٤/٣

٣- ابن قيم الجوزية، مصدر سابق، ٢٤٥/٣

هنا قد أثمر الجهد، وجف زرع الأحزاب وحان حصاده، فحصده نعيم بن مسعود بفضل الله نصراً للمسلمين، وتشتت الجمع وولوا الدبر، وكان السبب العظيم لذلك النصر هو السرية والكتمان لأيمان ذلك الصحابي، وبراعة وذكاء ودهاء الدور الذي لعبه على الأحزاب متفرقين.

وهذه قصة رائعة تنم عن فهم الصحابة لمعنى السرّية والكتمان وما يمكن أن ينتج عنهما في المعركة، فقد استطاع رجل واحد بفهمه وذكائه وحسن تصرفه، وقد أخذ التوجيه المطلق من رسول الله ﷺ، أن يفكك تجمع الجيوش حول المدينة بما يستطيع، وقد أتوا ليستأصلوا المسلمين، ففرق الله بهذا الرجل جمع المشركين، وبدد آمالهم، وردهم بكيدهم، وساعده على ذلك الأمن، والسريّة، والكتمان، وقد كتم كل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعيم بن مسعود، أمر إيمان هذا الأخير، ولولا ذلك ما نجحت المهمة. والفضل لله الذي حمى الإسلام والمسلمين ودولتهم الفتية، ثم لابن مسعود رضي الله عنه.

غزوة بني لحيان:

من هذه الغزوة كان مراده ﷺ أن ينتقم من الذين قتلوا القراء الذين ذهبوا معهم ليعلموهم القرآن.

{لا يخفى أن بعد مضي ستة أشهر من غزوة بني قريظة غزا رسول الله ﷺ بني لحيان يطلبهم بأصحاب الرجيع، وهم خبيب (١) وأصحابه رضي الله عنهم الذين قتلوا ببئر معونة ... لأنه ﷺ وجد: أي حزن وجداً شديداً على أصحابه المقتولين بالرجيع، وأراد أن ينتقم من هذيل (٢)

١- خبيب بن عدي الأنصاري، من بني جحجبي بن عوف بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف الأنصاري، شهد بدراً، وأُسر يوم الرجيع، كان أول من صلى ركعتين عند القتل. يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب ٢/٤٤٠، ٤٤١

٢- بنو هذيل – بطن من خندف من مضر، وهم بنو هذيل بن مدركة ابن الياس، أبو العباس القلقشندي نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ١/٤٣٥، الناشر: دار الكتاب اللبنانين، بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

فأمر أصحابه بالتهيؤ، وأظهر أنه يريد الشام... واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم (١) رضي الله عنه، وخرج في مائتي رجل ومعهم عشرون فرساً... فسمعت به بنو لحيان، فهربوا إلى رؤوس الجبال أي وأرسل السرايا في كل ناحية فلم يجدوا أحداً أي وأقام على ذلك يومين} (٢)

لم يُظهر رسول الله ﷺ وجهته عندما أراد غزو هذيل، وأظهر وجهة أخرى هي الشام، من باب الأخذ بالسرّية والكتمان حتى لا يصل الخبر إلى العدو، فيحتاط، ومع ذلك فقد سمع العدو بمقدمه عندما اقترب منهم، ففروا هاربين، وألقي الرعب في قلوبهم.

١- سبقت ترجمته في صفحة (٦٥) هامش (٣)

٢- علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ٣/٣

المبحث الثالث

في هذا المبحث نماذج من السرّية والكتمان في العصر الحديث ونتائجها، وكذلك نماذج من العصر القديم وكيف كانوا ينظرون لهذين المفهومين.

نماذج من السرّية والكتمان في العصر القديم والعصر الحديث.

اهتم الإنسان منذ فجر الخليقة بما يحفظ له كينونته ومصالحه ويديم أمنه ويضمن تفوقه على أقرانه ومجاوريه سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو القبيلة أو الدولة، ومن جملة ما حرص الإنسان عليه هو التفوق العسكري وكيفية حفظ الأسرار الخاصة بذلك فاهتدى إلى السرّية والكتمان ومارس العمل بهما قدر استطاعته فحصل على النتائج المرجوة بقدر اهتمامه ومحافظته على أمنه وأمن معلوماته في شتى الميادين.

نماذج من الكتمان والسرّية في العصر الحديث:

إن المختصين في المجال العسكري والأمني يعلمون أن كتمان المعلومات المتعلقة بالمعركة وما يتعلق بها من عتاد وسلاح وأعداد الجند ومستوى التدريب ومعلومات الأسرى إن لم تؤدي إلى النصر فهي تؤدي إلى الحماية والتي بدورها تؤدي لأمن الفرد وبالتالي لأمن المجتمع.

{ يحتل مبدأ المباغتة–وتعني الكتمان والسرّية حتى تنفيذ الأمر– مكانة في مقدمة مبادئ الحرب (الإسرائيلية)، وهناك أشكال متعددة للمباغتة تختلف عن بعضها بعضاً، سوى أن القيادة الإسرائيلية تسعى دائماً إلى أن تجد شكلاً جديداً للمباغتة لم تألفه، أو تعرفه، الحروب السابقة. ونتيجة سعي القيادة إلى إيجاد تلك الأشكال الجديدة، فقد تولدت في أذهان القادة –كبارهم وصغارهم– نزعة إلى التجديد في أساليب الإغارات الخاطفة والضربات غير المتوقعة، سوى أن تلك المباغتة تصبح ذات فائدة محدودة إذا لم تتجاوز حدود تدمير قطعان العدو أو الاستيلاء على موقع دفاعي.**}** (١)

١– ألبرت ميرغلن، حرب المباغتة، صفحة ٢٥٣، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر–بيروت– الطبعة الثانية، ١٩٨٩، ترجمة بسام العسيلي، والكلام لإسحاق رابين، رئيس هيئة الأركان العامة في دولة الاحتلال الصهيوني لفلسطين، من ١٩٦٤/١/١ إلى ١٩٦٨/١/١، وقد نشرت المحاضرة في مجلة المدرعات الأمريكية، عدد تموز/آب لعام ١٩٦٧

مباغتة الجيش (الإسرائيلي) في العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦

وهذا من أقوال أعدائنا المنشورة:

{وكان من الواجب استغلال عنصر المفاجئة إلى أقصى حدّ، في الاستعدادات، وفي الجبهة نفسها، فيما يتعلق بتوقيت الهجوم وأسلوبه، تمت تعبئة الاحتياط بسرعة وفي صمت...بُثت شائعات بأن الأردن على وشك أن تهاجم، على حين كانت القوات الكبرى تحشد قريباً من ساعة الصفر في مواقع الانطلاق على حدود سيناء.**}** (١)

نعم هاهم أعداؤنا يفقهون معنى السرّية والكتمان والتي تكون المباغتة من نتائجهما، أما جيوشنا العربية، فمكشوفة الأعداد والعتاد، وربما أحجام ملابس الجند معروفة للأعداء وحسبنا الله ونعم الوكيل. وهذا قول آخر:

{وضعت القيادة الصهيونية مخططات العمليات لتطويق القوات المصرية وتدميرها في عمق سيناء، كما وضعت خطة خداعية محكمة...فبينما كان الجيش (الإسرائيلي) يقوم بالتعبئة، كانت فرق الهجوم تحتشد في مواقع الانطلاق للهجوم على سيناء متخذة أقصى تدابير السر والحيطة، وفي الوقت ذاته كانت الكتائب والألوية الموجودة في أقصى الجنوب تقوم بتظاهرة عسكرية للفت الأنظار إلى فاعلياتها ونشاطاتها**}** (٢)

نعم إن أعدائنا يفقهون المعنى الحقيقي للسرّية والكتمان فقهاً راشداً وعملياً.

{حتى أن بعض الوحدات التي تحركت إلى الحدود في ٣ حزيران-يونيو- قد سحبت عدة أميال خلال الليل، ثم كررت هذا التحرك في اليوم التالي بصورة واضحة، بهدف إقناع القيادة المصرية بأن الهجوم (الإسرائيلي) سيوجه إلى الجنوب لفك الحصار المضروب على المضائق، كما قامت الطائرات الخفيفة والحوامات بممارسة نشاط واضح على هذا القطاع من الحدود. وذلك إمعاناً في الخداع. لقد كانت خطة العدوان بكاملها، قائمة على المباغتة**}** (٣)

١- يغال آلون، إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي، ترجمة عثمان سعيد، صفحة ١٥٨، الناشر: دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧١

٢- يغال آلون، مصدر سابق، صفحة ١٥٨

٣- يغال آلون، مصدر سابق، صفحة ١٥٨

وفي ذلك يقول موشي ديان (١)، في يومياته

[لقد بدأنا بالطيران فمن البديهي أن مهمته ستكون جد ثقيلة وأنه سيستخدم إمكاناته حتى أقصى الحدود، حتى إذا لم ينجح بمباغتة العرب منذ بدء القتال، عن طريق تدمير طائراتهم وهي على الأرض، فإن خطتنا بكاملها ستصاب بالفشل.**]}** (٢)

إذاً قد وقع وحصل لهم ما خططوا له وما أرادوه، فقد استطاع سلاح الطيران (الإسرائيلي) تدمير معظم طائرات الدول العربية المحيطة بفلسطين المحتلة وهي في مرابضها ودون أن تتحرك، فقد تم تدمير سلاح الطيران المصري وهو رابض على المدارج وأخرج من معادلة المعركة، وكذلك أغار سلاح الجو (الإسرائيلي) على المطارات الأردنية والسورية وكذلك العراقية فخرج سلاح الجو العربي من المعركة، وأصبحت السيادة الجوية للأعداء وكان ذلك باحترافهم مبدأ المباغتة والتمويه المعتمد ابتداءً على السرّية والكتمان.

المباغتة العربية في حرب العاشر من رمضان(١٩٧٣):

وكتبت صحيفة فرنسية: **{**يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا ونعترف بأن أحداً لم يكن يتوقع هذه الحرب، ويمكننا أن نندهش عندئذ من كون المخابرات (الإسرائيلية) قد جهلت كل ما يجري إعداده، في دمشق، لقد مرّ وقت كانت فيه الأركان (الإسرائيلية) على علم فوراً بكل ما يجري في سوريا، كان ذلك عندما كان الجاسوس ايللي كوهين (٣)

١- ولد موشيه صمويل ديان بفلسطين عام ١٩١٥ لأبوين يهوديين هاجرا من أوكرانيا، بدأ حياته عضوا في الهاغاناه (منظمة صهيونية إرهابية) قبل إنشاءالدولة العبرية، ثم قائداً للقوات التي احتلت اللد ١٩٤٨، وقاد الجيش عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي على مصر، ذاع صيته بعد حرب ١٩٦٧وكان وزيراً للدفاع، شارك في مفاوضات السلام بين مصر وإسرائيل ١٩٧٩، مات ١٩٨١ وعمره ٧٤ عاماً.

باختصار عن موسوعة النكبة الفلسطينية

http://www.nakba.ps/criminal-details.php?id=18

٢- ألبرت ميرغلن، حرب المباغتة، صفحة ٢٦

٣- اسمه في كشوفات المخابرات (الإسرائيلية): الياهو بن شول كوهين، ولد في الإسكندرية عام ١٩٢٤، اسمه في سوريا: كمال أمين ثابت، دخل دمشق في ١٩٦٢/١/١٠، رشحوه للوزارة ورفض، كان يذهب لتفقد الجبهة ومرتفعات الجولان، أوصل رفاقه إلى أعلى المناصب في الدولة، قبض عليه، وأعدم في ١٩٦٥/٥/١٨. محمد جلال كشك، ايللي كوهين من جديد، الطبعة الأولى بدون دار نشر، أكتوبر ١٩٦٨

يستقبل في دمشق كل الضباط السوريين، وحتى عام ١٩٦٧، كان الجنرال ديان يعرف كل قرار يتخذه الرئيس الأتاسي (١)} (٢)

كان هذا بفضل الجاسوس المزروع بين الصفوف العليا من ضباط الجيش السوري.

{إلا أن الأمور قد تغيرت، هذا ما يقول الناس، إن المخابرات (الإسرائيلية) في سورية لم تعد على علم بشيء، وذلك دون أن يعرف السبب، وهناك في هذا الصدد مثال لا يخلو من مغزى} (٣)

لقد كانت نتيجة الحرب مبهرة، لأن العرب أخذوا بمبدأ السرّية والكتمان، وباغتوا العدو عندما تخلصوا من جاسوس واحد في الصفوف العليا، مزروع في مفاصل الدولة الحساسة، وتم التكتم على أخبار وسياسة الدولة في مرحلة التخطيط للحرب، فما الذي يمكن أن يحصل إذا تم التخلص من جميع الجواسيس، وطبقنا مبدأ المباغتة منطلقين من السرّية والكتمان؟ لا شك أن حال الأمة سيتغير للأفضل بإذن الله.

ومن أروع النماذج في العصر الحديث على موضوع السرّية والكتمان، ما حصل في فلسطين المحتلة، وتحديداً في قطاع غزة، عندما استطاعت المقاومة الفلسطينية أسر الجندي الصهيوني جلعاد شاليط (٤) من دبابته.

١- نور الدين مصطفى الأتاسي ١٩٢٩-١٩٩٢، رئيس سوريا بين ١٩٦٦/٢/٢٥-١٩٧٠/١١/١٨ من حمص، تخرج طبيباً عام ١٩٥٥، شارك كمتطوع في الثورة الجزائرية عام ١٩٥٨ على رأس مجموعة من الأطباء السوريين، أصبح رئيساً للدولة بعد انقلاب شباط ١٩٦٦، سجنه حافظ الأسد عندما استولى على السلطة لمدة ٢٢ عاماً، توفي في ١٩٩٢/١٢/٢ ودفن في حمص. كمال ديب، تاريخ سوريا المعاصر صفحة ٣٨٩، الناشر: دار النهار، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٢

٢- ألبرت ميرغلن، حرب المباغتة، صفحة ٢٧٤، نقلا عن صحيفة الفيغارو الفرنسية ١٩٧٣/١١/٣

٣- ألبرت ميرغلن، مصدر سابق، صفحة ٢٧٤

٤- جلعاد شاليط هو ابن نعوم وأفيفا شاليط وهم يهود من أصل فرنسي هاجرا (لإسرائيل) قبل عدة عقود، ولد جلعاد شاليط في مدينة نهاريا في ٢٨ أغسطس ١٩٨٦. موقع الموسوعة الحرة. https://ar.wikipedia.org/wiki

{ففي الخامس والعشرين من يونيو/حزيران ٢٠٠٦ فجرت المقاومة الفلسطينية في غزة مفاجأة بإعلانها خطف الجندي (الإسرائيلي) جلعاد شاليط إثر عملية معقدة نفذتها في القاعدة العسكرية (الإسرائيلية) لمنطقة كرم أبو سالم (١)} (٢)

{يعد الجندي (الإسرائيلي) جلعاد شاليط –الذي اتفق على الإفراج عنه في صفقة "وفاء الأحرار" مقابل الإفراج عن ١٠٢٧ أسيرة وأسيراً فلسطينياً– آخر الجنود (الإسرائيليين) الذين أسرتهم فصائل المقاومة اللبنانية والفلسطينية، وتم تبادلهم مع أسرى فلسطينيين وعرب، وتمت صفقة التبادل بعد أكثر من خمس سنوات قضاها شاليط في الأسر في مكان سري بقطاع غزة، بعد أن عجزت (إسرائيل) بكل قدراتها الاستخبارية وعملائها في القطاع عن الوصول إلى مكان أسره} (٣)

نعم بفضل الله أولاً، ثم بفضل الاستعمال الصحيح للسرية والكتمان، فشل العدو وأعوانه وعملائه وجواسيسه أن يتوصلوا لمكان الجندي الأسير.

{كما فشلت حربها التي شنتها نهاية ٢٠٠٨ وبداية ٢٠٠٩ في إنقاذه من الأسر واستمرت المفاوضات غير المباشرة عبر أكثر من وسيط لسنوات، قبل أن ينجح الوسيط المصري في إتمام الصفقة، واطلاق سراح ١٠٢٧ أسيراً بينهم ٥٠٠ من ذوي الأحكام بالمؤبد والأحكام العالية، وتعد الصفقة هي الأكبر في تاريخ عمليات التبادل بين (إسرائيل) والمقاومة الفلسطينية أو اللبنانية} (٤)

وكان الفضل لله أولاً على المقامة ثم باحترافها السرّية والكتمان، فقد نجحت المقاومة، وخسرت وعجزت عقول الأعداء ومن سار في ركابهم من الدول، من الوصول إلى مكان الجندي الصهيوني الأسير، رغم ما يملكون من إمكانات مادية وعسكرية وتقنية، لقد نجحت المقاومة واستعانت على نجاحها بالسرّية والكتمان. فما أحوجنا أن نطبق السرّية والكتمان في حياتنا، أفراداً وجماعات، دولاً، وجيوشاً، ومجتمعات.

١– معبر كرم أبو سالم هو معبر حدودي على الحدود بين قطاع غزة ومصر (وإسرائيل)، الموسوعة الحرة من الشبكة العنكبوتية https://ar.wikipedia.org/wiki

٢– عن تقرير فيلم –صفقة وفاء الأحرار– الذي بثته قناة الجزيرة بتاريخ ٢٠١٦/٢/٤

٣– نقلا عن صفحة قناة الجزيرة –تقارير وحوارات–بتاريخ ٢٠١١/١٠/١٢

٤– قناة الجزيرة، مصدر سابق، تقارير وحوارات ٢٠١١/١٠/١٢

نماذج من فهم وتطبيق السرّية والكتمان من العصر القديم:

إذا نظرنا إلى فهم بعض الشعوب للسرية والكتمان وما تؤديان إليه من نتائج مبهرة تعود بالنصر والتمكين، فلو أخذنا مثالاً لذلك الشعب الصيني في القديم من العصور وقبل آلاف السنين، لوجدنا أنهم فهموا ذلك وأدركوا عن وعي كامل أهمية الأخذ بمبدأ السرّية والكتمان ولنستعرض بعض المفاهيم والأقوال التي وردت في كتاب من أقدم الكتب، والذي يعد من أهم الكتب في التاريخ البشري وهو كتاب –فن الحرب– فسنجد أموراً غاية في الأهمية ونستحضر ما يحاكيها من فعل رسول الله ﷺ.

(يعتبر هذا الكتاب من أحد أهم مائة كتاب في التاريخ البشري، واشتهر هذا الكتاب بأنه – الكتاب المقدس للدراسات العسكرية– ولم يقتصر على الأمور العسكرية بل ينفع في كل مناحي الحياة.) (١)

من أقوال المؤلف :

١– (لا تفتح على نفسك عدة جهات في وقت واحد) (٢) وهذا ما فعله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق عندما كلف نعيم بن مسعود (٣) رضي الله عنه بالتخذيل عن المسلمين واستطاع أن يشق صف التحالف وتفريق جمعهم بعد ذلك.

وقصة نعيم بن مسعود في هذا الباب خير دليل وشاهد (٤).

٢– (الاحتفاظ بجاسوس في الداخل يعادل جيشاً بأكمله وأفضل الجواسيس من يحمل جنسية العدو ولكنه يؤمن بأهدافك) (٥)

وقد زرع رسول الله عليه وسلم العيون في مكة ليزودوه بالأخبار أولاً بأول وقد كان العباس رضي الله عنه أحد أهم تلك العيون.

١– صن تزو، فن الحرب، إعداد أحمد ناصيف، الناشر: دار الكتاب العربي–دمشق/القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٠، صفحة ٥، بتصرف

٢– صن تزو، مصدر سابق صفحة ١٢

٣– سبقت ترجمته في صفحة (١٢٤) هامش (١)

٤– راجع صفحة (١٢٤)

٥– صن تزو، مصدر سابق، صفحة ١٢

{أَسْلَمَ الْعَبَّاسُ (١) قَبْلَ فَتْحِ خَيْبَرَ، وَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلامَهُ... كَانَ مُسْلِمًا يَسُرُّهُ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَظْهَرَ إِسْلامَهُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَشَهِدَ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ وَتَبُوكَ. وقيل: إن إسلامه قبل بدر، وكان رضى الله عنه يكتب بأخبار المشركين إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم، وكان المسلمون يتقوّون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: إن مقامك بمكة خير، فلذلك قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يوم بدر: من لقي منكم العباس فلا يقتله} (٢)

قد كان العباس مسلماً، مستقراً في مكة، يرسل الأخبار لرسول الله ﷺ ليتابع أحوال الأعداء من داخلهم، ودونما شكوك حول العين التي ترسل الأخبار.

٣- (القتال والانتصار في جميع المعارك ليس هو قمة المهارة، التفوق الأعظم هو كسر مقاومة العدو دون أي قتال.) (٣)

ومثل هذا فعله ﷺ عندما كتم أخبار وجهته حين أراد فتح مكة، وعندما تم أسر أبي سفيان (٤)، وإعلانه جملة أمور منعت القتال واحتفظت بأمن مكة المكرمة.

ومن الأمور التي أعلنها رسول الله ﷺ حينئذ لتساعد في حفظ الدماء وعدم الاقتتال:

{مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ} (٥)

٤- (عمل القائد هو أن يبقى هادئاً فيضمن السرّية، وأن يكون مستقيماً وعادلاً فيضمن استقرار النظام.) (٦)

وهذا فعله ﷺ وفعل أصحابه رضوان الله عليهم فقد أرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن جحش (٧) رضي الله عنه في مهمة خاصة مع بعض أصحابه وأعطاه رسالة مكتومة وأوصاه بعدم فتحها إلا بعد أن يقطع مسافة معينة، فينظر ما فيها ويطبق، وكان هذا أسلوباً مبتكراً لم يسبقه إلى فعله أحد ﷺ، راجع صفحة (١٠١).

١- سبقت ترجمته في صفحة (١١٨) هامش (٣)

٢- يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٨١٢/٢

٣- صن تزو، فن الحرب، صفحة ١٢

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٩٩) هامش (٣)

٥- محمد بن جرير بن الطبري، تاريخ الطبري، ٥٤/٣

٦- صن تزو، مصدر سابق، صفحة ١٣

٧- سبقت ترجمته في صفحة (١٠١) هامش (١)

فقد أوصى القائد الأعلى قائده بالمحافظة على السرّية وعدم النظر في الكتاب حتى يبلغ الهدف المرحلي الذي رسمه القائد الأعلى، فالتزم الجميع بالسرّية والكتمان، فلا القائد الأعلى صرح لمن حوله بالمهمة، ولا القائد المكلف علم الهدف أو المضمون إلا بعد تنفيذ الوصية، ولم يكن عند أحد من الفضول ليحاول معرفة الوجهة التي إليها يسيرون، بل الطاعة التامة، المبصرة المؤمنة بقيادتها، بحيث تسير دون تردد، ودون حساب للعواقب.

قد حزمت القيادة أمرها واختارت للمهمة رجالها، وكانوا جميعاً عند حسن ظن القيادة، وقد حققت هذه السِرّية أهدافها، وظهر حب الجند لقيادتهم، من خلال الطاعة وعدم التراجع من أي فرد من الأفراد، علماً أنهم كانوا مخيرين بين المسير مع قائدهم إلى حيث الهدف، أو الرجوع دون مسائلة أو محاسبة أو عتاب.

اختار الجميع المسير تجاه الهدف وعدم التراجع، واختاروا جميعاً وحدة المصير مع القيادة، والاستمرار في الالتفاف حول القيادة، وما أجمل أن يلتف الجند حول قيادتهم بكل ثقة، وفي ذلك سبيل تحقيق الهدف، وتذليل الصعاب، وزيادة الألفة والمحبة بين الجند والقيادة، ومصدر من مصادر القوة والثقة بالنفس، فلا فرق بين القائد وجنده من حيث الامتيازات، فهو يسير كما يسيرون، ويتعب كما يتعبون، ويلاقي العدو كما يلاقون، فيا ليت قيادتنا متحدة مع جنودها ومحبة لهم وهم محبون لها، إذاً لتغير الحال، وصدق رسول الله ﷺ، إذ يقول: (خيارُ أئمَّتِكم الذين تحبُّونَهم ويحبُّونكم. وتُصَلُّون عليهم ويصلُّون عليكم. وشرارُ أئمَّتِكم الذين تبغضونَهم ويُبغِضونكم. وتلعَنونهم ويلعنُونكم.) (١)، ألا لعنة الله على الظالمين.

وتقدير للسرية والكتمان، واعتراف بمكانتهما يقول وكأنه يخاطب قائداً من قادته:

{يا أيها الفن المقدس: فن السرّية والكتمان؛ منك تعلمنا أن نتخفى، فلا يرانا أو يسمعنا عدونا، لنقبض نحن على مصيره في أيدينا.} (٢)، ويقول أيضا: {إن الموقع الذي سنبادر بمهاجمته، يجب أن يكون في طي الكتمان، لأن العدو سيضطر حينها للدفاع عن جميع مواقعه.} (٣)

١- صحيح مسلم، باب خيار الأئمة وشرارهم، ١٤٨١/٣، رقم ١٨٥٥

٢- صن تزو، فن الحرب، صفحة ٦٤

٣- صن تزو، مصدر سابق، صفحة ٦٤

فهو يقول أن السرّية والكتمان تجعلان مصير العدو بين أيدينا، ونستطيع أن نحكم عليه الخناق، وحسب مخططاتنا، وأيضاً بالسرّية والكتمان نستطيع أن نشتت قوى العدو، فيكون على العدو أن يحمي قلاعه كلها، عندما لا يعلم أين ستكون ضربتنا له، وفيه أيضاً لعب بأعصاب العدو، وتوتير له، وعدم اطمئنان، وعدم استقرار، وهذه كلها من مسببات الهزيمة للعدو، وهي ناتجة عن محافظتنا على السرّية والكتمان.

ولا بد إذاً أن يكون الجندي أو من يلقى إليه الأمر لتنفيذه، أن يكون مفتوح العينين على عدوه ليعرف عنه كل شيء ليقاتله على بصيرة فيصيب منه مقتلاً أو هزيمة، أما إذا لم يكن لديه المعلومة الكافية عن العدو فقد يتخبط خبط عشواء في ساحة المعركة، وتكون النتيجة خسارة كبيرة في الأنفس والمعدات وهزيمة منكرة.

وما أجمل أن تعود أمتنا لمعينها الصافي، فتنهل منه ما يعينها على النصر بإذن الله، وتطبق في جميع مناحي حياتها مبادئ السرّية والكتمان من منطلق شرع الله، وهي الأمة التي تستحق السيادة والريادة بين الأمم، ولتصل إلى أهدافها بأقل الخسائر.

الفصل الرابع

هذا الفصل فيه ذكر لنماذج من السرية والكتمان في حياة بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكذلك ذكر لبعض الأقوال والحكم والأشعار التي قيلت في هذا الموضوع.

وفيه مبحثان:

في هذا المبحث يظهر جانب السرية والكتمان في حياة بعض الأنبياء الكرام، ويظهر هذا في حياة نوح عليه السلام وكيف مارس دعوته سراً وجهراً.

المبحث الأول: نماذج من السرّية والكتمان في حياة الأنبياء وأخص نوحاً عليه السلام.

يظهر للمدقق والدارس لتاريخ السرّية والكتمان أنها من طبيعة النفس المخلوقة إنسية كانت أم جنية أم ملائكية، فقد قال ربنا عزّ وجلّ في كتابه: **(وَأَعلَمُ ما تُبدُونَ وَما كُنتُم تَكتُمُونَ)** (١)، والخطاب هنا للملائكة وكان إبليس معهم، وفي التفسير {عن ابن عباس(٢)... وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: "وأعلمُ ما تبدون وما كنتم تكتمون"، قال: قولهم: "أتجعل فيها من يُفسد فيها"، فهذا الذي أبدوْا،"وما كنتم تكتمون"، يعني ما أسرّ إبليس في نفسه من الكبْر} (٣)، فالله سبحانه وتعالى أعلم بما انطوت عليه نفس إبليس وما كتمه من كبر وأسرّه في نفسه، وهذه رواية من الروايات ولننظر إلى غيرها.

{عَنْ قَتَادَةَ (٤): فِي قَوْلِهِ: **(وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)** قَالَ: أَسَرُّوا بَيْنَهُمْ فَقَالُوا: يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَخْلُقَ، فَلَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا إِلَّا وَنَحْنُ أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْهُ} (٥)، والحديث هنا عن الملائكة، ومن الروايتين يظهر أنّ النفس المخلوقة جبلها الله على أن يكون لديها ما تكتمه، وأنها تميل إلى الكتمان في بعض أحوالها، وكل هذا كان قبل أن ينفخ الله الروح في آدم عليه السلام. وهذه لفتة قبل البحث عن مواقف ولفتات من السرّية والكتمان في حياة بعض الأنبياء.

١- سورة البقرة، الآية ٣٣

٢- سبقت ترجمته في صفحة (٢١) هامش (٢)

٣- الطبري، جامع البيان، ٤٩٨/١

٤- سبقت ترجمته في صفحة (٣٢) هامش (٣)

٥- الطبري، مصدر سابق، ٤٩٩/١

آدم عليه السلام:

بعد أن نفخ الله الروح في آدم، وبعد أن أهبطه الله إلى الأرض وكلفه بالرسالة، وبعد أن أصبح له ولد، وعندما قتل أحد أبنائه أخاه، تقول الرواية: (ويزعم أهل التوراة أن قيناً (١) حين قتل أخاه هابيل (٢)، قال الله له: أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيباً، فقال الله له: إن صوت دم أخيك لينادين من الأرض!) (٣)

وهذه الرواية تُظهر أن قيناً وهو أخو هابيل قد كتم خبر قتله أخاه وأسرّه في محاولة إخفائه عن الله جهلاً منه بأن الله يعلم السر وأخفى.

صالح عليه السلام:

وهذا نبيُّ الله صالح عليه السلام يأمر قومه بقتل أولادهم الذكور، حيث أخبرهم أنّ مولوداً منهم سيعقر الناقة فيصيبهم العذاب، فقتلوا المواليد الذكور إلا واحداً، فقد حماه حسبه ونسبه، وكتموا ذلك عن نبيّهم، ثم إنهم لما رأوه قد شبّ تآمروا على صالح نبيّ الله يريدون قتله، وأسرّوا ذلك { فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى صَالِحٍ إِنَّ قَوْمَكَ سَيَعْقِرُونَ نَاقَتَكَ، فَقَالَ لَهُمْ، فَقَالُوا: مَا كُنَّا لِنَفْعَلَ، قَالَ: إِلا تَعْقِرُوهَا أَنْتُمْ أَوْشَكَ أَنْ يُولَدَ فِيكُمْ مَوْلُودٌ يَعْقِرُهَا، قَالُوا: مَا عَلامَةُ ذلك المولود؟ فو الله لا نَجِدُهُ إِلا قَتَلْنَاهُ، قَالَ: فَإِنَّهُ غُلامٌ أَشْقَرُ أَزْرَقُ أَصْهَبُ أَحْمَرُ، قَالَ: فَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَيْخَانِ عَزِيزَانِ مَنِيعَانِ، لأَحَدِهِمَا ابْنٌ يَرْغَبُ لَهُ عَنِ الْمَنَاكِحِ، وَلِلآخَرِ ابْنَةٌ لا يَجِدُ لها كفئاً، فَجَمَعَ بَيْنَهُمَا مَجْلِسٌ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُزَوِّجَ ابْنَكَ؟ قَالَ: لا أَجِدُ لَهُ كُفْئًا، قَالَ: فَإِنَّ ابْنَتِي كُفْءٌ لَهُ، وأنا أزوجك، فزوجه فَوُلِدَ مِنْهُمَا ذَلِكَ الْمَوْلُودُ.} (٤)

قد خالف القوم أمر نبيهم عندما اصطدم الأمر والتقى في مواجهة النسب والعشيرة.

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ثَمَانِيَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ، فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: إِنَّمَا يَعْقِرُهَا مَوْلُودٌ فِيكُمْ، اخْتَارُوا ثَمَانِيَ نِسْوَةً قَوَابِلَ مِنَ الْقَرْيَةِ، وَجَعَلُوا مَعَهُنَّ شُرَطًا كَانُوا يَطُوفُونَ فِي الْقَرْيَةِ، فَإِذَا وَجَدُوا الْمَرْأَةَ تَمْخِضُ نَظَرُوا مَا وَلَدُهَا؟ فَإِنْ كَانَ غُلامًا قَتَلْنَهُ، وَإِنْ كَانَتْ جَارِيَةً أعرضن

١- هو ابن آدم عليه السلام، وكانت أخته من توأمته في نفس البطن أجمل من أخت هابيل وتوأمته، وكان كل واحد يتزوج توأمة أخيه، فرفض قين، فقال أبوهما كل يقرب قرباناً، فأيكما قبل الله قربانه فهو أحق بها، فقبل قربان هابيل، فقام بقتله. الطبري، تاريخ الطبري، ١٤٠/١ بتصرف

٢- الطبري، مصدر سابق، ١٤٠/١

٣- الطبري، مصدر سابق، ١٤١/١

٤- الطبري، مصدر سابق ٢٢٨/١

عنها، فلما وجدوا ذلك المولود صرخ النِّسْوَةُ، وَقُلْنَ: هَذَا الَّذِي يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ صالح، فأراد الشرط أن يأخذوها، فَحَالَ جَدَّاهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَقَالُوا: إِنْ أَرَادَ صَالِحٌ هَذَا قَتَلْنَاهُ، وَكَانَ شَرَّ مَوْلُودٍ} (١)

وهنا نقطة بداية إضمار الشر لنبيهم.

{لَمَّا قَالَ لهم صالح عليه السلام: إِنَّهُ سَيُولَدُ غُلامٌ يَكُونُ هَلاكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ، قَالُوا: فَكَيْفَ تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: آمُرُكُمْ بِقَتْلِهِمْ، فَقَتَلُوهُمْ إِلا وَاحِدًا، قَالَ: فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمَوْلُودَ قَالُوا: لَوْ كُنَّا لَمْ نَقْتُلْ أَوْلادَنَا لَكَانَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا مِثْلُ هَذَا، هَذَا عَمَلُ صالح! فائتمروا بَيْنَهُمْ بِقَتْلِهِ، وَقَالُوا: نَخْرُجُ مُسَافِرِينَ وَالنَّاسُ يَرَوْنَنَا عَلانِيَةً، ثُمَّ نَرْجِعُ مِنْ لَيْلَةِ كَذَا وَكَذَا فَنَرْصُدُهُ عِنْدَ مُصَلاهُ فَنَقْتُلُهُ، فَلا يَحْسَبُ النَّاسُ إِلا أَنَّا مُسَافِرُونَ كَمَا نَحْنُ...فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ عَلَى عَقْرِ النَّاقَةِ أَجْمَعُونَ، فَأَحْجَمُوا عَنْهَا إِلا ذَلِكَ ابْنُ الْعَاشِرِ.} (٢)

وتبدو هنا لطيفة تتبادر إلى الأذهان، وهي مقارنة بين نجاة موسى عندما كان طفلاً ليقوض عرش الطاغية، وهذا الغلام في قصة صالح عليه السلام، نجاه الله من القتل لحسبه، وليكون سبب هلاك قومه، وكادوا أن يقتلوا نبيّهم بسببه، فسبحان من لا تعجزه الحِيَلُ وهو خير الماكرين.

إبراهيم عليه السلام:

في قصة إبراهيم عليه السلام ما يدل على أن الطغاة والجبابرة في الأرض يتشابهون في أفكارهم وأفعالهم فهذا النمرود يقتل الذكور في عام محدد أخبره عنه السحرة والكهنة وذات الفعل قام به فرعون موسى عندما قتل ذكور مواليد بني إسرائيل في عام محدد أخبره به السحرة، وسلّم الله موسى كما سلّم إبراهيم من قبله، { فلما أراد الله تعالى إظهار إِبْرَاهِيم قَالَ المنجمون لنمرود: إنا نجد فِي علمنا أَن غلاماً يولد فِي قريتك هذه يقال لَهُ إِبْرَاهِيم يفارق دينكم ويكسر أوثانكم فِي شَهْر كَذَا وكذا من سَنَة كَذَا وكذا، فَلَمَّا دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إِلَى كُل امرأة حاملة بقريته فحبسها عنده وَلَمْ يعلم بحمل أم إِبْرَاهِيم، فجعل لا يولد غلام فِي ذَلِكَ الشهر إلا ذبحه.} (٣)

١- الطبري، تاريخ الطبري، ٢٢٨/١

٢- الطبري، مصدر سابق، ٢٢٩/١

٣-جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٢٥٩/١، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

فلما وجدت أم إِبْرَاهِيم الطلق خرجت ليلاً إِلَى مغارة ثُمَّ ولدت إِبْرَاهِيم فِيهَا وأصلحت من شأنه ثُمَّ سدت عَلَيْهِ المغارة ثُمَّ رجعت إِلَى بيتها وكانت تطالعه فِي المغارة لتنظر مَا فعل، فتجده يمص إبهامه– قَدْ جعل الله رزقه فِي ذَلِكَ، وَكَانَ آزر قد سألها عن حملها، فقالت: ولدت غلاماً فمات فسكت عَنْهَا.} (١) والمهم في هذه القصة هو السرّية والكتمان، فقد كتمت وأسرّت أم إبراهيم عليه السلام حملها وولادتها عن قومها، بل إنها أسرّت ذلك عن زوجها وهذا فهم عظيم من تلك المرأة للسرية والكتمان وأنها بهما حفظت ولدها من القتل ولا شك أن هذه أسباب والحافظ هو الله سبحانه والمطلوب أن نأخذ دائماً بالأسباب لنصل إلى أفضل النتائج بإذن الله.

لوط عليه السلام:

وهذا نبيُّ الله لوط عليه السلام يكتم خبر أضيافه خوفاً عليهم من قومه الذين يعملون الفاحشة، وتفضح الأمر زوجته فتخبر قومها فيأتون مسرعين يطلبون الضيفان للفاحشة.

{خَرَجَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ نَحْوَ قَوْمِ لُوطٍ فَأَتَوْهَا نِصْفَ النَّهَارِ فَلَمَّا بَلَغُوا نَهْرَ سَدُومَ لَقُوا ابْنَةَ لُوطٍ تَسْتَقِي مِنَ الْمَاءِ لِأَهْلِهَا وَكَانَتْ لَهُ ابْنَتَانِ اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا فَقَالُوا لَهَا يَا جَارِيَةُ هَلْ مِنْ مَنْزِلٍ فَقَالَتْ لَهُمْ مَكَانَكُمْ لَا تَدْخُلُوا حَتَّى آتِيَكُمْ فَرِقَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهَا فَأَتَتْ أَبَاهَا فَقَالَتْ يَا أَبَتَاهُ أَرَادَكَ فِتْيَانٌ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ مَا رَأَيْتُ وُجُوهَ قَوْمٍ قَطُّ هِيَ أَحْسَنَ مِنْهُمْ لَا يَأْخُذُهُمْ قَوْمُكَ فَيَفْضَحُوهُمْ وَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ نَهَوْهُ أَنْ يُضِيفَ رَجُلًا فَجَاءَ بِهِمْ فَلَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ فَخَرَجَتِ امْرَأَتُهُ فَأَخْبَرَتْ قَوْمَهَا فَقَالَتْ إِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ رِجَالًا مَا رَأَيْتُ مِثْلَ وُجُوهِهِمْ قَطُّ فَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ.} (٢)

وما أروع موقف ابنة لوط عليه السلام، حيث خافت على الأضياف من فعل قومها الشنيع، وطلبت منهم أن لا يدخلوا القرية حتى تقوم بترتيب الأمر للمحافظة عليهم وإكرامهم، وهي لا تعرفهم، فأخبرت أباها فتدبر الأمر بغطاء من السرية والكتمان، وأدخلهم، وقد فهمت ابنة لوط عليه السلام ما للسرّية والكتمان من عظيم مكانة لحفظ شرف أضياف أبيها.

١- جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، ٢٥٩/١

٢- ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٧/١

والمؤسف أن من قام بالخيانة هي أقرب الناس إليه، هي زوجه التي غضب الله عليها مع قومها فأهلكهم، ومن عجيب المفارقات في ذات البيت أن البنت تستر وتكتم، وأن الأم تفضح وتعلن، وعليه فليحرص كل صاحب معلومة أو أمر مهم من شأن انتشاره أن يعود بالضرر على صاحبه، على أن يكتم ما لديه عن كل الناس، وخاصة الدائرة الأولى من حوله وهم زوجته وأبنائه وحتى الصغار منهم فلعل العدو أو المتربص يستدرجهم ويأخذ منهم المعلومة فيقع الضرر والمحذور.

يوسف عليه السلام:

قصة يوسف في القرآن الكريم من أروع القصص التي قصها الله علينا فقال تعالى: **(نَحْنُ نَقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)** (١)، ومنها نفيد أروع الفائدة في موضوع السرّية والكتمان، فإن يوسف لمّا قص على أبيه يعقوب عليهما السلام الرؤيا التي رآها أوصاه ألّا يحدث بها إخوته ويكتمها عنهم لما يعلم ما تنطوي عليه نفوسهم من الحسد ليوسف لمحبة أبيه له، فكيف يكون الحال لو علموا بهذه الرؤيا؟ لا شك أنّ الوضع سيتفاقم وتزداد الأمور سوءً بينه وبين إخوته، لذا طلب منه يعقوب عليه السلام ألّا يخبرهم بها، لسلامته وحفظ أمنه من إخوته وذلك ثمرة السرّية والكتمان.

{ثُمَّ إِنَّ يُوسُفَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ تَسْجُدُ لَهُ، فَقَصَّهَا عَلَى أَبِيهِ، وَكَانَ عُمُرُهُ حِينَئِذٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: **(يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)** (٢)

ثُمَّ عَبَرَ لَهُ رُؤْيَاهُ. فَقَالَ **(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)** (٣).

وَسَمِعَتِ امْرَأَةُ يَعْقُوبَ مَا قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ فَقَالَ لَهَا يَعْقُوبُ: اكْتُمِي مَا قَالَ يُوسُفُ وَلَا تُخْبِرِي أَوْلَادَكِ.**}** (٤)

{قَالَتْ: نَعَمْ. فَلَمَّا أَقْبَلَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ مِنَ الرَّعْيِ أَخْبَرَتْهُمْ بِالرُّؤْيَا، فَازْدَادُوا حَسَدًا وَكَرَاهَةً لَهُ، وَقَالُوا: مَا عَنَى بِالشَّمْسِ غَيْرَ أَبِينَا، وَلَا بِالْقَمَرِ غَيْرَكِ، وَلَا بِالْكَوَاكِبِ غَيْرَنَا، إِنَّ ابْنَ رَاحِيلَ يُرِيدُ أَنْ

١- سورة يوسف، الآية ٣

٢- سورة يوسف، الآية ٥

٣- سورة يوسف، الآية ٦

٤- عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١/١٢٤، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

يَتَمَلَّكَ عَلَيْنَا وَيَقُولَ أَنَا سَيِّدُكُمْ. وَتَآمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ، وَقَالُوا: **(لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)** (١) فِي خَطَإٍ بَيِّنٍ فِي إِيثَارِهِمَا عَلَيْنَا **(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ)** (٢) أَيْ تَائِبِينَ**}**(٣)، وقد طلب يعقوب من زوجته أن تكتم ما سمعت لما في نشره من خطورة، ولكنها ما التزمت ما وعدت به فوقع المحذور وكان ليوسف من الضرر ما كان لعدم الالتزام بالسرّية والكتمان وتسريب الخبر، ولنتعرف على مشهد آخر أو نتيجة أخرى عندما يتم كتم الأمر.

{وَأَقَامَ يُوسُفُ فِي الْجُبِّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ مَلَكًا فَحَلَّ كِتَافَهُ، ثُمَّ **(جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ)** (٤)، وَهُوَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ إِلَى الْمَاءِ، **(فَأَدْلَى دَلْوَهُ)** (٥) إِلَى الْبِئْرِ، فَتَعَلَّقَ بِهِ يُوسُفُ فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْجُبِّ، وَ **(قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً)** (٦) يَعْنِي الْوَارِدَ وَأَصْحَابَهُ خَافُوا أَنْ يَقُولُوا اشْتَرَيْنَاهُ فَيَقُولَ الرُّفْقَةُ أَشْرِكُونَا فِيهِ فَقَالُوا: إِنَّ أَهْلَ الْمَاءِ اسْتَبْضَعُونَا هَذَا الْغُلَامَ.**}** (٧)

{وَجَاءَ..._أخو يوسف الأكبر_ بِطَعَامٍ لِيُوسُفَ فَلَمْ يَرَهُ فِي الْجُبِّ فَنَظَرَ فَرَآهُ عِنْدَ مَالِكٍ فِي الْمَنْزِلِ فَأَخْبَرَ إِخْوَتَهُ بِذَلِكَ، فَأَتَوْا مَالِكًا وَقَالُوا: هَذَا عَبْدٌ آبِقٌ مِنَّا. وَخَافَهُمْ يُوسُفُ فَلَمْ يَذْكُرْ حَالَهُ، وَاشْتَرَوْهُ مِنْ إِخْوَتِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، قِيلَ عِشْرُونَ دِرْهَمًا، وَقِيلَ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا وَذَهَبُوا بِهِ إِلَى مِصْرَ**}** (٨)

وهنا يظهر أنّ يوسف كتم أمره، ولم يظهره للسيارة خشية أن يبطش به إخوته، فهم قالوا عنه عبد آبق، وهو عند أبيه ميت، فما الذي يمنعهم الآن من إنهاء أمره؟ ولذا كتم أمره وحفظ بهذا الكتمان نفسه من التهلكة، وهذه فائدة الكتمان، وقد كتم يوسف أمره واختار أهون الضررين، والله يقدر له أحسن الأقدار ويهيؤه ليتبوأ أرفع المنازل وهو لا يعلم.

١- سورة يوسف، الآية ٨

٢- سورة يوسف، الآية ٩

٣- عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٢٤/١

٤- سورة يوسف، الآية ١٩

٥- سورة يوسف، الآية ١٩

٦- سورة يوسف، الآية ١٩

٧- عز الدين ابن الأثير، مصدر سابق، ١٢٥/١

٨- عز الدين ابن الأثير، مصدر سابق، ١٢٦/١

موسى عليه السلام:

إنّ السرّية والكتمان في قصة موسى عليه السلام لهما وضع خاص فبهما دمر الله عرش طاغية من أشد الطواغيت في الأرض وأكثرهم إجراماً وأحيا بهما أمة عاشت ردحاً طويلاً من الذل والاستعباد، قال تعالى: **(إِنَ فِرْعَوْنَ عَلَا فَي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)** (١)، وألقت أم موسى وليدها في النيل و كتمت خبره، وكاد قلبها أن ينفطر على فراقه وخوفاً عليه لدرجة أنها أوشكت أن تجهر بما كتمت وتقول بملئ فيها وأعلى صوتها أنّ هذا ولدي لولا أن ثبتها الله، **(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)** (٢)، وبهذا الكتمان أعز الله قوماً بعد ذل، وأذل قوماً بعد عزّ، فدمر الله فرعون وقومه وأعز الله بني إسرائيل بموسى من بعد حياة الذل والعبودية التي عاشوها في خدمة فرعون.

{وَعَنْ أُنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى فِي مَنَامِهِ، كَأَنَّ نَارًا قَدْ أَقْبَلَتْ مِنْ نَحْوِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَحْرَقَتْ دَوْرَ مِصْرَ وَجَمِيعَ الْقِبْطِ وَلَمْ تَضُرَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ هَالَهُ ذَلِكَ، فَجَمَعَ الكهنة والحذقة والسحرة، وسألهم عَن ذَلِك، فَقَالُوا: هَذَا غُلَام يُولد من هَؤُلَاءِ، يَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ، فَلِهَذَا أَمَرَ بِقَتْلِ الْغِلْمَانِ وَتَرْكِ النِّسْوَانِ.**}** (٣)، ظناً منه أنه يستطيع مغالبة حكم الله سبحانه، ويغير المقدور، فما أجهله!

{قَدْ حَكَمَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ، وَلَا تُخَالَفُ أَقْدَارُهُ: أَنَّ هَذَا الْمَوْلُودَ الَّذِي تَحْتَرِزُ مِنْهُ، وَقَدْ قَتَلْتَ بِسَبَبِهِ مِنَ النُّفُوسِ مَا لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى، لَا يَكُونُ مُرَبَّاهُ إِلَّا فِي دَارِكَ وَعَلَى فِرَاشِكَ، وَلَا يُغَذَّى إِلَّا بِطَعَامِكَ وَشَرَابِكَ فِي مَنْزِلك وَأَنت الَّذِي تتبناه وتربيه وتتفداه، وَلَا تَطَّلِعُ عَلَى سِرّ مَعْنَاهُ، ثُمَّ يَكُونُ هَلَاكُكَ فِي دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ عَلَى يَدَيْهِ، لِمُخَالَفَتِكَ مَا جَاءَكَ بِهِ مِنَ الْحَقّ الْمُبِينِ، وَتَكْذِيبِكَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ، لِتَعْلَمَ أَنْتَ وَسَائِرُ الْخَلْقِ، أَن رب السَّمَوَات وَالْأَرْضِ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ هُوَ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ، ذُو الْبَأْسِ الْعَظِيمِ، وَالْحَوَلِ وَالْقُوَّةِ، والمشيئة الَّتِي لَا مرد لَهَا!**}** (٤)، وتم مراد الله، فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

١- سورة القصص، الآية ٤

٢- سورة القصص، الآية ١٠

٣- ابن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء ٥/٢، الناشر: مطبعة دار التأليف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨ م

٤- ابن كثير الدمشقي، مصدر سابق، ٦/٢

السرية والكتمان في حياة نوح عليه السلام:

لماذا سُميَ نوح؟

نوح هو ابن لمك وبينه وبين آدم ألف عام.

{وسمي نوح نوحاً لأنه ناح عن قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا كَفَرُوا بَكَى وَنَاحَ عَلَيْهِمْ**}** (١)، وكذلك **{** يُرْوَى أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ اسْمُهُ يَشْكُرُ وَلَكِنْ لِكَثْرَةِ بُكَائِهِ عَلَى خَطِيئَتِهِ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ يَا نُوحُ كَمْ تَنُوحُ فَسُمِّيَ نُوحًا**}** (٢)

مدة لبثه في قومه:

(عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (٣)، قَالَ: كَانَ بين نوح وآدم عليه السلام عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**)** (٤)

وأرسل الله نوحاً لقومه؛ **{**فَوَلَدَ لَمكُ نُوحًا، وَكَانَ لِلمكَ يَوْمَ وُلِدَ نُوحٌ اثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ سَنَةً، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ الزَّمَانُ يَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا، وَهُوَ ابن أربعمائة سَنَةٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً، ثُمَّ دَعَاهُمْ فِي نُبُوَّتِهِ مائه وعشرين سنه، ثم أمره بصنعه السفينة فصنعها وركبها وهو ابن ستمائة سَنَةٍ، وَغَرِقَ مَنْ غَرِقَ، ثُمَّ مَكَثَ بَعْدَ السفينة ثلاثمائة سَنَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً.**}** (٥)

وهنا تظهر قضية في الحسابات طبقاً لما ورد في القرآن الكريم، فقد قال الله تبارك وتعالى عن نوح عليه السلام: **(فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَاماً)** (٦)، وعندما يقول الله **(**فيهم**)** يعني في الدعوة وقبل هلاكهم، فإن كان عمره عند التكليف بالنبوة أربعمائة وثمانين سنة، ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون مجموع عمره عليه السلام الفاً وسبعمائة وثمانين سنة، وهذا يتعارض مع ما أورده الطبري والله أعلم.

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٣٣/١٣

٢- القرطبي، مصدر سابق، ٣٣٤/١٣

٣- سبقت ترجمته في صفحة (٢١) هامش (٢)

٤- رواه الطبري في تفسيره جامع البيان ٢٧٥/٤، والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط البخاري ٤٨٠/٢ برقم ٣٦٥٤، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى١٤١١هـ-١٩٩٠م، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: صحيح ٨٥٤/٧ برقم ٣٢٨٩، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى

٥- الطبري، تاريخ الطبري، ١٧٤/١

٦- سورة العنكبوت، الآية ١٤

سيرته في قومه:

وتروي كتب التاريخ: {إِنَّ قَوْمَ نُوحٍ كَانُوا يَبْطِشُونَ بِهِ فَيَخْنُقُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ، فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ! حَتَّى إِذَا تَمَادَوْا فِي مَعْصِيَتِهِمْ وَعَظُمَتْ مِنْهُمُ الْخَطِيئَةُ، وَتَطَاوَلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الشَّأْنُ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ، وَانْتَظَرَ النَّجْلَ بَعْدَ النَّجْلِ فَلَا يَأْتِي قَرْنٌ إِلَّا كَانَ أَخْبَثَ مِنَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ حَتَّى إِنْ كَانَ الْآخَرُ لَيَقُولَ: قَدْ كَانَ هَذَا مَعَ آبَائِنَا، وَأَجْدَادِنَا مَجْنُونًا لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكَانَ يُضْرَبُ وَيُلَفُّ، وَيُلْقَى فِي بَيْتِهِ، يَرَوْنَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ، فَإِذَا أَفَاقَ اغْتَسَلَ وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَرَأَى الْأَوْلَادَ شَرًّا مِنَ الْآبَاءِ } (١)

فبئس ما قالوا وما فعلوا تجاه نبيهم حتى اشتكاهم إلى الله، فكان ما كان.

{قَالَ: رَبِّ قَدْ تَرَى مَا يَفْعَلُ بِي عِبَادُكَ، فَإِنْ تَكُ لَكَ فِيهِمْ حَاجَةٌ فَاهْدِهِمْ، وَإِنْ يَكُ غَيْرُ ذَلِكَ فَصَيِّرْنِي إِلَى أَنْ تَحْكُمَ فِيهِمْ. فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنْ إِيمَانِهِمْ دَعَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ: **(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)** (٢)، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. فَلَمَّا شَكَا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَنْصَرَهُ عَلَيْهِمْ، أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنِ: اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} (٣)

{فَأَقْبَلَ نُوحٌ عَلَى عَمَلِ الْفُلْكِ وَلَهَا عَنْ دُعَاءِ قَوْمِهِ وَجَعَلَ يُهَيِّئُ عَتَادَ الْفُلْكِ مِنَ الْخَشَبِ، وَالْحَدِيدِ، وَالْقَارِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا لَا يُصْلِحُهُ سِوَاهُ، وَجَعَلَ قَوْمُهُ يَمُرُّونَ بِهِ وَهُوَ فِي عَمَلِهِ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، فَيَقُولُ: **(إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)** (٤).

قَالَ: وَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ قَدْ صِرْتَ نَجَّارًا بَعْدَ النُّبُوَّةِ! وَأَعْقَمَ اللَّهُ أَرْحَامَ النِّسَاءِ فَلَا يُولَدُ} (٥)

دعوته لقومه وعدد من آمن به:

كلف الله سبحانه نوحاً بالرسالة فقال: **(إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ)** (٦) فعرّفهم بنفسه وصفته فقال: **(قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)** (٧) وعرفهم بالمطلوب منهم فقال: **(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)** (٨) ثمّ بين لهم ما يعود عليهم نتيجة ذلك

١- عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٦٣/١

٢- سورة نوح، الآية ٢٦

٣- عز الدين ابن الأثير، مصدر سابق، ٦٣/١

٤- سورة هود، الآية ٣٨

٥- عز الدين ابن الأثير، مصدر سابق ، ٦٣/١

٦- سورة نوح، الآية ١

٧- سورة نوح، الآية ٢

٨- سورة نوح، الآية ٣

فقال: **(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)** (١)

ثم بدأ يشكو إلى الله قومه بطريقة غير مباشرة ويبين أحواله معهم والله بذلك عليم فقال: **(قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً)** (٢) فقد قام بواجبه الذي كلفه الله به ودعاهم ليلاً كما دعاهم نهاراً، ثم بين حالهم الذي يكونون عليه عندما يدعوهم فقال: **(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً)**(٣) **(وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً)** (٤) ثم بين حاله معهم مرة أخرى وأنه عدّد ونوع معهم الأساليب في دعوته فقال: **(ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً** (٥) **(ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً)** (٦)

فقد دعاهم في أحوال مختلفة، دعاهم فرادى وجماعات وسراً وجهراً ولم تفلح كل هذه الوسائل، ووجههم إلى الاستغفار وبين لهم ما يعود به عليهم من خيرات عظيمة، ثم خاطبهم بالمنطق والعقل وما حولهم من الآيات الكونية الملموسة والمحسوسة من حولهم، وذكرهم بأطوار خلقهم وأنّ ذلك كله من عظمة الله فلم ينفع معهم شيء. ولم يؤمن معه إلا قليل.

{ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قِلَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ نُوحٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ كَفَرَ بِهِ فَقَالَ: **(وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)** (٧) قِيلَ: هُمْ ثمانون إنساناً منهم: ثلاثة من بنيه، وهم سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافِثُ، وَزَوْجَاتُهُمْ، وَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ السَّفِينَةِ بَنَوْا قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا: قَرْيَةُ الثَّمَانِينَ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ بِنَاحِيَةِ الْمَوْصِلِ وَقِيلَ: كَانُوا عَشَرَةً، وَقِيلَ: سَبْعَةً، وَقِيلَ: كَانُوا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.**}** (٨)

١- سورة نوح، الآية ٤

٢- سورة نوح، الآية ٥

٣- سورة نوح، الآية ٦

٤- سورة نوح، الآية ٧

٥- سورة نوح، الآية ٨

٦- سورة نوح، الآية ٩

٧- سورة هود، الآية ٤٠

٨- الشوكاني، فتح القدير، ٥٦٦/٢

دعائه على قومه وبناء السفينة:

عاش نوح في قومه نبياً رسولاً داعياً حانياً عليهم، ولم يدع عليهم إلا بعد أن استنفد وسعه وشكاهم إلى ربه، فأوحى الله إليه فقال: **(وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ، وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)** (١)

فحينئذٍ دعا عليهم نوح عليه السلام بعد علمه اليقينيّ الربانيّ أنهم لا يوجد عند أحد منهم بذرة إيمان يمكن أن تنبت في قلب أحدهم، وقد أخبره الله أن مصيرهم الغرق، وأمره سبحانه أن يصنع السفينة، ويحمل فيها من أمره الله بحمله ففعل، فنجّاه الله ومن في السفينة وأغرق قومه وهلكوا.

مراحل الدعوة في حياة نوح عليه السلام:

إن السرية والكتمان في الدعوات لها على من عمل بها فضل كبير في حمايته وديمومته وخاصة في بداية الدعوات، أو الثورات والكيانات السياسية التي تنشأ في بلاد تحكم بالحديد والنار، وقد عمل بها نبيُّ الله نوح عليه السلام وجعلها مرحلة من مراحل الدعوة وأسلوباً من أساليبها لعلها تفيد مع قومه الذين لم يحسنوا عشرته ولم يصدقوه ولم يتبعوه.

تحليل الشخصية واتباع الأسلوب المناسب لها في الدعوة:

لم يدرس نوح عليه السلام في معاهد للتنمية البشرية ليكون قادراً على تحليل الشخصيات، ولكن علمه الله العليم الخبير فأحسن تعليمه، فكان عليه السلام يخاطب كل فئة بما يناسبها وكل فرد بما يناسبه، فمثلاً:

دعا نوح عليه السلام فئة من الضعفاء والفقراء فآمن به بعضهم، فاحتج عليه قومه واعتبروا ذلك مثلبة فيه وفيما يدعوهم إليه فقالوا:

(فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) (٢)

١- سورة هود، الآية ٣٦، ٣٧

٢- سورة هود، الآية ٢٧

{(فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ) يريد الأشراف لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة ولأنهم ملئوا بالأحلام والآراء الصائبة **(مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مّثْلَنَا)** أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون مَلَكاً أو مَلِكاً (وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا) أخساؤنا جمع الأرذل **(بَادِىَ الرأي)**...أي اتبعوك ظاهر الرأي أو أول الرأي ...أو أرادوا أن اتباعهم لك شيء عنّ لهم بديهة من غير روية ونظر ولو تفكروا ما اتبعوك**}** (١)

وهذا شأن الدعوات يلتحق بها ضعفاء الناس.

{وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمّين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده ولا يرفعه بل يضعه **(وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ)** في مال ورأي عنوا نوحاً وأتباعه **(بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذبين)** أي نوحاً في الدعوة ومتبعيه في الإجابة والتصديق يعني تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيباً للرياسة**}** (٢)

وقد علم نوح عليه السلام أن الفقراء هم أول من يتبعوا الدعوات، لأنهم يجدوا فيها بُغيتهم ومكانتهم وكرامتهم وإنسانيتهم التي هدرها المجتمع الظالم، ويجدوا حقوقهم الاجتماعية فلا فرق في الدعوة بين فقير وغنيّ، ولا بين رئيس ومرؤوس.

الطرق التي مارسها نوح عليه السلام في الدعوة:

أولاً: دعا نوح عليه السلام فئة من قومه ليلاً، ولعله لو دعاهم نهاراً لما استجابوا له يقيناً، لأنه يعلم أنهم أصحاب أعمال وتجارة ولن يعطوه من وقتهم في النهار ليستمعوا إليه، فهذه الفئة توجه إليها بدعوته ليلاً.

ثانياً: دعا نوح عليه السلام فئة من القوم في النهار، ولعلهم الذين لا عمل لديهم في النهار كأن يكونوا كبار السن مثلاً أو مرضى في بيوتهم، أو القواعد في البيوت، ورأى أن أفضل وقت لدعوتهم هو في النهار ليتفرغ لغيرهم في الليل.

١- النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٥٤/٢، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٢- النسفي، مصدر سابق، ٥٤/٢

ثالثاً: دعا نوح عليه السلام فئة من قومه جهاراً، وهذه الفئة قد تكون فئة الشجعان الأشداء في المجتمع الذين لا يبالون أن يراهم الناس أو علية القوم أنهم يستمعون لنوح وهو يدعوهم طامعاً في إيمانهم، ليكونوا سنداً له في الدعوة.

رابعاً: دعا نوح عليه السلام علانية قومه من باب إعلان الدعوة وإشهارها وإعلام القوم بها وشرحها لهم، وتوضيح منهج هذه الدعوة، وبيان ما لقومه وما عليهم في هذه الدعوة الجديدة التي تدعوهم إلى أمور بالنسبة لهم جديدة ولا بد من توضيحها.

خامساً: دعا نوح عليه السلام فئة من قومه سرّاً، ولعل هذه الفئة من الضعاف في المجتمع والذين لا يستطيعون مواجهة المجتمع واستماعهم لنوح، لأن الاستماع له بحد ذاته مخالف لقومه، ولعل هذه الفئة من الصنف الذي يعتبر أن النصيحة لا بد أن تكون بشكل سري أو فردي، والدعوة إلى الله من أفضل وأعظم النصائح، فلا بد إذاً أن تكون في السر، ولعل هذه الفئة من علية القوم ويحبون أن يعرفوا ما لدى نوح من جديد عليهم، ويريدون أن يستمعوا له على انفراد، أو لا يريدون الاختلاط بعامة المدعويين كبراً وتعالياً عليهم، وطمعاً من نوح عليه السلام في إيمانهم أجابهم لما يريدون في أسلوب الدعوة.

ولم تظهر السرّية في حياة نوح عليه السلام إلا كونها إحدى طرق الدعوة إلى الله كما أنها أسلوب من أساليب الدعاة اتبعها نوح في دعوة قومه من باب التغيير والتنويع في أساليب الدعوة، فباختلاف الشخصيات تختلف الأساليب، فكل شخص له ما يناسبه، وقد بذل نوح عليه السلام وسعه في الدعوة، واستنفد طاقته، إلى أن أوحى الله إليه أنه لا يوجد في القوم من قد يدخل الإيمان إلى قلبه، وعليه حق عليهم العذاب فدعا عليهم نوح واستجاب الله دعائه وانتصر له بعد معاناته معهم وشدة ما لاقى منهم من العنت، قال تعالى على لسانه عليه السلام: **(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ)** (١) فانتصر الله له وكان العذاب بالغرق مصيرهم.

ونجا نوح ومن معه في الفلك، وهكذا هي مصائر المكذبين وأصحاب الباطل لهم الهزيمة في الدنيا ولو بعد حين ولهم العذاب يوم الدين، ويكون النصر والتمكين لهذا الدين وأتباعه فضلاً من رب العالمين بما جاهدوا وكانوا من الصابرين.

١- سورة القمر، الآية ١٠

خلاصة المبحث:

بعدما تناول هذا المبحث بعض الجوانب التي برزت فيها السرية والكتمان في مرحلة من حياة نموذج من الأنبياء الكرام، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام، فقد اتضح أن الأنبياء هم القدوة لكل الدعاة والمخلصين من أبناء هذه الأمة، وأن على المؤمن أن ينصاع لأمر الشارع، وإن كلفه ذلك الجهد والألم والمعاناة، وليوقن أن الفرج سيأتيه من حيث لا يدري، ويكون قد نجح في الامتحان.

كما تبين من البحث، أن الطغاة وأعداء الحق، لديهم توارد في الأفكار، وتقارب في الأساليب التي يحاربون الحق بها، وإن تباعدت بينهم المسافات والحقب التاريخية، فالشيطان الذي يوحي إليهم ويعلمهم واحد، لذا لابد من مواجهتهم بالحذر، والأخذ بالسرية والكتمان لتجنب أذاهم المباشر.

وقد ظهر بوضوح أن عدم المحافظة على السرية تأتي بالألم والمعاناة للناجح والمتميز، ومن أقرب الناس إليه، حتى يكاد إفشاء السر أن يودي بحياة من يتعلق به، وعليه فلا بد للداعية، أو من يسعى للنجاح أن يكتم أمره حتى يتم.

وخلاصة الخلاصة كانت في الصور الإبداعية التي ابتكرها نوح عليه السلام في دعوة قومه، وتعداد الأساليب الدعوية التي مارسها معهم واختلافها وفي هذا درس لكل داعية وكل صاحب فكرة أو مشروع، أن يعدد من وسائله وطرق عرضه لمشروعه وأن يحيط أمره بالسرية والكتمان عن أعدائه ومناوئيه، حتى لا يوقعوا به.

المبحث الثاني

أقوال وأشعار وحكم وأمثال في السرّية والكتمان.

في هذا المبحث سأذكر نماذج من الأقوال والأشعار والحكم والأمثال التي قيلت في السرّية والكتمان، وفي مدح صاحب السر والكتوم، وذمّ المفرط فيهما.

من الأقوال:

حظيت سجية السرّية والكتمان عند العرب قبل الإسلام بمكانة في نفوس الناس لمن كان يتمتع بها، وليس كل الناس يُسَرُّ إليه وليس كل إنسان كتوم، فكتمان السر أمر ثقيل على النفس التي لم تعتد ذلك، فهو في صدر صاحبه يفور كما تفور القدور من تحتها نار تلهبت إلى أن يتبخر من حامله كما تتبخر مياه القدر بالحرارة الشديدة.

وهذه طائفة من الأقوال تتحدث عن هذا الموضوع:

أولاً: قال عمر بن عبد العزيز (١) رضي الله عنه: **{**القلوب أوعية السرائر، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل امرئ مفتاح سرّه.**}** (٢)

ثانياً: **{**إفشاء السر لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار**}** (٣)

ثالثاً: **{**وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به. ومن قبيل السر أخذ الودائع. وإفشاؤه نقيصة على صاحبه فالمفشي للسر خائن . وهذا الخلق قبيح جداً وخاصة بمن يصحب السلاطين ويداخلهم.**}** (٤)

١- عُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز بْن مَرْوَانَ بْن الْحَكَمِ الْقُرَشِيّ الأموي رَضِيَ الله عَنْهُ، وأمه ابنة عاصم بْن عُمَر بن الْخَطَّاب رضي الله عَنْهُ، كان والياً على المدينة ثم نال الخلافة وملك تسعة وعشرين شهراً، مات عمر في الشام سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وثلاثين سنة، البخاري، التاريخ الكبير، بتصرف ٦/١٧٤-١٧٥، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، بدون تاريخ

٢- أبو الحسن الماوردي ، أدب الدنيا والدين، صفحة ٣٠٨، الناشر: دار مكتبة الحياة، بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م

٣- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤/٢٤٨، الناشر: دار المعرفة – بيروت

٤- الجاحظ، تهذيب الأخلاق، صفحة ٣٢، دار الصحابة للتراث بطنطا للنشر والتحقيق والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م .

رابعاً: { وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (١) كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: سِرُّك أَسِيرُك فَإِنْ تَكَلَّمْت بِهِ صِرْت أَسِيرَهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ كُنْ جَوَادًا بِالْمَالِ فِي مَوْضِعِ الْحَقِّ، ضَنِينًا بِالْأَسْرَارِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ. فَإِنَّ أَحْمَدَ جُودِ الْمَرْءِ الْإِنْفَاقُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ، وَالْبُخْلُ بِمَكْتُومِ السِّرِّ.} (٢)

خامساً: {عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (٣) قَالَ: عَجِبْتُ مِنَ الرَّجُلِ يَفِرُّ مِنَ الْقَدَرِ وَهُوَ مُوَاقِعُهُ، وَيَرَى الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَدَعُ الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ، وَيُخْرِجُ الضَّغْنَ مِنْ نَفْسِ أَخِيهِ وَيَدَعُ الضَّغْنَ فِي نَفْسِهِ، وَمَا وَضَعْتُ سِرِّي عِنْدَ أَحَدٍ فَلُمْتُهُ عَلَى إِفْشَائِهِ، وَكَيْفَ أَلُومُهُ وَقَدْ ضِقْتُ بِهِ ذَرْعًا؟} (٤)

سادساً: {رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم، فإذا ظهر، عاتبوا من أخبروا به. فوا عجبًا! كيف ضاقوا بحبسه ذرعًا، ثم لاموا من أفشاه؟!} (٥)

سابعاً: {وإذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر، وتوصف به ضعفة الرجال والصبيان والنساء} (٦)

ثامناً: {إِنَّ سِرَّك مِنْ دَمِك فَانْظُرْ أَيْنَ تُرِيقُهُ} (٧)

تاسعاً: {قال عمر بن الخطاب (٨) رضي الله عنه: من كتم سرّه كان الخيار في يده.} (٩)

عاشراً: {وقال عليّ (١٠) كرّم الله وجهه: الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين السر.} (١١)

١- سبقت ترجمته في صفحة (١٤) هامش (٤)

٢- أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، صفحة ٣٠٦

٣- سبقت ترجمته في صفحة (٩٩) هامش (٤)

٤- أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب إفشاء السر، صفحة ٣٠٥، رقم ٨٨٦، وقال الألباني صحيح، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

٥- ابن الجوزي، صيد الخاطر، فصل في حفظ السر، صفحة ٢٧٣، رقم ٨٦١، الناشر: دارالقلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

٦- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، كتمان السر، صفحة ٢١٢

٧- شمس الدين المقدسي، الآداب الشرعية والمنح المرعية، ٢٦٨/٢، الناشر: عالم الكتب، بدون طبعة وبدون تاريخ

٨- سبقت ترجمته في صفحة (٤) هامش (١)

٩- ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١٤٩/٣، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ

١٠- سبقت ترجمته في صفحة (١٤) هامش (٤)

١١- ابن حمدون، مصدر سابق، ١٤٩/٣

حادي عشر: {أصبر الناس من صبر على كتمان سرّه.} (١)

ثاني عشر: {لا تظهر كوامن صدرك بإذاعة سرّك، فيمكر بك حاسدك، ويظهر عليك معاندك}(٢)

وفي نهاية هذه الأقوال، أقول: أن العرب قبل الإسلام كانت تقدِّر الأسرار، وتعتبر أنه لا يحملها من الرجال ولا يؤتمن عليها إلا كل صاحب نفس كريمة كبيرة، وقوية. فإن الأسرار في قلوب الضعفاء ثقيلة لا يستطيعون حملها، وتوشك أن تتساقط من بين جدران حجرات قلوبهم، وتسقط على تصدعات وشقوق ألسنتهم فتتهاوى بعدها إلى قواقع آذان الآخرين، واعتبروا ذلك ليس من الرجولة في شيء، بل إن من يفعل ذلك صاحب خلق سيء ولئيم طبع، ووصفوا الطبقة التي تقوم بإفشاء الأسرار أنهم ضعفاء الرجال والصبيان والنساء، وأن من كرامة الرجل وقوته أن يحفظ سرّه، فلا يستطيع أحد أن يلويَ ذراعه أو أن يسجل عليه موقفاً يخذله، أو يحرجه في لحظة مواجهة مع صديق أو قريب أو غريب.

وعندما جاء الإسلام أكد على تلك المعاني وحث على الكتمان، ومارسه رسول الله صلى الله عليه وسام في مختلف مراحل حياته الشريفة، واقتدت به الأمة فهي مأمورة بذلك، وأصبح الكتمان واستعماله في الموضع الصحيح كما بينه هذا البحث، نوعاً من العبادة يؤجر فاعله.

أشعار في السرّية والكتمان:

كان للشعر أهمية عند العرب، وأقر الإسلام هذه الأهمية، فقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكْمَةً) (٣)، وأنقل بعض الأشعار التي قيلت في السرّية والكتمان مبوباً إيّاها حسب أغراضها.

١- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ذكر ما قيل في حفظ الأسرار، ٨٣/٦، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ

٢- شهاب الدين النويري، مصدر سابق، ٨٣/٦

٣- أخرجه ابن ماجه في سننه، ٦٨٦/٤ رقم ٣٧٥٥، وقال الألباني صحيح، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

أولاً: في الوصف والفخر بالكتمان:

كريم يميت السر، حتى كأنه، ... إذا استنطقوه عن حديثك، جاهله

رعى سركم في مضمر القلب والحشا، ... شفيق عليكم، لا تخاف غوائله

وأكتم نفسي بعض سري تكرماً، ... إذا ما أضاع السر في الناس حامله (١)

وللسرّ منّي موضع لا يناله ... نديم ولا يفضي إليه شراب (٢)

وإن ضيع الأحرار سراً، فإنني ... كتوم لأسرار العشير، أمين

يكون له عندي إذا ما ضمنته ... مكان بسوداء الفؤاد مكين (٣)

ثانياً: الحرص على الكتمان مع وجود الأذى والمعاناة:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم، ... حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا

لأخرجن من الدنيا وسرهم ... بين الجوانح، لم يعلم به أحد (٤)

ثالثاً: الفخر ونجاح المهمة:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ جهدوا

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا

حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد (٥)

رابعاً: صفات بعض الناس:

أناس أمنّاهم فنمّوا حديثنا ... فلما كتمنا السرّ عنهم تقوّلوا (٦)

١- الشاعر كثير عزة، أبو الطيب الوشاء، الموشى، باب الترغيب في حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر، صفحة ٤٨، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر – مطبعة الاعتماد، الطبعة الثانية، ١٣٧١ هـ-١٩٥٣ م

٢- الشاعر أبو الطيب المتنبي، الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ

٣- الشاعر أحمد بن الحطيم، الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، صفحة ٥٠

٤- الشاعر بشار بن برد، الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، صفحة ٥٠

٥- الشاعر أبو مسلم الخراساني، ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، باب أشعار في صون السر، ١٥٣/٣

٦- الشاعر أبو إسحق الموصلي، ابن حمدون، مصدر سابق، باب أشعار في صون السر، ١٥٩/٣

خامساً: وصية:

ولا يسمعن سرّى وسرّك ثالث ... ألا كلّ سرّ جاوز اثنين ضائع (١)

سادساً: في التشبيه:

كريم يميت السرّ حتى كأنه ... عم بنواحي أمره وهو خابر (٢)

سابعاً: النصيحة:

لا تفشِ سِرَّكَ إلا عند ذي ثقةٍ ... أولا، فأفضلُ ما استودَعْتَ أسرارا

صدراً رَحيبا وقالباً واسعاً صمتاً ... لم تخشَ منه لما استودَعْتَ إظهارا (٣)

إذا المرءُ لم يحفظْ سريرةَ نفسِه ... فلا تفشينْ يوماً إليه حديثا (٤)

ثامناً: مدح النفس في الكتمان:

وسِرُّكُمْ في الحشا ميتٌ ... إذا انتشرَ السرُّ لا ينشرُ

وإفشاءُ ما أنا مستودعٌ ... من الغَدْرِ والحرُّ لا يغدرُ (٥)

وما السرُّ في صدري كميتٍ بقبرِه ... لأني رأيتُ الميتَ ينتظر النشرا

ولكنني أُخفِيْهِ حتى كأنني ... بما كانَ منه لم أحطْ ساعةً خبرا

وللسرِّ فيما بين جنبيَّ مكمنٌ ... خفيٌ قصيٌ عن مدارجِ أنفاسي (٦)

تاسعاً: الحكمة:

لاتفشِ سِراً ما استطعْتَ إلى امرئٍ ... يفشي إليك سرائراً يُسْتَوْدَعُ

١- الشاعر جميل بثينة، شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، باب ذكر ما قيل في حفظ الأسرار ٨٥/٦

٢- الشاعر الأحوص، عبد الرحمن البرقوقي، الذخائر والعبقريات، باب الممدوح بحفظ السر، ٦٨/٢، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر، بدون طبعة وبدون تاريخ

٣- الشاعر كعب بن زهير، أحمد نجيب، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، باب السر وكتمانه ٤٧١/٤، بدون طبعة وبدون تاريخ

٤- الشاعر يحي بن زياد، أحمد نجيب، مصدر سابق، ٤٧٢/٤

٥- الشاعر أبو الطيب المتنبي، أحمد نجيب، مصدر سابق، ٤٧٣/٤

٦- الشاعر بشار بن برد، أحمد نجيب، مصدر سابق، ٤٧٤/٤

فكما تراهُ بسرِّ غيرِكَ صانعاً ... فكذا بسِّركَ لا محالة يصنعُ (١)
إذا المرءُ أفشى سِرَّهُ بلسانهِ ... ولامَ عليه غيرَهُ فهو أحمقُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِه ... فصدرُ الذي يستودعُ السرَّ أضيقُ (٢)
سِرُّ الفتى من دمِه إن فَشا ... فأولِه حفظاً وكِتماناً
واحتطْ على السرِّ بإخفائِه ... فإن للحيطانِ آذاناً (٣)

عاشراً: الذم لغير الكتوم:
إذا المرءُ لم يحفظْ سريرةَ نفسِه ... وكان لسرِّ الأخِ غيرَ كتومِ
فبعداً له من ذي أخٍ ومودةٍ ... وليس على ودٍ له بمقيمِ (٤)
وَلا خَيرَ في خِلٍّ يَخونُ خَليلَهُ ... وَيَلقاهُ مِن بَعدِ المَوَدَّةِ بِالجَفا
وَيُنكِرُ عَيشاً قَد تَقادَمَ عَهدُهُ ... وَيُظهِرُ سِرّاً كانَ بِالأَمسِ قَد خَفا (٥)

حادي عشر: مكارم الأخلاق:
أسعدُ الناسِ من يكاتمُ سرَّه ... ويرى بذلَه عليه معرَّهْ
إنما يعرفُ اللبيبُ إذا ما ... حفظَ السرَّ عن أخيْهِ فسرَّهْ
إن يجدْ مرةً حلاوةَ شكوا ... هُ سيلقى ندامةً ألفَ مرةْ (٦)

في ختام هذه الطائفة من الأشعار التي بينت مكانة السرّ عند العرب في أشعارهم قبل الإسلام وبعده، وقد كانت القبائل العربية تفتخر بوجود الشعراء فيها، ويعتبرون هذا مزية من مزايا قوة القبيلة، ومن هذه الطائفة الشعرية ظهرت مكانة السرّ وصفات حامله، فوصفوا مُستودَعَ السر أنه كريم في نفسه، شفوق على صاحب السر، وافتخروا بمن جعل

١- الشاعر علي بن أبي طالب، أحمد نجيب، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، باب السر وكتمانه، ٤٧٧/٤
٢- الشاعر الإمام الشافعي، أحمد نجيب، مصدر سابق، ٤٧٨/٤
٣- الشاعر أبو النصر الأبيوردي، أحمد نجيب، مصدر سابق ، ٤٨١/٤
٤- الشاعر محمد بن إسحاق الواسطي، أحمد نجيب، مصدر سابق ، ٤٩١/٤
٥- الشاعر الإمام الشافعي، القاضي/حسين بن محمد المهدي، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال ٦٦٧/١ ، الناشر: دار الكتاب لسنة ٢٠٠٩م
٦- الشاعر ابن الكيزان، القاضي/حسين بن محمد المهدي، مصدر سابق، ٤٩٩/٤

صدره للسر قبراً، حتى وإن ناله الأذى من حمل هذا السر فلا يبوح به، ويحتمل أذاه.

ويحفظ بعض أصحاب المصالح العليا أسرارهم حتى يحققوا أهدافهم، ويقضوا حوائجهم، وفي أشعارهم ظهرت الوصية في المحافظة على السر، ومدحوا الكتوم من الرجال وذمّوا صاحب فلتات اللسان الذي لا يحفظ سراً، وأوصوا بعضهم بكيفية حفظ السر، وعند من يُستودع، وأن إفشاء السر من الغدر، وليس الغدر من صفات الأحرار وفي أشعارهم اعتبروا كتم الأسرار من مكارم الأخلاق، إلى أن بلغ بهم الأمر إلى النهي عن مصادقة من لا يكتم السر، والتحذير من إفشاء السر، وخطورة ذلك على إمكانية إراقة الدماء، وما ذلك كله إلا للتأكيد على أهمية الكتمان في الحياة وأنه سبب من أسباب الأمن الشخصي.

حكم وأمثال في السرّية والكتمان:

الحكم والأمثال لها مكانة في لغة العرب فهي كلمات قليلة تدل على قصة من ورائها واستعملها العرب للدلالة والإشارة، وفيما يتعلق بالسرّية والكتمان منها:

أولاً: السِّرُّ أَمَانَة. قاله بعض الحكماء، وفي الحديث... "إذا حَدَّثَ الرجل بحديث، ثم الْتَفَتَ، فهو أمانة" (١)

ثانياً: سرّك من دمك. أي ربّما كان من إضاعة سرّك إراقة دمك. (٢)

ثالثاً: صَدْرُكَ أَوْسَعُ لِسِرِّكَ. يضرب في الحثِّ على كتمان السر. يقال: مَنْ طلب لسره موضعاً فقد أفشاه، وقيل لأعرابي: كيف كِتْمَانك للسر؟ قال: أنا لَحْدُه. (٣)

رابعاً: صاحب سرٍّ فطنته في غربة. (٤) أي أنه لا يدري كيف يدبره ويحفظه حتى يضيعه

خامساً: لا تفش سرك إلى أمةٍ ولا تبل على أكمة. (٥)

١- أبو الفضل النيسابوريي، مجمع الأمثال، الباب الثاني عشر فيما أوله سين، ٣٣١/١، رقم ١٧٧٨ والحديث سبق تخريجه في صفحة (٩٨) هامش (٢)

٢- أبو الخير الهاشمي، الأمثال، ما جاء على حرف السين، ١٤٦/١، برقم ٧١٨، الناشر: دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ

٣- أبو الفضل النيسابوري، مجمع الأمثال، الباب الرابع عشر فيما أوله صاد، ٣٩٦/١، برقم ٢٠٩٧

٤- أبو الفضل النيسابوري، مصدر سابق، ٤٠٣/١، برقم ٢١٢٣

٥- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، الأمثال، باب حفظ اللسان في كتمان السر وترك النطق به، صفحة ٥٧، وهذا القول لأكثم بن صيفي. الناشر: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م

سادساً: أملك الناس لنفسه من كتم سره من صديقه وخليله. ذلك للنظر في العاقبة ألّا يتغير الذي بينهما يوماً ما فيفشي سره. (١)

سابعاً: فافعل ما تريد ليلاً فإنه أستر لسرك. (٢)

ثامناً: سرك أسيرك فَإذا تَكَلَّمت بِهِ صرت أسيره. (٣)

تاسعاً: من أفشى سره كثر عَلَيْهِ المتآمرون (٤)

عاشراً: إياكَ وَأنْ يَضْرِبَ لِسَانُكَ عُنُقَكَ. (أي: إياك أن تَلْفِظَ بما فيه هلاكك، ونُسِبَ الضربُ إلى اللسان لأنه السبب) (٥)

بمعنى أوضح، أكتم سرك، فافتضاحه يوشك أن يقتلك، خاصة إن كان متعلقاً بالسلطان أو الدماء أو الأعراض.

حادي عشر: اجْعَلُه فِي وِعَاءِ غَيْرِ سَرِبٍ.

(يضرب في كتمان السر وأصله في السِّقَاء السائل، وهو السَّرِبُ يقول: لا تُبْدِ سرَّك إبداء السقاءِ ماءه، وتقديره: اجعله في وِعاء غيرِ سَرِبٍ ماؤه. لأن السَّيَلان يكون للماء). (٦)

والحقيقة أن من له علاقات اجتماعية واسعة مع أطياف المجتمع الذي يعيش فيه، بحيث أن علاقاته من ألوان مختلفة من فئات المجتمع يرى ويسمع الكثير من الأسرار ويعلم مدى خطورة بعضها وأنها لو تكشفت لسالت بسببها الدماء، ومن هنا تظهر أهمية الحفاظ على الأسرار شخصية كانت أم عامة، للفرد أو للجماعة فالسر يكاد يقتل صاحبه إن لم يحفظه من الإفلات.

ثاني عشر: أضعف الناس من ضعف عن كتمان سره. (٧)

وأنّى لضعيف نجاح أو تحقيق هدف.

١- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، الأمثال، باب حفظ اللسان في كتمان السر وترك النطق به، صفحة ٥٨

٢- أبو عبيد القاسم بن سلاّم، مصدر سابق، صفحة ٦١

٣- أبو الحسن الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، صفحة ٩٠، والقول لعلي بن أبي طالب، الناشر: دار النهضة العربية – بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ

٤- أبو الحسن الماوردي، درر السلوك في سياسة الملوك، صفحة ٧٢، الناشر: دار الوطن – الرياض، بدون طبعة وبدون تاريخ

٥- أبو الفضل النيسابوري، مجمع الأمثال، الباب الأول فيما أوله همزة ٥٣/١، رقم ٢١٧

٦- أبو الفضل النيسابوري، مصدر سابق، ١٦٧/١ برقم ٨٧٦

٧- أحمد الأنصاري، نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، الباب الخامس، تغريد الصادح، صفحة ١٦٤ الناشر: مطبعة التقدم العلمية، مصر، الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ

من هذه الحكم نتعلم ونتذكر أحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام، وسيرته العطرة، ومكانة السرّية والكتمان فيهما، وأن التفريط في السر خيانة، وأنه قد يسبب سفك الدماء، وأن صاحب السر أولى بحفظه وحمله فهو ثقيل، وإن كان على صاحبه ثقيل فهو على غير صاحبه أثقل حتى يتخفف منه بإشاعته، وكان في الحِكَمِ وصية بطريقة المحافظة على الأسرار، وأن خروجها يؤلب عليك الحاسدين والأعداء، وربما أدى ذلك إلى وقوع الضرر أو الابتزاز والوقوع تحت ضغوطهم لمعرفتهم نقطة ضعفك ممّا تكشّف من أسرارك، واعتبروا أن من أضعف الناس من ضَعُف عن كتمان سره.

الخاتمة

في ختام هذا البحث ومن خلال هذه الدراسة وبعد المرور بالآيات الكريمة ذات الصلة، والأحاديث الشريفة والسيرة العطرة لرسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات وأزكى السلام، وسيرة أصحابه الكرام، يتضح أنّ مستقبل أمتنا مرهون بعودتها لشرع الله الحنيف وتطبيقها له في حياتها وتحاكمها إليه في كل أحوالها.

وقد أوصلنا هذا البحث إلى أنه يتوجب على الأمة أن تهتم اهتماما كبيراً بموضوع السرّية والكتمان، وأن هذا الأمر عنصر رئيس من عناصر النصر والسيادة، ومن خلال ما تقدم من دراسة للتوجيهات القرآنية، والسيرة النبوية، اتضحت وبرزت أهمية السرّية والكتمان وأنها من أهم الأمور التي تساعد على إنجاح المهام والوصول إلى الهدف بأقل الخسائر.

وبرز لنا جلياً أن المباغتة وهي عنصر مهم من عناصر النصر على العدو وإيقاع الهزيمة في صفوفه، لا تتأتى إلا بغطاء كثيف من السرّية والكتمان، ومن خلال دراسة السيرة النبوية، ما كانت السرية والكتمان في غزوة من غزوات الرسول ﷺ إلا كان النصر نتيجة تلك الغزوة، وحريّ بأمة محمد ﷺ أن تتعبد الله بتطبيقها مبدأ السرّية والكتمان في مناحي حياتها كلها امتثالاً لأوامر الله سبحانه وتعالى.

إنّ في القرآن الكريم والسنة النبوية من التوجيهات والتعليمات، ما لو التزمتها الأمة لتغير حالها لأفضل حال، ولوصلت إلى ما يحبه الله ويرضاه، ومن هذه التوجيهات السرّية والكتمان، ولهما مكانة كبيرة وأهمية قصوى في نصر الأمة، والحفاظ على مكتسباتها، ومقومات وجودها، وفرضها الاحترام لها على أعدائها، ونظراً لأن الأمة لم تذق طعم النصر منذ زمن بعيد، فإنها ما زالت تتهاون بموضوع السرّية والكتمان، والذي تبين من الدراسة أهميته القصوى.

حيث حاول اليهود في فجر رسالة محمد ﷺ كتمان نبوة رسولنا الكريم، قاصدين عامدين، وهم يعلمون كذب ما يفعلون، ولكنّ الله الذي يعلم السر وأخفى فضحهم، وبين افتراءاتهم، وبين أنهم أصحاب بهت يرمون غيرهم بجرائمهم، ونحن نرى طباعهم اليوم

في قضية المسلمين الأولى فلسطين، وبين الله لنا أخلاقهم، من كتمان للعلم، وكتمان للشهادة، ووقوعهم تحت اللعن، وينسحب ذلك على كل من اتصف بصفاتهم، وإن كان من غير جلدتهم، وتوعدهم الله بالعذاب الأليم.

كما تبين من خلال الدراسة، أنّ حبل الكتمان المذموم قصير، وهو ما يمارسه بعض الساسة على شعوبهم من كذب ودجل، وزيف وخداع، ولا بد من لحظة ينقطع فيها، ويسقط من تمسك به في مهاوي الردى، وبالمقابل فإنّ الكتمان المحمود الذي تجلّى في كتمان مؤمن آل فرعون لإيمانه جاء بنتائج طيبة جداً للدعوة، وأوصلها إلى فرعون بسلاسة ويسر، وهذا من ذكاء وفطنة الداعية وحسن فهمه لمصلحة الدعوة، ومعرفة متى يُسِرُ بالدعوة ومتى يجهر بها.

كما اتضح من خلال الدراسة أيضاً، أنّ الكتمان مطلوب لإنجاح الحوائج الشخصية، وهو من باب أولى مطلوب لما فيه مصلحة الجماعة، أو الأمة، وأنّ مكر أعداء هذه الأمة بها عبر التاريخ، وأنّ السرّية والكتمان هما الدرع الواقي لهذه الأمة ومبادئها، وسبب من أسباب سيادتها وكينونتها، وقد ظهر بشكل واضح جليّ، الفهم الصحيح لمعنى السرّية والكتمان في المجتمع النبوي بجميع أطيافه، من نساء، وغلمان، ورجال، وقادة، وأفراد، ويكفينا هذا للوقوف على أهمية السرّية والكتمان في حفظ أمن الفرد، والمجتمع، ومصالح الدولة.

بعد هذه الدراسة المتواضعة في مجال السرّية والكتمان، ولأهميتها فإنني أوصي كل فرد من أفراد هذه الأمة الكريمة وكل قائد أو صاحب نفوذ في أي مجال من المجالات أن يجعل له نصيباً وافراً في حياته من السرّية والكتمان يتحلى به في الكثير من الأمور حتى عن أقرب الناس إليه وقد برز هذا في البحث في قصتي لوط ويوسف عليهما السلام.

وأوصي أحبائي الباحثين من بعدي أن يزيدوا من الأبحاث في هذا الجانب المهم في حياة أمتنا، حيث كانت المشكلة أمامي في هذا البحث، أنني لم أجد مراجع ومصادر متخصصة في هذا الجانب المهم، كما أوصي الجهات المتنفذة في مجتمعاتنا بالعمل على إنشاء مراكز للبحث العلمي المختص في المجال التقني العلمي والفني وتفريغ بعض أصحاب العقول المبدعة والحريصة على الأمة للبحث في كيفية المحافظة على

خصوصيات الأمة من التجسس والاختراق والسرقة في ظل وجود أنظمة التجسس العالمية، وإيجاد أنظمة مضادة لأنظمة التجسس العالمية، ومنظومة تقنية خاصة بأمتنا لتقاوم أنظمة التجسس والاختراق المعادية وتحافظ على أسرار أمتنا.

وكما أبدع نوح عليه السلام في فن الدعوة إلى الله فإنني أدعو الباحثين إلى الإبداع في ابتكار الوسائل التي من شأنها المحافظة على خصوصيات الأمة، فمن لهذه المهمة من أصحاب العقول المبدعة؟ ليقابلوا العقول بالعقول والإبداع بالإبداع، ولتتمكن عقول مبدعينا من التغلب على عقول أعداء الأمة، عسى الله أن يغير من أحوال الأمة، وتعود كسابق عهدها في مقدمة الأمم والركب العلمي، لتعود لسيادتها المفقودة، وتتبوأ مكانتها الريادية والقيادية، وذلك بتطبيقها لشرع الله الحنيف، وفي نهاية مشوار البحث، أسأل الله القبول والسداد والرشاد، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، وما كان فيه من توفيق فمن الله أولاً ثم من المشرف على هذا البحث، حفظه الله ورعاه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً : كتب التفسير

- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ
- ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م
- أبو السعود، تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ
- أبو الطيب محمد صديق القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن، الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا، بَيروت ١٤١٢ هـ، بدون طبعة
- أبو العباس أحمد بن محمد بن الفاسي الصوفي، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة ١٤١٩هـ
- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، الناشر: دار الفكر، بيروت الطبعة، ١٤٢٠ هـ
- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ينسب: لعبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ
- جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الناشر: دار الفكر، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ
- الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى١٤٢٠ هـ
- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، الناشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ
- سعيد حوّى، الأساس في التفسير، الناشر: دار السلام – القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٤ هـ

- سيد قطب، في ظلال القرآن، الناشر دار الشروق، الطبعة الثانية والثلاثون، سنة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م
- شمس الدين الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، عام ١٢٨٥ هـ
- الشوكاني، فتح القدير، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ
- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
- عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ
- علاء الدين الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م
- لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، مؤسسة الأهرام، الطبعة الثامنة عشر، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م
- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م، بدون طبعة
- محمد متولي، تفسير الشعراوي، - الخواطر- الناشر: مطابع أخبار اليوم، بدون طبعة وبدون تاريخ
- النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
- نعمة الله النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، الناشر: دار ركابي للنشر، الغورية، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م
- أبو الحسن الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

ثالثاً: كتب الحديث

- ابن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ
- ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ – ١٩٩٣
- ابن ماجة، سنن ابن ماجة، الناشر: دار الرسالة العالمية الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م
- أبو داود، سنن أبي داوود، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ– ٢٠٠ م
- أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر: السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م
- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى١٤٢١هـ– ٢٠٠١ م
- البخاري، صحيح الأدب المفرد، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع الطبعة الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م
- البخاري، صحيح البخاري، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ
- البيهقي، شعب الإيمان، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م
- الترمذي، سنن الترمذي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م
- الطبراني، المعجم الأوسط، الناشر: دار الحرمين، القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ
- مسلم، صحيح مسلم، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ
- ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى
- أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة الطبعة الثانية، بدون تاريخ

رابعاً: كتب السيرة

- ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م
- ابن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، الناشر: مطبعة دار التأليف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م
- ابن كثير، السيرة النبوية (من البداية والنهاية)، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م
- أبو أسماء محمد بن طه، الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية بترتيب أحداث السيرة النبوية، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دار سبل السلام، الفيوم، الطبعة الثانية، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م
- أبو الشيخ الأصبهاني، أخلاق النبي وآدابه، الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٨
- أبو الفرج علي بن إبراهيم الحلبي، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ
- أبو القاسم السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ
- أبو بكر البيهقي، دلائل النبوة، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- أبو عبد الله الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م
- أبو عبد الله الواقدي، المغازي، الناشر: دار الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- بريك العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، جمادى الأول، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م
- تقي الدين المقريزي، إمتاع الأسماع، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م
- جمال الدين ابن حديدة، المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، بدون طبعة أو تاريخ.
- عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م

- محمد أبو الفتح، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، الناشر: دار القلم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م
- محمد أبو فارس، المدرسة النبوية العسكرية، الناشر دار الفرقان، عمّان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م
- محمد الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
- محمد بن إسحاق، السير والمغازي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
- محمد بن صامل السُّلَميُّ وآخرون معه، صَحِيحُ الأثَر وجَمَيلُ العبر من سيرة خير البشر الناشر: مكتبة روائع المملكة، جدة الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م
- مصطفى السباعي، السيرة النبوية، دروس وعبر، الناشر: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م
- منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، الناشر: مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، الطبعة السادسة، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م
- النمري، الحافظ بن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ

خامساً: كتب الفقه وأصوله

- ابن المنذر النيسابوري، الإقناع، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ، بدون ناشر
- احمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، الناشر: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م بدون مكان النشر
- كمال الدين بن الهمام، فتح القدير، الناشر: دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ
- منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، مجلة مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، العدد الثامن، بدون تاريخ

سادساً: كتب التاريخ

- ابن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، الناشر: دار إحياء التراث العربي الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
- عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م
- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، الناشر: دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧ هـ

سابعاً: كتب السياسة الشرعية

- أبو الحسن الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، الناشر: دار النهضة العربية، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ
- أبو الحسن الماوردي، درر السلوك في سياسة الملوك، الناشر: دار الوطن، الرياض، بدون طبعة وبدون تاريخ

ثامناً: كتب التراجم والطبقات

- ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ
- ابن سعد، الطبقات الكبرى، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى،١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م
- ابن مندة، معرفة الصحابة، الناشر: مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
- أبو الحسن العجلي، تاريخ الثقات، الناشر: مكتبة الدار- المدينة المنورة - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م
- أبو القاسم البغوي، معجم الصحابة، الناشر: مكتبة دار البيان – الكويت الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م
- أبو حاتم الدارمي، مشاهير علماء الأمصار، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

- أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
- البخاري، التاريخ الكبير، الطبعة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، بدون تاريخ
- الزركلي، الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين الطبعة الخامسة عشر، أيار، مايو ٢٠٠٢ م
- عز الدين بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م
- يوسف بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

تاسعاً: كتب الغريب والمعاجم

- ابن منظور، لسان العرب، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ
- أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، الناشر: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- عبد الرؤوف بن تاج العارفين، التوقيف على مهمات التعاريف، الناشر: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

عاشراً: كتب الرقائق والآداب والأذكار

- (مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف)، موسوعة الأخلاق الإسلامية، الناشر: موقع الدرر السنية، ١٤٣٣هـ
- ابن الجوزي، صيد الخاطر، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
- ابن حبان، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ
- أبو الحسن الماوردي ، أدب الدنيا والدين، الناشر: دار مكتبة الحياة، بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الناشر: دار المعرفة، بيروت، بدون طبعة أو تاريخ
- الجاحظ، تهذيب الأخلاق، دار الصحابة للتراث بطنطا للنشر والتحقيق والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م .
- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار النشر: دار السلام، القاهرة ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

- شمس الدين المقدسي، الآداب الشرعية والمنح المرعية، الناشر: عالم الكتب، بدون طبعة وبدون تاريخ

حادي عشر: كتب اللغة

- ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ
- أبو الخير الهاشمي، الأمثال، الناشر: دار سعد الدين، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ
- أبو الطيب الوشاء، الموشّى، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر، مطبعة الاعتماد، الطبعة الثانية، ١٣٧١ هـ – ١٩٥٣ م
- أبو الفضل النيسابوريي، مجمع الأمثال، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، الأمثال، الناشر: دار المأمون للتراث الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م
- أحمد الأنصاري، نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، الناشر: مطبعة التقدم العلمية، مصر، الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ
- أحمد قبش بن محمد نجيب، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، بدون طبعة وبدون تاريخ
- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ
- شهاب الدين المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ
- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ
- عبد الرحمن البرقوقي، الذخائر والعبقريات، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر، بدون طبعة وبدون تاريخ
- القاضي/حسين بن محمد المهدي، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، الناشر: دار الكتاب لسنة ٢٠٠٩م، بدون طبعة

ثاني عشر: كتب الجغرافيا

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م

ثالث عشر: كتب الأنساب

- أبو العباس القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢ م
- أبو العباس القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، الناشر: دار الكتاب اللبنانيين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

رابع عشر: كتب متفرقة

- ألبرت ميرغلن، حرب المباغتة، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت-الطبعة الثانية ١٩٨٩
- رابط تقرير فلم صفقة الأحرار/ قناة الجزيرة
http://www.aljazeera.net/programs/aljazeeraspecialprograms/2016/2/2/
- صن تزو، فن الحرب، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٠
- يغال آلون، إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي، الناشر: دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧١

فهرس الآيات القرآنية

سورة البقرة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ	٣٠	٢١
قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ	٣٣	٢١
وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ	٣٣	١٣٧
وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ	٤٢	٢٥
إنّ اللهَ يَأمُرُكُم أن تَذبَحوا بَقَرَة	٦٧	٢٦
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ	٧٢	٢٦
أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ	٧٧	٤٩
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ	١٤٠	٢٧
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ	١٤٠	١٨
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ	١٤٦	٢٥
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ	١٥٩	١٩
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ	١٥٩	٣٠
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ	١٧٤	٣١
وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ	٢٢٨	٣٣
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ	٢٣٥	٦٤
وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ	٢٣٥	٦٥
الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً	٢٧٤	٦٨
وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ	٢٨٣	٢٨
وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ	٢٨٣	١٤
وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ	٢٨٣	١٨

سورة آل عمران

الآية	رقمها	رقم الصفحة
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ	٧١	٢٥
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ	١١٨	٤٥
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا	١٦٧	٣٤
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ	١٨٧	٣١

سورة النساء

الآية	رقمها	رقم الصفحة
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم	١	٥٢
الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ	٣٧	٣٢
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ	٤٢	٣٦
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ	٧١	٢٠
يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم	٧١	٤٧

سورة المائدة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا	٢٣	ج
ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ	٢٣	٢٠
فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ	٥٢	٧٢
وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ	٦١	٣٥
مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ	٩٩	٢٢
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ	١٠٦	٣٧

سورة الأنعام

الآية	رقمها	رقم الصفحة
وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ	٣	٥٠

سورة براءة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا	٣٤	٦٩
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ	٨٧	٥١

سورة يونس

الآية	رقمها	رقم الصفحة
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ	٥٤	١٣
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ	٥٤	٧٥

سورة هود

الآية	رقمها	رقم الصفحة
أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ	٥	٥٢
فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا	٢٧	١٤٧
وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ	٣٦	١٤٧
إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ	٣٨	١٤٥
وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ	٤٠	١٤٦

سورة يوسف

الآية	رقمها	رقم الصفحة
نَحْنُ نَقُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ	٣	١٤١
إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ	٤	٤٣
قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ	٥	٤٣
يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ	٥	١٤١
وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ	٦	١٤١
لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ	٨	١٤٢
اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ	٩	١٤٢
وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ	١٩	٧٧
وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ	١٩	١٤٢
قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً	١٩	١٤٩
قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ	٧٧	٧٨

سورة الرعد

الآية	رقمها	رقم الصفحة
سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ	١٠	٥٤
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواالصَّلَاة	٢٢	٧٠

سورة إبراهيم

الآية	رقمها	رقم الصفحة
قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا	٣١	٧٠

سورة النحل

الآية	رقمها	رقم الصفحة
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ	١٩	٥٤
لاجرم أن الله يعلم ما يُسرّون وما يُعلنون	٢٣	٥٥
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ	٧٥	٧١

سورة الإسراء

الآية	رقمها	رقم الصفحة
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا	٥١	ح

سورة الكهف

الآية	رقمها	رقم الصفحة
وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ	١٩	٨٩

سورة طه

الآية	رقمها	رقم الصفحة
وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى	٧	٥٥
فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى	٦٢	٥٦

سورة الأنبياء

الآية	رقمها	رقم الصفحة
لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا	٣	٥٧
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ	١١٠	٢٢

سورة النور

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ	١١	٤٤
لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ	٢٩	٢٣

سورة الفرقان

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	٦	٥٧

سورة القصص

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
إِنَ فِرْعَوْنَ عَلَا فَي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعًا	٤	١٤٣
وأوحينا إلىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ	٧	٨٦
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا	١٠	١٤٣

سورة العنكبوت

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلا خَمْسِينَ عَاماً	١٤	١٤٤
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً	٦٧	٤١

سورة الأحزاب

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ	٢١	٨٣

سورة سبأ

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا	٣٣	٧٦
وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ	٣٩	٦٩

سورة فاطر

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا	٢٩	٧٢

سورة يس

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ	٧٦	٥٩

سورة غافر

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ	٢٨	٣٨

سورة الشورى

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا	٤٠	٧٠

سورة الزخرف

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم	٨٠	٦٠

سورة محمد

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ	٢٦	٦١

سورة الفتح

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا	١	١١٠

سورة القمر

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ	١٠	١٤٩

سورة الممتحنة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ	١	٨١

سورة التغابن

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ	٤	٦١

سورة التحريم

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا	٣	٦٦

سورة الملك

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ	١٣	٦٢
أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ	١٤	٥٠

سورة نوح

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ	١	١٤٥
أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ	٣	١٤٥
يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى	٤	١٤٦
قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً	٥	١٤٦
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلاَّ فِراراً	٦	١٤٦
وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ	٧	١٤٦
ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً	٨	١٤٦
ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا	٩	٨٠
ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً	٩	١٤٦
رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا	٢٦	١٤٥

سورة الطارق

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ	٩	٦٣

سورة قريش

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ	١	٤١

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث	المصدر	الراوي	رقم الصفحة
إن من أشرّ الناس عند الله منزلة	صحيح مسلم	مسلم	١٣
إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة	شعب الإيمان	البيهقي	١٦
المجالس بالأمانة إلا ثلاثة	سنن أبي داود	أبو داود	١٦
الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ	صحيح مسلم	مسلم	١٧
من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته	سنن الترمذي	الترمذي	١٧
اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ	المعجم الأوسط	الطبراني	١٧
الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ	صحيح مسلم	مسلم	١٨
من سُئِلَ عن علم فكتمه	سنن أبي داود	أبو داود	١٩
مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا	صحيح مسلم	مسلم	١٩
من غش فليس منا	سنن الترمذي	الترمذي	١٩
البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا	صحيح البخاري	البخاري	١٩
فإنّ كل ذي نعمة محسود	المعجم الأوسط	الطبراني	٢٠
استعينوا على إنجاح الحوائج	المعجم الأوسط	الطبراني	٢٠
من أخذ شبراً من الأرض ظلماً	حلية الأولياء	أبو نعيم	٢٩
إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ	صحيح البخاري	البخاري	٢٩
واعلم أن الأمة لو اجتمعت	سنن الترمذي	الترمذي	٣١
ثلاث مَن كنّ فيه فهو منافق	صحيح ابن حبان	ابن حبان	٣٢
استعينوا على إنجاح الحوائج	المعجم الأوسط	الطبراني	٤٤
مَن أصبَح مُعافًى في بدنِه آمنًا في سِربِه	صحيح ابن حبان	ابن حبان	٤٤
ومن ستر عَلَى مسلم ستر الله عليه	صحيح مسلم	مسلم	٤٥
كل أمتي معافى إلا المجاهرين	صحيح البخاري	البخاري	٤٦
البِرُّ حُسنُ الخُلُقِ	صحيح مسلم	مسلم	٤٦
ثلاث مَن كنّ فيه فهو منافق	صحيح ابن حبان	ابن حبان	٥٢
سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ	صحيح البخاري	البخاري	٥٨
كان تاجر يُدَاين النَّاس، فإذا رأى مُعْسِرًا	صحيح البخاري	البخاري	٥٩
لكل غادرٌ لواءٌ عندَ أستهِ يومَ القيامةِ	صحيح مسلم	مسلم	٦٠
أَمَّا أَبُو جَهْمٍ، فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ	صحيح مسلم	مسلم	٦٥
ما نقصت صدقة من مال	صحيح مسلم	مسلم	٦٩

الحديث	المصدر	الراوي	رقم الصفحة
أنفق يا ابن آدم ينفق عليك	صحيح البخاري	البخاري	٦٩
أيما أهل عرصة ظلّ فيهم امرؤ جائع	المصنف	ابن أبي شيبة	٦٩
وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين	صحيح ابن حبان	ابن حبان	٧٥
المسلم أخو المسلم	صحيح مسلم	مسلم	٨١
أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ...وَهُوَ مُرْدِفٌ أَبَا بَكْرٍ	صحيح البخاري	البخاري	٩٦
اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ	المعجم الأوسط	الطبراني	٩٦
الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ	صحيح مسلم	مسلم	٩٧
ثلاث مَن كنّ فيه فهو منافق	صحيح ابن حبان	ابن حبان	٩٨
إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة	شعب الإيمان	البيهقي	٩٨
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر	صحيح البخاري	البخاري	٩٩
استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان	المعجم الأوسط	الطبراني	١٠٢
مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ	صحيح البخاري	البخاري	١٠٣
أَغَارَ عَلَى بَنِي المُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ	صحيح البخاري	البخاري	١٠٧
قُمْ يَا حُذَيْفَةُ	صحيح مسلم	مسلم	١٠٧
اللهُمَّ عَمِّ عَلَيْهِمْ خَبَرَنَا حَتَّى نَأْخُذَهُمْ بَغْتَةً	المعجم الكبير	الطبراني	١١٣
كُنتُ رجلًا مِن غِفارٍ	صحيح البخاري	البخاري	١١٧
أتى علي رسول الله ﷺ- وأنا ألعب	صحيح مسلم	مسلم	١٢١
كنَّ أزواج النَّبي ﷺ عنده لم يغادر منهن	صحيح مسلم	مسلم	١٢١
بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَبِي رَافِع	صحيح البخاري	البخاري	١٢١
خيارُ أئمَّتِكم الذين تحبُّونَهم ويحبُّونكم	صحيح مسلم	مسلم	١٣٥
عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: عَجِبْتُ مِنَ الرَّجُلِ	الأدب المفرد	البخاري	١٥٢
إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكْمَةً	سنن ابن ماجة	ابن ماجة	١٥٣

فهرس الأعلام المترجم لها

الرقم	الاسم أو الكنية	رقم الصفحة
١	عمر بن الخطاب	ج
٢	علي بن أبي طالب	١٤
٣	معاوية بن أبي سفيان	١٨
٤	أبو الجهم	١٩
٥	عبد الله بن عباس	٢١
٦	قتادة السدوسي	٣٢
٧	عبد الله بن أبيّ بن سلول	٣٤
٨	أبو بكر الصديق	٤٥
٩	ابن أم مكتوم	٦٥
١٠	أسامة بن زيد	٦٥
١١	حفصة بنت عمر	٦٦
١٢	مارية القبطية	٦٦
١٣	عائشة بنت أبي بكر	٦٧
١٤	سعيد بن جبير	٧٩
١٥	الأرقم بن أبي الأرقم	٨٣
١٦	أسماء بنت أبي بكر	٨٥
١٧	عامر بن فهيرة	٩٥
١٨	عبد الله بن أبي بكر	٩٥
١٩	عبد الله بن أريقط	٩٥
٢٠	حذيفة بن اليمان	٩٧
٢١	أبو سفيان بن حرب	٩٩
٢٢	عمرو بن العاص	٩٩
٢٣	عبد الله بن جحش	١٠١
٢٤	سالم بن عمير	١٠٢
٢٥	كعب بن الأشرف	١٠٢
٢٦	أبو نائلة	١٠٣

الرقم	الاسم أو الكنية	رقم الصفحة
٢٧	محمد بن مسلمة	١٠٣
٢٨	أبو قتادة بن ربعي	١٠٥
٢٩	بريدة بن الحصين	١٠٦
٣٠	سباع بن عرفطة	١٠٦
٣١	جويرية بنت الحارث	١٠٧
٣٢	أبو لبابة	١٠٨
٣٣	خالد بن الوليد	١٠٩
٣٤	نوفل بن معاوية	١١٠
٣٥	بديل بن ورقاء	١١٠
٣٦	حاطب بن أبي بلتعة	١١٢
٣٧	الزبير بن العوام	١١٢
٣٨	عتبة بن ربيعة	١١٤
٣٩	أم جميل	١١٥
٤٠	خباب بن الأرّت	١١٦
٤١	سعيد بن زيد	١١٦
٤٢	أبو ذر	١١٧
٤٣	العباس بن عبد المطلب	١١٨
٤٤	خنيس بن حذافة	١١٩
٤٥	عثمان بن عفان	١١٩
٤٦	أنس بن مالك	١٢١
٤٧	فاطمة الزهراء	١٢١
٤٨	أبو رافع	١٢٢
٤٩	عبد الله بن عتيك	١٢٢
٥٠	نُعيم بن مسعود	١٢٤
٥١	خبيب بن عديّ	١٢٦
٥٢	إيللي كوهين	١٣٠
٥٣	موشي ديان	١٣٠
٥٤	جلعاد شاليط	١٣١

الرقم	الاسم أو الكنية	رقم الصفحة
٥٥	نور الدين الأتاسي	١٣١
٥٦	قين بن آدم	١٣٨
٥٧	عمر بن عبد العزيز	١٥١

فهرس الأشعار

صدر البيت	الشاعر	رقم الصفحة
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة...	طرفة بن العبد	٧٨
السر عندي في بيت له غلق...	الحسين بن عبد الله	٩٩
لا يكتم السر إلا من له شرف ...	الحسين بن عبد الله	٩٩
أبكي الذين أذاقوني مودتهم ...	بشار بن برد	١٥٤
أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ...	أبو مسلم الخراساني	١٥٤
أناس أمنّاهم فنمّوا حديثنا ...	أبو اسحق الموصلي	١٥٤
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ...	أبو مسلم الخراساني	١٥٤
رعى سركم في مضمر القلب والحشا...	كثير عزة	١٥٤
كريم يميت السرّ حتى كأنه ...	الأحوص الأنصاري	١٥٤
لا تفشِ سِرَّكَ إلا عند ذي ثقةٍ ...	كعب بن زهير	١٥٤
لأخرجن من الدنيا وسرهم ...	بشار بن برد	١٥٤
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم ...	أبو مسلم الخراساني	١٥٤
وأكتم نفسي بعض سري تكرماً، ...	كثير عزة	١٥٤
وإن ضيع الأحرار سراً، فإنني ...	أحمد بن الحطيم	١٥٤
وللسرّ منّي موضع لا يناله	أبو الطيب المتنبي	١٥٤
يكون له عندي إذا ما ضمنته ...	أحمد بن الحطيم	١٥٤
إذا المرءُ لم يحفظْ سريرةَ نفسِه ...	يحيى بن زياد	١٥٥
صدراً رَحيبا وقالباً واسعاً صمتاً ...	كهب بن زهير	١٥٥
كريم يميت السر، حتى كأنه، ...	كثير عزة	١٥٥
لاتفشِ سِراً ما استطعْتَ إلى امرئٍ ...	علي بن أبي طالب	١٥٥
وإفشاءُ ما أنا مستودعٌ ...	أبو الطيب المتنبي	١٥٥
وسِرُّكُمْ في الحشا ميتٌ ...	أبو الطيب المتنبي	١٥٥
ولا يسمعن سرّى وسرّك ثالث ...	جميل بثينة	١٥٥
ولكنني أُخفِيْهِ حتى كأنني ...	بشار بن برد	١٥٥
وللسرِّ فيما بين جنبيَّ مكمنٌ ...	بشار بن برد	١٥٥
وما السرُّ في صدري كميتٍ بقبرِه ...	بشار بن برد	١٥٥

صدر البيت	الشاعر	رقم الصفحة
إذا المرءُ أفشى سِرَّهُ بلسانهِ ...	محمد بن ادريس الشافعي	١٥٦
إذا المرءُ لم يحفظْ سريرةَ نفسِه ...	محمد بن اسحق الواسطي	١٥٦
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِه ...	محمد بن ادريس الشافعي	١٥٦
أسعدُ الناسِ من يكاتمُ سرَّه ...	شمس الدين بن الكيزاني	١٥٦
إن يجدْ مرةً حلاوةَ شكواه ...	شمس الدين بن الكيزاني	١٥٦
إنما يعرفُ اللبيبُ إذا ما ...	شمس الدين بن الكيزاني	١٥٦
سِرُّ الفتى من دمِه إن فَشا ...	أبو النصر الأبيوردي	١٥٦
فبعداً له من ذي أخٍ ومودةٍ ...	محمد بن اسحق الواسطي	١٥٦
فكما تراهُ بسرِّ غيرِكَ صانعاً ...	علي بن أبي طالب	١٥٦
واحتطْ على السرِّ بإخفائِه ...	أبو النصر الأبيوردي	١٥٦
وَلا خَيرَ في خِلٍّ يَخونُ خَليلَهُ ...	محمد بن ادريس الشافعي	١٥٦
وَيُنكِرُ عَيشاً قَد تَقادَمَ عَهدُهُ ...	محمد بن ادريس الشافعي	١٥٦

جدول المحتويات

خطة البحث ٩

المقدمة..... ١١

المبحث التمهيدي..... ١٣

السرية والكتمان، معناهما وأنواعهما، والفروق بينهما، وفوائد الكتمان

وفيه مطلبان: ١٣

المطلب الأول: ١٣

تعريف السرية والكتمان لغة واصطلاحاً والفرق بينهما ١٣

الفرق بين السر والكتمان:..... ١٤

المطلب الثاني:..... ١٦

أنواع السرّ والكتمان وفوائدهما..... ١٦

أولاً:أنواع السّر وهي ثلاثة:..... ١٦

ثانياً: أنواع الكتمان. ١٦

١- كتمان الحاجات:..... ١٦

٢- ستر عورات المسلمين:..... ١٧

٣- كتمان أسرار الزوجية:..... ١٧

٤- الأمور المحرم كتمانها:..... ١٧

أ-الشهادة ١٧

ب- كتمان العيب في البيع والشراء: ١٩

ج-كتمان العلم:..... ١٩

فوائد كتمان السر:..... ٢٠

الفصل الأول ٢١

تصنيف الآيات التي ورد فيها ذكر الكتمان حسب موضوعها وفيه مبحثان:..... ٢١

المبحث الأول: التصنيف الموضوعي للآيات: ٢١

أولاً: كتمان السرائر. ٢١

ثانياً: كتمان الحق. ٢٥

ثالثاً: الكتمان في الدماء. ٢٦

رابعاً: كتمان الشهادة..... ٢٧

خامساً: كتمان العلم. ٣٠

سادساً: كتمان ما في الأرحام. ٣٣

سابعاً: كتمان النفاق والكفر. ٣٤

ثامناً: كتمان المجرمين يوم القيامة. ٣٦

تاسعاً: كتمان الوصية. ٣٧

عاشراً: كتمان الإيمان حرصاً على الدعوة. ٣٨

المبحث الثاني:..... ٤١

أهمية الكتمان في الاستقرار والسلامة للمجتمع على مستوى الجماعة والفرد. ٤١

عبرة وعظة من قصة الإفك في القرآن:..... ٤٤

النفس تميل للكتمان: ٤٦

الفصل الثاني..... ٤٩

تصنيف الآيات التي ورد فيها ذكر السرّية حسب موضوعها وفيه مبحثان:..... ٤٩

المبحث الأول: التصنيف الموضوعي للآيات: ٤٩

أولاً: السرّية في مكنونات النفس والنجوى. ٤٩
ثانياً: السرّية في مواعدة النساء وفي الحياة الزوجية. ٦٤
ثالثاً: السرّية في الصدقة والإنفاق. ٦٨
رابعاً: إسرار النفاق وإسرار الندامة..... ٧٢
خامساً: الأسرار في البضاعة والتجارة. ٧٧
سادساً: الإسرار في الدعوة وفي ردّ الأذية. ٧٨
سابعاً: إسرار المودة للكافرين–(والنهي عنها) ٨١
المبحث الثاني:..... ٨٣
أهمية السرّية في الاستقرار والسلامة للمجتمع على مستوى الجماعة والفرد. ٨٣
صور من القرآن لحفظ الفرد والجماعة بالسرّية:..... ٨٦
الفصل الثالث..... ٩١
السرّية والكتمان في السنة النبوية، وفيه ثلاثة مباحث: ٩١
المبحث الأول: ٩١
السرّية والكتمان في حياة النبيّ ﷺ. ٩١
أولاً: السرية في الدعوة..... ٩١
ثانياً: السرية في الهجرة..... ٩٢
ثالثاً: السرية في الحياة الاجتماعية..... ٩٦
من صفات أمين السر: ٩٨
التدريب على كتمان السر:..... ١٠٠
النواحي الإيجابية للسريّة والكتمان:..... ١٠٠
النواحي السلبية عند ترك السرّية والكتمان:..... ١٠٠

رابعاً: السرّية في الغزوات والحياة العسكرية. ١٠١
أ- سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه ١٠١
ب-سرية سالم بن عمير إلى عفك: ١٠٢
ت-اغتيال كعب بن الأشرف ١٠٢
ث-سرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص ١٠٤
ج- سَرِيَّةُ أَبِي قتادة بن ربعي إلى خضرة: ١٠٥
ح- غزوة دومة الجندل ١٠٥
خ- غزوة المريسيع(بني المصْطَلِقْ) ١٠٦
د- غزوة الأحزاب..... ١٠٧
ذ- غزوة مؤتة: ١٠٨
ر- غزوة فتح مكة ١٠٩
المبحث الثاني:..... ١١٤
السرّية والكتمان في حياة الصحابة في زمن النبيّ ﷺ ١١٤
أولاً: السرّية في الدعوة. ١١٤
ثانياً: السرّية والكتمان في الحياة الاجتماعية. ١١٩
ثالثاً: السرّية والكتمان في الغزوات والسرايا والبعوث. ١٢٢
اغتيال أبي رافع اليهودي ١٢٢
غزوة بني لحيان ١٢٦
المبحث الثالث:..... ١٢٨
نماذج من السرّية والكتمان في العصر القديم والعصر الحديث..... ١٢٨
نماذج من الكتمان والسرّية في العصر الحديث: ١٢٨

مباغتة الجيش (الإسرائيلي) في العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ..... ١٢٩
المباغتة العربية في حرب العاشر من رمضان(١٩٧٣): ١٣٠
نماذج من فهم وتطبيق السرّية والكتمان من العصر القديم:..... ١٣٣
الفصل الرابع:
نماذج من السرّية والكتمان في حياة الأنبياء، وأخص نوحاً عليه السلام و أقوال وأشعار وحكم وأمثال في السرية والكتمان.....١٣٧
وفيه مبحثان: ١٣٧
المبحث الأول: نماذج من السرّية والكتمان في حياة الأنبياء وأخص نوحاً عليه السلام. ١٣٧
آدم عليه السلام: ١٣٨
صالح عليه السلام: ١٣٨
إبراهيم عليه السلام: ١٣٩
لوط عليه السلام: ١٤٠
يوسف عليه السلام: ١٤١
موسى عليه السلام: ١٤٣
السرية والكتمان في حياة نوح عليه السلام: ١٤٤
لماذا سُميَ نوح؟..... ١٤٤
مدة لبثه في قومه:..... ١٤٤
سيرته في قومه:..... ١٤٥
دعوته لقومه وعدد من آمن به: ١٤٥
دعائه على قومه وبناء السفينة:..... ١٤٧

مراحل الدعوة في حياة نوح عليه السلام: ١٤٧
تحليل الشخصية واتباع الأسلوب المناسب لها في الدعوة: ١٤٧
المبحث الثاني: أقوال وأشعار وحكم وأمثال في السرّية والكتمان. ... ١٥١
من الأقوال: ١٥١
أشعار في السرّية والكتمان: ١٥٣
أولاً: في الوصف والفخر بالكتمان: ١٥٤
ثانياً: الحرص على الكتمان مع وجود الأذى والمعاناة: ١٥٤
ثالثاً: الفخر ونجاح المهمة: ١٥٤
رابعاً: صفات بعض الناس: ١٥٤
خامساً: وصية: ١٥٥
سادساً: في التشبيه: ١٥٥
سابعاً: النصيحة: ١٥٥
ثامناً: مدح النفس في الكتمان: ١٥٥
تاسعاً: الحكمة: ١٥٥
عاشراً: الذم لغير الكتوم: ١٥٦
حاد ي عشر: مكارم الأخلاق: ١٥٦
حكم وأمثال في السرّية والكتمان: ١٥٧
الخاتمة..... ١٦٠
المصادر والمراجع ١٦٣
فهرس الآيات القرآنية..... ١٧٢
فهرس الأحاديث الشريفة ١٨٢
فهرس الأعلام المترجم لها..... ١٨٤

فهرس الأشعار ١٨٧